أيّوب

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

القاهرة

المحتويات

المقدّمة	4
أيّوب	26
من وحي القرآن	26
من	132
صفات النبي أيّوب	132
1 . صابر:	132
2 . مرحوم:	145
3- أوّاب:	149
4 . موهوب:	154
5 . عبد الله:	196
6 . منادي:	198
7 . مستجاب له:	199
8 . صالح:	201
9 . موحى إليه:	202
10 . مهدي:	204
ذرّية بعضها من بعض:	225
اصطفاء أيّوب:	227
بين الاصطفاء والاختيار:	230
الاصطفاء على العالمين والمفاضلة:	232
الذرية التناسلية والتباعضية:	244

مس أيّوب:	251
هل للشيطان أثر على الإنسان؟	265
1 . الإغواء:	266
2 . الوسوسة:	267
3 . القعود:	268
4 . الإضلال:	269
أفعال الشيطان:	273
تعرض الشيطان للأنبياء:	276
يمين أيّوب:	290
النبي	313
أيّوب من السنّة	313
من صور الغني:	315
من مظاهر غنى الغني:	324
أيّوب بين الحقّيقة والاتهام:	341
ابتلاء أيّوب:	346
دعاء أيّوب:	350
استجابة الله لدعاء أيّوب:	399

المقدّمة

اشتهر النّبي أيّوب عليه الصّلاة والسّلام بصبره وثقته في ربّه تعالى بأنّه لا شافي الّا هو عزّ وجلّ، وهو عندما التجاء الى ربّه داعيا استجاب سبحانه وتعالى إلى عبده وأمره بأن يقف من مكانه ويضرب الأرض برجله، فظهر له منبع عين فأمره سبحانه وتعالى بالاغتسال من المياه النابعة من العين، وعندما نفذ أمر الله تعالى خرج من بدنه جميع الأذى والأذى الذي كان يلمّ به طيلة تلك السنوات التي لم يرد اتفاقا عليها، ثم أمره سبحانه وتعالى مرة أخرى أن يضرّب الأرض ثانية في مكان آخر، ففعل نبينا أيّوب وأخرج من مكان الضّرّبة نبعا بعين أخرى، فأمره سبحانه وتعالى أن يشرب من مياهها، فخرج من باطنه كلّ الألم الذي كان يشعر به، فعادت له عافيته من الباطن والظاهر.

رفع الله تعالى عن نبيه أيّوب عليه السّلام البلاء بعد ما مرّ به من الم؛ فقد كان صابرًا شاكرًا ذاكرًا مع شّدة ما الّم به من الألم والأذى والسقم والمرض وأبدله بعد ذلك صحة ظاهرة وباطنة ولما اغتسل من ذلك الماء المبارك أعاد الله لأيّوب عافيته وسلامته. وقد رفع الله عن سيدنا أيّوب الشدّة وكشف ما به من ضُرٍ رحمة منه ورأفة وإحسانا وجعل قصّته ذكرى للعابدين تُصَبِّر من ابتليَ بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرّج الله كربه.

إنّه الشّافي الذي بيده الشفاء لكلّ مرض وداء وألم، هو القادر على تغيير الأحوال من سيئة إلى حسنة، هو الشّافي الذي يعيد الأحوال من حالة الخوف إلى حالة الطمأنينة. وهو الشافي جلّ جلاله الذي إذا أراد لشيء أن يكون يقول له (كن) فيكون.

ولهذا فقد اشتهر أيّوب عليه السّلام بصبره حتى أصبح المثال للصبر، كان غنيا ويملك الكثير، يتصدّق ويتزكّى، وكان ليّن الجانب.

اشتهر بغناه مثلما اشتهر بفقره وحاجته لما يشبع الحاجة، وفي غناه كان يعلم أنّه لا غنى إلّا من الغني المطلق جلّ جلاله، واسم الغني "من أَسْماء الله تعالى في علاه، وهو الذي لا يَحْتاجُ إلى أَحدٍ في شيءٍ، وكلُّ أَحَدٍ مُحْتاجٌ إليه، وهذا هو الغِنى المطْلَق"1.

فالغنيُّ: مصدر الغنى البدني والرّوحي والنفسي والعقلي، وبهذا فهو مصدر الغنى الكمي والكيفي، ولننظر كيف؟

البدن غنى مادّي جمالي وهو مظهر من مظاهر الوجود في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، والرّوح غنى البدن بالحياة المنبعثة فيه بالأمر الخارج عنه، والنّفس غنى الرّوح بالبقاء المؤقّت مع المظهر المادّي للمخلوق في محيط البدن، والعقل غنى النفس بما يطمئنها، حيث فقدانه مقلق، أمّا الرّوح فأمرها بيد الغني المطلق جلّ جلاله.

وعليه فسلامة البدن وطهارته غنى يجعل كلّ عضوٍ شاهدا بالسّلامة والطّهارة في مرضاة الغني المطلق جلّ جلاله.

وانبعاث الرّوح في البدن غنى من التلف والفساد، لتسيره حركة وسكونا فيما يشاء الله أن يكون عليه ويكون به.

وغنى النفس امتلاؤها بالطمأنينة، التي بها تسكن على الحقّ ثباتا لا حياد عنه دون ظنّ.

وغنى العقل بإرشاده إلى ما به تتم الهداية وبه يحقّ الحقّ، أي نور يضاء به البدن والنفس.

---

1 لسان العرب، ج 15، ص 135.

ورأت اليهود أنّ معنى الغنى مقصورٌ ضدُّ الفَقْر، قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}2، وحدث ذلك عندما سمعوا قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}3.

فالغني: هو الذي أغنى أيّوب وجعله من المالكين، وهو الذي أغنى غيره فمنهم شاكرين ومنهم جاحدين، ولكلّ حسابه يوم الحساب، ولذا فالغني يغني وهو ليس في حاجة، وهو يملك المطلق لمشبعات كل حاجة، يهب ما يشاء لمن يشاء وهو لا يوهب إليه، يرزق وهو في غير حاجة للرزق، يملك وهو في غير حاجة للملك، إنّه ذو الرّحمة والمغفرة والتوبة لكلّ عبد منيب ومستجيب له واحد احد لا شريك له، له ما في السّماوات وما في الأرض وهو على كلّ شيء قدير، وهو الذي يُفْتَقرُ إليه وهو الغني الحميد، وهو الذي كمل في غناه عمّا سواه، كما أنّ الحليم الذي كمل في حلمه. فالله جلّ جلاله غني في ذاته بذاته لعدم حاجته أو احتياجه لغيره، ولغناه عن الحاجة في ذاتها، فكيف يحتاج من ليس له طريق للحاجة، بل هو الذي خلقها، وليس ليحتاج إليها، لقد خلقها لكي تسبّحه كثيرا، وتمجّده كثيرا في علاه، وتعلم رفعته، وتظهر مجده الأبدي الأزلي الذي ليس للعوز طريق إليه بأيّ حال كان، وللخليفة أن يستمدّ منه الغنى، فالخليفة هو الذي يبحث عن مشبعات حاجاته بما يرضي ربّه تعالى؛ فعليه ممّا عليه بالآتي:

---

2 آل عمران 182،181.

3 البقرة 24.

التقوى: وهي خير الزّاد، وذلك بالسير على الجادة التي لا يحيد عنها إلا هالك، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}4. ولهذا فمن يتقي الله يجد له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سبحانه جلّ جلاله إنّه الغني.

الإنفاق في وجوه الخير: قال تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}5.

كثرت الرّوايات والأساطير التي نسجت حول مرض أيّوب، ودخلت الإسرائيليات في كثير من هذه الروايات التي منها.

أنّ أيّوب عليه السّلام كان ذا مال وولد كثير، ففقد ماله وولده، وابتلي في جسده، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا زوجته ورجلين من إخوانه. وكانت زوجته تخدم النّاس بالأجر، لتحضر لأيّوب الطعام. ثم إنّ النّاس توقفوا عن استخدامها، لعلمهم أنّها امرأة أيّوب عليه السّلام، خوفا أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته. فلمّا لم تجد أحدا يستخدمها باعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير، فأتت به أيّوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسا، فلمّا كان الغد لم تجد أحدا، فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضا، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن

4 التغابن 16-18.

5 البقرة 1-5.

رأسها خمارها، فلمّا رأى رأسها محلوقا، قال في دعائه: (ربّ إنيّ مسّني الضّرّ وأنت أرحم الرّاحمين). وحلف أن يضربّها مئة سوط إذا شفي. وقيل أنّ حلفه بضربها كان لأنّها أخبرته أنّها لقيت طبيبا في الطريق عرض أن يداوي أيّوب إذا رضي أن يقول أنت شفيتي بعد علاجه، فعرف أيّوب أنّ هذا الطبيب هو إبليس، فغضب وحلف أن يضربّها مئة ضربة.

قصّة أيّوب فيها من المتناقضات ما يسفهها بالتمام، وإليكم إلى جانب ما ذكرناه صياغات وروايات مختلفة عنها، وذلك لتسهيل المقارنات للقراء الكرام، ومنها:

روى بن أبي حَاتِمٍ نَحوه من حَدِيث بن عَبَّاسٍ وَفِيهِ ما قيل عن أيّوب: "فَكَسَاهُ اللَّهُ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجنّة فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ فَقَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ أَبْصَرْتَ الْمُبْتَلَى الَّذِي كَانَ هُنَا فَلَعَلَّ الذِّئَابَ ذَهَبَتْ بِهِ فَقَالَ وَيْحَكِ أَنا هُوَ"6.

وروى بن أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ نَحْوَ حَدِيثِ أَنَسٍ وَفِي آخِرِهِ قَالَ "فَسَجَدَ وَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا أَرْفَعُ رَأْسِي حَتَّى تَكْشِفَ عَنِّي فَكَشَفَ عَنْهُ وَعَنِ الضَّحَّاك عَن بن عَبَّاسٍ رَدَّ اللَّهُ عَلَى امْرَأَتِهِ شَبَابَهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِينَ وَلَدًا ذَكَرًا"7

كان أيّوب عبدا من عباد الله الصّالحين، وقد ابتلاه الله تعالي لسرٍّ لا نعلمه، ولكن في مجمله لا يكون إلّا خيرا ومن بعده رحمة عظمى، ذلك لأنّ الابتلاء لا يكون إلّا من الله، ولكن لمن هم مقرّبين إليه،

6 فتح الباري لابن حجر، 6، ص 420.

7 المرجع السابق ص 420.

ليطهّرهم من كلّ شيء في الحياة الدّنيا الزائلة، ثمّ يعيدهم فيها على القوّة والمكانة والرّفعة، ثمّ يورّثهم من بعدها الجنّة.

وكما يقولون بلا حجّة ودليل قاطع ولا غموض لقد أبتلي أيّوب في عافيته وولده وماله؛ فصبر صبرا جميلا، وبقي واثقا في ربّه، راضيا بقضائه، محتسبا لابتلائه، وكان الشيطان عليه اللعنة يوسوس لزوجته، ولعدد من خلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له بأنّ الله ـ تعالي ـ لو كان راضيا عن عبده أيّوب ما ابتلاه هذا الابتلاء الذي طال سنين.

وفي أمر الابتلاءات يقول رسول الله عليه الصّلاة والسّلام وفقا لما روي عنه: "أشدّ النّاس بلاء الأنبياء، ثمّ الصّالحون، ثم الأمثل فالأمثل وقال: يبتلي الرّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه"8

أمّا القرآن الكريم فيدلّ على أنّ ابتلاء الله عزّ وجلّ نبيه أيّوب عليه السّلام لم يكن على وجه العقوبة على ذنب أو مخالفة، ولكنّه كان لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

ولأنّه لم يكن عقابا فقد أثنى سبحانه وتعالى على صبره في قوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}9، وهو سياق ثناء ومدح ورفع مقام ومكانة، ولهذا فهو يختلف عن سياق العتاب أو العقاب كما يدّعي البعض. أي أنّ هذه الآية الكريمة تكشف مدى رضا الله على نبيّه أيّوب عليه الصّلاة والسّلام. ولهذا ليس كلّ ما يقال عن الأنبياء يؤخذ به وكأنّه المسلّمات والحجج؛ فنحن ندرك أنّ ما قاله

---

8 صحيح الجامع، السلسلة الصحيحة للألباني، ص 143 ـ 145.

9 ص 44.

الأنبياء هو الحجّة الصّادقة، ولكن كيف نثبت أنّ ما قيل عنهم قد قالوه أو أنّه كان ملتصقا بهم؟

وهنا أقول موجزا:

الكلّ يعرف أنّ القرآن الكريم قد نسخ ما سبقه من رسالات، وأنّ النسخ لا يعد إلغاء لها، ولكنّه يعني أنّ ما قيل في تلك الكتب والصّحف والرّسالات قد احتوتها رسالة الكافة برسول الكافة محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وعلى هذا المثال؛ فإنّ سنّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام هي السنّة الخاتمة؛ فمن يؤمن بنبي غير محمّد؛ فليس له إلّا الإيمان بمحمّد الذي بالصّلاة والسّلام عليه تعم الصّلاة والسّلام على كافّة الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

أيّوب عليه السّلام نبيا موحى إليه؛ فليس له إلّا التكريم من ربّه، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ}10

ولأنّ أيّوب نبيا مكرّما من ربّه؛ فكانت له الإجابة من بعد الإجابة، وكان لع التيسير من بعد التعسير، أي كان له تزامن العسر مع اليسر مصداقا لقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}11.

---

10 النساء 163.

11 الشرح 5، 6.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أشد النّاس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" وهكذا صار النّاس إذا ذكروا بلاء سيدنا أيّوب وصبره على مر السنين مع كونه أفضل أهل زمانه.

وعليه:

هناك من المبالغة في ابتلاء أيّوب عليه السّلام، وهذا لا يعني أنّه لم يتعرّض لما تعرّض له، ولكن السرّعة في الدّعاء كانت مرتبطة بسرعة الاستجابة (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) أي أنّ اليسر في قصّة النبي أيّوب عليه السّلام قد تلازم مع كلّ عسر.

ومع ذلك سأذكر ما قيل في حقّه بين حقّ وباطل، ومنه:

إنّه ابتلي كما قيل بأن جاءت الشياطين إلى أمواله فأحرقتها، وفتكت بأغنامه وإبله وعبيده وخرّبت أراضيه؛ فلما رأى سيدنا أيّوب ما حل به لم يعترض على الله تعالى بل قال: لله ما أعطى ولله ما أخذ؛ فهو مالك الملك وله الحمد على كلّ حال.

وكما قيل أيضا: عادت الشياطين إلى أفعالها وفسادها؛ فسلطت على أولاد سيدنا أيّوب الذين كانوا في قصر أبيهم ينعمون برزق الله تعالى فتزلزل القصر بهم حتى تصدّعت جدرانه ووقعت حيطانه وقتلوا جميعا ولم يبق منهم أحد. وبلغ سيدنا أيّوب الخبر فبكى لكنّه لم يقابل المصيبة إلا بالصّبر.

امتلأ إبليس وأعوانه غيظا ممّا صدر من سيدنا أيّوب عليه السّلام من صبرٍ وتسليم لقضاء الله وقدره وأصيب سيدنا أيّوب بأمراض شديدةٍ عديدة لكنّه لم يخرج منه الدودُ كما يذكر بعض النّاس الجهال وإنّما اشتدّ عليه المرض والبلاء حتى جفاه القريب والبعيد ولم يبق معه إلا القلة

القليلة، لكنّ زوجته بقيت تخدُمهُ وتحسن إليه ذاكرة فضله وإحسانه لها أيّام الرّخاء.

ثم طالت مدة هذه العلة ولم يبق له شيء من الأموال البتة. وكان يزوره اثنان من المؤمنين فارتدّ أحدهما وكفر فسأل سيدنا أيّوب عنه فقيل له وسوس إليه الشيطان أنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصّالحين وأنّك لست نبيا فاعتقد ذلك.

وكما قيل أنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يختبر صبر سيدنا أيّوب عليه السّلام فابتلاه بمرض لم يبقه سليما إلا في قلبه ولسانه، وأصبح رجلا ضعيفا لا حول له ولا قوّة، ولم يعد أحد يزوره من أقاربه وأصدقائه سوى زوجته التي كانت له زوجة صالحة وبارة به ظلت ترعاه طيلة فترة مرضه وعملت في خدمة النّاس بمقابل مادّي حتى تستطيع أن تطعم زوجها وتخدمه، وظل نبينا عليه السّلام مريضا وفقيرا سنين طوال، ولكن بالرّغم من كلّ المصائب التي حلّت به عليه السّلام فلم يتوانى عن حمد الله وشكره وازداد صبره صبرا كثيرا إلى أن أصبح يضرّب له المثل في صبره.

وقد قيل الكثير ممّا قيل فيه، ولكنّني لم آت منه إلّا بما يليق بي أن اكتبه عن نبيا لا يليق بناء إلّا أن نصلّي ونسلّم عليه كوننا لا نفرّق بين أحدٍ من رسله، {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[12].

ولأنّ أيّوب نبيا مكرّما من ربّه؛ فكانت له الإجابة من بعد الإجابة، وكان لع التيسير من بعد التعسير، أي كان له تزامن العسر مع

---

12 البقرة 285.

اليسر مصداقا لقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}13.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أشد النّاس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" وهكذا صار النّاس إذا ذكروا بلاء سيدنا أيّوب وصبره على مر السنين مع كونه أفضل أهل زمانه.

وعليه:

هناك من المبالغة في ابتلاء أيّوب عليه السّلام، وهذا لا يعني أنّه لم يتعرّض لما تعرّض له، ولكن السرّعة في الدّعاء كانت مرتبطة بسرعة الاستجابة (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) أي أنّ اليسر في قصّة النبي أيّوب عليه السّلام قد تلازم مع كلّ عسر.

ومع ذلك سأذكر ما قيل في حقّه بين حقّ وباطل، ومنه:

إنّه ابتلي كما قيل بأن جاءت الشياطين إلى أمواله فأحرقتها، وفتكت بأغنامه وإبله وعبيده وخرّبت أراضيه؛ فلما رأى سيدنا أيّوب ما حل به لم يعترض على الله تعالى بل قال: لله ما أعطى ولله ما أخذ؛ فهو مالك الملك وله الحمد على كلّ حال.

وكما قيل أيضا: عادت الشياطين إلى أفعالها وفسادها؛ فسلطت على أولاد سيدنا أيّوب الذين كانوا في قصر أبيهم ينعمون برزق الله تعالى فتزلزل القصر بهم حتى تصدّعت جدرانه ووقعت حيطانه وقتلوا جميعا ولم يبق منهم أحد. وبلغ سيدنا أيّوب الخبر فبكى لكنّه لم يقابل المصيبة إلا بالصّبر.

---

13 الشرح 5، 6.

امتلأ إبليس وأعوانه غيظا ممّا صدر من سيدنا أيّوب عليه السّلام من صبرٍ وتسليم لقضاء الله وقدره وأصيب سيدنا أيّوب بأمراض شديدةٍ عديدة لكنّه لم يخرج منه الدودُ كما يذكر بعض النّاس الجهال وإنّما اشتدّ عليه المرض والبلاء حتى جفاه القريب والبعيد ولم يبق معه إلا القلة القليلة، لكنّ زوجته بقيت تخدُمهُ وتحسن إليه ذاكرة فضله وإحسانه لها أيّام الرّخاء.

ثم طالت مدة هذه العلة ولم يبق له شيء من الأموال البتة. وكان يزوره اثنان من المؤمنين فارتدّ أحدهما وكفر فسأل سيدنا أيّوب عنه فقيل له وسوس إليه الشيطان أنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصّالحين وأنّك لست نبيا فاعتقد ذلك.

وكما قيل أنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يختبر صبر سيدنا أيّوب عليه السّلام فابتلاه بمرض لم يبقه سليما إلا في قلبه ولسانه، وأصبح رجلا ضعيفا لا حول له ولا قوّة، ولم يعد أحد يزوره من أقاربه وأصدقائه سوى زوجته التي كانت له زوجة صالحة وبارة به ظلت ترعاه طيلة فترة مرضه وعملت في خدمة النّاس بمقابل مادّي حتى تستطيع أن تطعم زوجها وتخدمه، وظل نبينا عليه السّلام مريضا وفقيرا سنين طوال، ولكن بالرّغم من كلّ المصائب التي حلّت به عليه السّلام فلم يتوانى عن حمد الله وشكره وازداد صبره صبرا كثيرا إلى أن أصبح يضرّب له المثل في صبره.

وقد قيل الكثير ممّا قيل فيه، ولكنّني لم آت منه إلّا بما يليق بي أن اكتبه عن نبيا لا يليق بناء إلّا أن نصلّي ونسلّم عليه كوننا لا نفرّق بين

أحدٍ من رسله، {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}14.

لما اشتد الحال على أيّوب عليه السّلام ولم يعد يقوى على شيء تضرّع إلى ربّه سبحانه وتعالى ودعا كما ورد في سورة الأنبياء {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}15. إنّه النبي أيّوب الذي يثق في أنّه لا تُسأل الرّحمة إلّا من مصدرها، ولهذا فهو قد سأل الرّحمن الرّحيم (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) والرّحيم اسم لله تعالى، ولأنّ اسمه الرّحيم، ومن صفته الرّحمة، إذن لا يمكن أن يَقنُط فاعل خير أو مؤمن من رحمته. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكمَا تُكَذِّبَانِ}16.

ولهذا فالتمسّك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممّارسة الخليفة في الأرض لدوره الطبيعي، أمّا الذين لم يَقدِموا على أداء الأفعال الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض. ولذا أحسِن يُحسَن إليك، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّك بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}17 أي أنّ التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنُ من قِبل الذين يُقدّم لهم كلما قدَّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرّحمن الرّحيم، وفي مقابل ذلك إنزال الضّرر بمن لا يعمل صالحا، وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى وقع بين أيدي النّاس الذين وقع عليهم منه ضرّا يستوجب عقابا أو قصاصا عاجلا، والضّرّ الأكبر

---

14 البقرة 285.

15 الأنبياء 83، 84.

16 الرّحمن 60، 61.

17 فصلت 46.

يلاحقّ الضّرّ الأصغر حتى يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجب ما قبلها.

وبما أنّ الله هو الرّحمن الرّحيم، إذن الرّحمة آتية لا محالة. وبما أنها آتية لا محالة لكل من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟ وعليه فمن يريد أن يَعُمَّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان كما آمن أيّوب عليه السّلام، فالإيمان يمكّن من الاستخلاف في الأرض ويجعل أصحابه من الوارثين في الدّارين.

يقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ ربّكمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}18 كلمتي غفور ورحيم تدلّ على أنّه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أيّ حين على فعل المغفرة والرّحمة، ولهذا جاءت كلمة الرّحيم مستمرّة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقّيقة كما هي سواء كانت ذات أثرٍ سالبٍ أو أثرٍ موجبٍ. وقصّة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما الصّلاة والسّلام دليل شاهد على تجسد الرّحمة في الأفعال {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ

---

18 . الأنعام 54.

لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ ربّك أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ ربّك وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}19

ولأنّه عبد الله الصالح عندما ألمّ به الألم نادى ربُّه مناداة العبد الطائع السائل المعبود المطلق أن يفك ما ألمّ به من كرب وشدَّة، فكانت له الاستجابة متزامنة مع زمن الدعاء مصداقا لقوله تعالى: {وأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}20.

فقوله تعالى: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) أي أن أيّوب:

ـ (نادى).

ـ (فاستجبنا).

ـ (فكشفنا).

هذه الصيغ الثلاثة هي صيغ الملازمة الزمنية، وكأنّه لا فاصل بين زمن المناداة وزمن الاستجابة وزمن كشف الضّرّ عن أيّوب.

ثم بعد ذلك آتيناه أهله وأكثر من ذلك مثلهم معهم رحمة من عند الله جلّ جلاله (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).

---

19 ـ الكهف من 70 ـ 82.

20 الأنبياء 83، 84.

ولذا؛ فمن يتقي الله ويطيعه كما أطاعه أيّوب وأخلص له في العبادة يجد الله عزّ وجلّ قريبا مجيبا للدعاء كلما دعاه أحد من عباده الكرام، ولذلك بقيت استجابة الله لنداء أيّوب ذكرى لأولي الألباب (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) الذين يعبدون الله وهم مخلصو العبادة.

ومع أنّ أيّوب نبيا كريما من أنبياء الله الكرام إلا أنّه بشر لم يرتقِ إلى الكمال كغيره من الخلق، فالكمال لله وحده، ولهذا تعرَّض أيّوب للمسٍ من الشيطان، التجاء أيّوب إلى من هو عابده واحد أحد ليفك اللبس عنه؛ فكانت له الاستجابة بما يطهّره من اللبس مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}21.

استجابة التطهير كانت بماءٍ طُهُر جعل أيّوب على القوّة يركض طاعة لأمر الله الذي قال له: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) أي قم فأنت أصبحت معافي على الشفاء والقوّة والقدرة التي تجعلك مهاب أمام الإنس والجن فلا تقربّك الشياطين من بعد هذه القوّة فركض برجله وهو متوكل على الله قوّة مطلقة.

أيّوب صلّى الله عليه وسلّم من ذرية إسحاق ابن إبراهيم، ولذلك كان أيّوب أحد الذين جعل الله فيهم النبوّة ذرية بعضها من بعض مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ

21 ص 41-44.

الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}22.

ولأنّه لا ضار إلّا الله؛ فهو الشّافي، أي لا ضرر إن أراد الله الشفاء، ومن هنا، بعد أن مسّ أيّوب ضررا، جاء الضّار فضرَّ ضرر أيّوب؛ فانقلب الضّرر شفاء، ومن هنا فالضّار هو النّافع الشّافي، فهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأشياء كلّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها"23.

والضّرّ ضد النفع24، ومع أنّ الضّرّ ضد النفع من حيث تقريب المعنى للقراء، إلا أنّ الضّار في أسماء الله الحسنى هو النّافع، فهو لا يضرّ لغاية الضّرر ولكنّه يضرّ لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة.

الله سبحانه وتعالى "لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنّما هو النّافع الضّار"25، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}26.

---

22 الأنعام 84 – 90.

23 لسان العرب، ج 4، ص 482.

24 المصدر السابق، ج 4، ص 482.

25 كتب العقيدة، ج 3، ص 159.

26 الزمر 7.

الضّار اسم من أسماء الله الحسنى وفيه صفة لازمة للذات الإلهية لا تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها، لأن المقابلة تحفظ التوازن المنطقي وإن كان الله تعالى غني عن هذا، فالمقاربة التي نحاول فيها تبسيط معنى هذه الصّفة من أجل توضيحها وإظهار الإطلاق فيها للذات الإلهية، ونسبية هذه الصّفة لغير الله تعالى، فممّا لا شك فيه أن كثير من النّاس لا يفهمون من معنى هذه الصّفة إلا سلبا، وهذا غير صحيح فلا صفة سلبية في صفات الله تعالى، فكل صفاته كمال وجلال وجمال؛ وهذا لا يدركه إلا المستخلفون فيها، أي الذي يُمكِّنه عقله من أن يجمع بالمعنى الفلسفي بين الذاكرة والإرادة والحافظة والاستنتاج والإدراك، وإلا كيف نفهم قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}27 وفي قراءة الإمامين ورش وقالون عن نافع ولولا دفاعُ اللهِ النّاس أي الحروب والاقتتال من أجل إعمار الأرض وهذا ما يقوم به الخليفة وهو من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها تنفيذا لأمر الله ومصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

---

27 البقرة 251

شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}28.

وعليه فإنّ إلحاق الضّرر بالضّرر هو فعل موجب، وهو عمل خير، من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها، حيث وضَّحَ الله للمستخلفين فيها سبل الهداية والرشاد بتفصيل ذلك بآيات مبصرات، فلقد قال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}29. فالله سبحانه يوقع الضّرر فيمن يريد الضّرر والإفساد، لأنّه سبحانه يرسل الرّسل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة وأمرهم بالصلاح بما فيه منفعتهم، فلما رفضوا دعوة الحقّ وكذبوا بها منكرين لدلالتها وخيرها وصلاحها، وقد وقع اليقين في قلوبهم، ولكنهم لم يذعنوا لاستعلائهم بالباطل وطغيانهم، فكان لابدّ من إيقاع الضّرر بهم حتى لا يتفشى في الأرض الفساد، وهذه عاقبة الذين دأبوا على الفساد وإلحاق الضّرر بالآخرين وبأنفسهم، وهذا الضّرر الذي حل بهؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعلين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها، وعبرة لمن يتعظ فمن قدر على هلاك فرعون وأمثاله من المفسدين كان قادرا على إهلاك من هو على صفته وذلك إلى يوم القيامة فإن الله تعالى دائم الضّرر للأعداء كما أن جماله وجلاله باق للأولياء والخلفاء مستمر في كلّ عصر وزمان، فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو

28 البقرة 30 ـ 37.

29 النمل 13، 14

من صفات النفس الأمارة بالسوء ويصلح حاله بالعدل والتواضع وغير ذلك ممّا هو من ملكات القلب التي يتصف بها الخليفة، والإشارة في الآية إلى أنّ الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة كانت عاقبتهم أنّهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع وقرنوا مع الشياطين في الدرك الأسفل من النار فانظر كيف أن الارتقاء إلى السؤدد في مرضاة الله تعالى من دفع المفاسد وجلب المصالح لا يكون إلا لمن اتبع سبيل الهدى وطريق الرشاد بمعنى أنّه يحمل صفة الضّار بالإضافة وهذه الصّفة يتمتع بها الخليفة ومن سمع وأطاع أمره من رعيته.

كان النّبي أيّوب موهوبا وهذه الصّفة التي اتصف بها سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم مثيرة للعقل الباحث عن الحقّيقة؛ لذا سنتناول وهب الله لأيّوب بأنّه وهب بلا سبب وبدون دعاء، وان طلب الوهب سنة الأنبياء والصالحين، وتعريف الوهب من الله والفرق بينه وبين التبرع على المستوى الإنساني.

فنقول وعلى الله اعتمادنا:

إنّ وهب أيّوب يبدأ من وهبه لله النبوّة والأهل وكل النعم التي تقلب فيها من قبل الابتلاء، دونما سؤال منه بأي منها، ودون عوض لله على وهبها، ووهبه نعما أكثر وأعظم من بعد الصّبر على الضّرّ والمس.

وموهوب اسم مفعول تدل على من وقع عليه الوهب، كما تدل على أنّ هناك واهبا جعل من الموهوب موهوبا بعد هباته له التي لم تكن لولا وهبه هو بداية.

والموهوب في سيرة أيّوب معلوم ذاتا وهبة، والواهب ليس مجهولا لأنّه لا واهب سواه بالمطلق جلّ جلاله وتقدست أسماؤه سبحانه المسئول هبة في كل لمحة ونفس.

والذي وهب لأيّوب وهبان مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}30.

- أهله.

- مثلهم معهم.

فكيف كان ذلك الوهب وهنا تثار تساؤلات منها:

- هل الوهب اشتمل على الموات من أهله؟

- هل هم عادوا أحياءً؟

هل الوهب بالبركة في الباقين؟

ومن أين جاء المثل الثاني؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نرى ما قيل في كتب التفاسير:

- "قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم"31.

أنّ الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية وأهله الذين ماتوا وهو في البلية، ويرى الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله وعافي المرضى وجمع عليه من تشتت منهم. وقيل وإليه أميل (الآلوسي) وهبه من كان حيا منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم

30 ص 43.

31 تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 7، ص 75.

العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى {وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ} فكان له ضعف ما كان32.

ونحن لا نرى رأي الحسن وقتادة رضي الله عنهما لأنه ينافي العقل ولم يثبت بنص ولم يذكره القرآن الكريم.

وكذلك لا نذهب إلى ما ذهب إليه الجمهور لأنّه يرى ما رأى الحسن وقتادة قبل ذلك. ونوافق الألوسي بأنّ الوهب في الأحياء بالبركة والتناسل، مع بقاء احتمال أن الله أحياهم له فهو على كل شيء قدير.

غير أنّ الوهب في حياة سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لم يقتصر على ذلك بل تعداه فالصّبر وهب والصلاح وهب ونعم العبد وهب.

وطلب الوهب سنة الأنبياء من قبل أيّوب ومن بعده وكذلك دأب الصّالحين والمؤمنين.

واختص الله به أيّوب أنّه وهبه ذلك الوهب دون أن يسأله بالتحديد أهله ومثلهم معهم.

ونحن وفي هذا المقام وسيرا على نهج الأنبياء والصالحين لا نقدر على دفع ألسن الضّرّاعة من أن تلهج للواهب الوهاب أن نقول: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}33.

---

32 تفسير الألوسي، ج 17، ص 357.

33 آل عمران 8.

وطلب الهبة من الله سنة الرّسل والصالحين مصداقا لقوله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}34.

فبانعدام الذرية بأسبابها المعلومة لا تنعدم حينئذ أسباب الهبة من الذرية الطيبة الموهوبة إذا دعا الموهوب طالبا الهبة من الوهاب (الله).

ونقول: إنّ كلّ ذرية هي وهب بأسبابها المعلومة أو الموهوبة لأنّ الأسباب المعلومة للذرية ما هي في حد ذاتها إلا هبة من الله الواهب مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}35.

فالوهب عطاء بلا أسباب، والجعل بقاء على الأسباب وإن لم تتحقّق أسباب الجعل بقي المجعول على أصله لأنّه لا يملك من الأسباب شيئا. والحمد لله ربّ العالمين

أ د عقيل حسين عقيل

2017 القاهرة

---

34 آل عمران 38 – 40.

35 الشورى 49 – 51.

أيّوب

من وحي القرآن

أيّوب نبي من أنبياء الله صلّى الله عليهم وسلَّم، عُرِف نبيا بصبره على ما ألمَّ به، فكان نعم العبد الكريم في الطاعة والهداية والصّبر مع خالص الإيمان لله ربِّ العالمين.

ولأنّه عبد الله الصالح عندما ألمَّ به الألم نادى ربُّه مناداة العبد الطائع السائل المعبود المطلق أن يفك ما ألمَّ به من كرب وشدَّة، فكانت له الاستجابة متزامنة مع زمن الدعاء مصداقا لقوله تعالى: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}36.

فقوله تعالى: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) أي أن أيّوب:

. (نادى).

. (فاستجبنا).

. (فكشفنا).

هذه الصيغ الثلاثة هي صيغ الملازمة الزمنية، وكأنّه لا فاصل بين زمن المناداة وزمن الاستجابة وزمن كشف الضّرّ عن أيّوب.

---

36 الأنبياء 83، 84.

ثم بعد ذلك آتيناه أهله وأكثر من ذلك مثلهم معهم رحمة من عند الله جلّ جلاله (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).

ولذا؛ فمن يتقي الله ويطيعه كما أطاعه أيّوب وأخلص له في العبادة يجد الله عزّ وجلّ قريبا مجيبا للدعاء كلما دعاه أحد من عباده الكرام، ولذلك بقيت استجابة الله لنداء أيّوب ذكرى لأولي الألباب (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) الذين يعبدون الله وهم مخلصو العبادة.

ومع أنّ أيّوب نبيا كريما من أنبياء الله الكرام إلا أنّه بشر لم يرتقِ إلى الكمال كغيره من الخلق، فالكمال لله وحده، ولهذا تعرَّض أيّوب للمسِ من الشيطان، التجاء أيّوب إلى من هو عابده واحد أحد ليفك اللبس عنه؛ فكانت له الاستجابة بما يطهّره من اللبس مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}37.

استجابة التطهير كانت بماءٍ طُهُر جعل أيّوب على القوّة يركض طاعة لأمر الله الذي قال له: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) أي قم فأنت أصبحت معافي على الشفاء والقوّة والقدرة التي تجعلك مهاب أمام الإنس والجن فلا تقربّك الشياطين من بعد هذه القوّة فركض برجله وهو متوكل على الله قوّة مطلقة.

أيّوب صلّى الله عليه وسلّم من ذرية إسحاق ابن إبراهيم، ولذلك كان أيّوب أحد الذين جعل الله فيهم النبوّة ذرية بعضها من بعض

---

37 ص 41-44.

مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}38.

ولأنّه لا ضار إلّا الله؛ فهو الشّافي، أي لا ضرر إن أراد الله الشفاء، ومن هنا، بعد أن مسّ أيّوب ضررا، جاء الضّار فضرَّ ضرر أيّوب؛ فانقلب الضّرر شفاء، ومن هنا فالضّار هو النّافع الشّافي، فهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها"39.

والضّرّ ضد النفع40، ومع أنّ الضّرّ ضد النفع من حيث تقريب المعنى للقراء، إلا أنّ الضّار في أسماء الله الحسنى هو النّافع، فهو لا يضرّ لغاية الضّرر ولكنّه يضرّ لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة.

الله سبحانه وتعالى "لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنّما هو النّافع الضّار"41، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: {إِنْ

38 الأنعام 84 – 90.

39 لسان العرب، ج 4، ص 482.

40 المصدر السابق، ج 4، ص 482.

41 كتب العقيدة، ج 3، ص 159.

تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}42.

الضّار اسم من أسماء الله الحسنى وفيه صفة لازمة للذات الإلهية لا تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها، لأن المقابلة تحفظ التوازن المنطقي وإن كان الله تعالى غني عن هذا، فالمقاربة التي نحاول فيها تبسيط معنى هذه الصّفة من أجل توضيحها وإظهار الإطلاق فيها للذات الإلهية، ونسبية هذه الصّفة لغير الله تعالى، فممّا لا شك فيه أن كثير من النّاس لا يفهمون من معنى هذه الصّفة إلا سلبا، وهذا غير صحيح فلا صفة سلبية في صفات الله تعالى، فكل صفاته كمال وجلال وجمال؛ وهذا لا يدركه إلا المستخلفون فيها، أي الذي يُمكّنه عقله من أن يجمع بالمعنى الفلسفي بين الذاكرة والإرادة والحافظة والاستنتاج والإدراك، وإلا كيف نفهم قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}43 وفي قراءة الإمامين ورش وقالون عن نافع ولولا دفاعُ اللهِ النّاس أي الحروب والاقتتال من أجل إعمار الأرض وهذا ما يقوم به الخليفة وهو من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها تنفيذا لأمر الله ومصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

42 الزمر 7.

43 البقرة 251

غَيْبَ السّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}44.

وعليه فإنّ إلحاق الضّرر بالضّرر هو فعل موجب، وهو عمل خير، من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها، حيث وضَّحَ الله للمستخلفين فيها سبل الهداية والرشاد بتفصيل ذلك بآيات مبصرات، فلقد قال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آَيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}45. فالله سبحانه يوقع الضّرر فيمن يريد الضّرر والإفساد، لأنه سبحانه يرسل الرّسل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة وأمرهم بالصلاح بما فيه منفعتهم، فلما رفضوا دعوة الحقّ وكذبوا بها منكرين لدلالتها وخيرها وصلاحها، وقد وقع اليقين في قلوبهم، ولكنهم لم يذعنوا لاستعلائهم بالباطل وطغيانهم، فكان لابدّ من إيقاع الضّرر بهم حتى لا يتفشى في الأرض الفساد، وهذه عاقبة الذين دأبوا على الفساد وإلحاق الضّرر بالآخرين وبأنفسهم، وهذا الضّرر الذي حل بهؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعلين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها، وعبرة لمن يتعظ فمن قدر على هلاك فرعون وأمثاله من المفسدين كان قادرا على إهلاك من هو على صفته وذلك إلى يوم

44 البقرة 30 ـ 37.

45 النمل 13، 14

القيامة فإن الله تعالى دائم الضّرر للأعداء كما أن جماله وجلاله باق للأولياء والخلفاء مستمر في كل عصر وزمان، فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو من صفات النفس الأمارة بالسوء ويصلح حاله بالعدل والتواضع وغير ذلك ممّا هو من ملكات القلب التي يتصف بها الخليفة، والإشارة في الآية إلى أن الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة كانت عاقبتهم أنهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع وقرنوا مع الشياطين في الدرك الأسفل من النار فانظر كيف أن الارتقاء إلى السؤدد في مرضاة الله تعالى من دفع المفاسد وجلب المصالح لا يكون إلا لمن اتبع سبيل الهدى وطريق الرشاد بمعنى أنّه يحمل صفة الضّار بالإضافة وهذه الصّفة يتمتع بها الخليفة ومن سمع وأطاع أمره من رعيته.

أمّا الخارج عن هذا الإطار فهو من الذين يلحقّهم الضّرر الضّار لتقويمه أو استئصاله لأنه لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فقد وصل إلى درجة من الهاوية بحيث لا يمكن أن ينتشل نفسه إلا باتباع ما يراه الخليفة من الأمر فيما هو أهل له من الأخذ على يد المارقين والسمو بهم لما يحبه الله ويرضاه لعباده، فما أقبح المرء أن يكون حسن بجسمه وشكله وغير ذلك في دينه وأخلاقه وعمله، ومثله كمثل رجل له جنة يرعاها ويعمرها ثم يضرّم فيها النار، أو أن يكون اعتباره بكثرة ماله وحسن أثاثه كما قال الله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}46 ففضّل الإنسان بالهمم العالية اتباع الحقّ والتحلي بالأدب والعقل الذي يعقله عن الوقوع في المهلكات بارتكاب

---

46 الجمعة 5

المنهيات ولآثام والفواحش والمعاصي فيكون من المفسدين الذين وجب على الخليفة إلحاق الضّرر بهم.

وذهب كثير من العلماء إلى وجوب عدم إفراد الأسماء المقترنة كالضّار والنّافع والخافض والرافع ونحن نرى غير ذلك، لذلك أفردنا هذا الاسم ليتم التبيُّن والوضوح الموجب في هذه الصّفة التي لا سالب فيها كما يظن البعض، ولهذا فكل ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى، وما في الوجود من غير ذلك فمن عدله، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه حقّ وعدل، فالضّار والضّرر ليس معناه من الله تعالى هو الأذى والشر، وإنما هو حكمة العدالة الإلهية في موازنة الخلق والمحافظة على استمرار الحياة عدلا، لذلك منح الله تعالى جزئية من هذه الصّفة للخليفة ليقيم بها العدل في استخدام الضّرر المباح الذي يعود على المجتمع بالصلاح وينهي المفاسد والانحرافات الضّارة بقيم المجتمع وفضائله.

الضّار: هو الذي لا يريد الضّرر في الأرض، ولا يريد سفك الدماء فيها بغير حقّ، ولذا فهو الضّار للضرر ومصدره.

الضّار للضرر نافع، ولذا فالنّافع هو الذي يلحقّ الضّرر بمن يضرّ أو بما يضرّ، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيحقّ اللَّهُ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}47. إذن الضّار جلّ جلاله هو الذي يبطل السحر، وذلك لأن السحر مفسدة، وفي هذا الأمر إحقّاق حقّ.

---

47 يونس، 80 ـ 82.

لذلك أفردنا صفة الضّار عن النّافع هنا، لأننا نتكلم عن كل اسم من أسماء الله الحسنى على انفراد فنقول في معنى الضّار أنه المنقص عبده لأشياء كثيرة ممّا يوضح بيان الحاجة إلى الخالق عزّ وجلّ كما في معنى النّافع أنه يسدُّ الخلة والنقص، وقد يجوز أن يُدعى الله جل ثناؤه باسم النّافع وحده وكذلك بالضّار وحده حتى تظهر إيجابية الضّار الذي يلحقّ الضّرر بكل ضار ومضر، وهكذا يجوز الجمع بين الاسمين كما نجمع في الباسط والقابض وفي اجتماع هذين الاسمين وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من يشاء وضر من يشاء وذلك أن من لم يكن على النفع والضّرّ قادرا لم يكن مرجوا ولا مخوفا فالنّافع هو الضّار وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأشياء كلها خيرها وشرها ونفعها وضرها، والضّرّ ضد النفع بمعناه اللغوي، ولكن عندما نفهم أن الضّار جلّ جلاله يضرّ الضّرر ومصدره، فيكون ضرره نفعا في ذاته ونفعا في الفعل المترتب عليه، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "لا ضَرَرَ، وَلا ضِرَارَ، وَلِلرَّجُلِ أَنْ يَجْعَلَ خَشَبَةً عَلَى حَائِطِ جَارِهِ، وَإِذَا شَكَكْتُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاجْعَلُوهَا سَبْعَةَ أَذْرُعٍ"48. ولكل واحد من اللفظين معنى غير الآخر فمعنى قوله لا ضرر أي لا يضرّ الرّجل أخاه وهو ضد النفع بأن يلحقّ به الأذى، ولا ضرار أي لا يضار كل واحد منهما صاحبه فالضّرار منهما معا وهو فعل مشترك بين اثنين أو أكثر، والضّرر فعل واحد يصدر من شخص بعينه، ومعنى قوله ولا ضرار أي لا يُدخل الضّرر على الذي ضره ولكن يعفو عنه كقوله عزّ وجلّ: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}49 فلا يضرّ الرّجل أخاه فينقصه شيئا من حقّه، والضّرار أن يجازيه على إضراره بإدخال الضّرر عليه، والضّرّ هو الهزال

48 المعجم الكبير للطبراني، 9، 498

49 فصلت 34

وسوء الحال وقوله عزّ وجلّ: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضّرّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}50 فكل ما كان من سوء حال وفقر أو شدة في بدن فهو ضر وما كان ضدا للنفع فهو ضر، والضّار هو موصل الضّرر إلى من أراد من خلقه أن يفسد، إذا فالضّار هو خالق الألم الذي تقع به الموازنة في معادلة كفتي الميزان حيث لا يخلو الخلق من الضّرر والشعور بالألم من هذا الضّرر سواء أكان ألما ماديا في نقصان الملك والمرض الذي يأتي على الصحة والعافية وفقدان الأحبة من الذرية والقرابة أم ألما معنويا مثل الخوف والحرمان والتطلع إلى أمنيات مشروعة لا يسبب فقدانها ألما ماديا وإنما هي من باب الحرمان الذي يولد شعورا بالنقص تجاه الآخرين يكون ألمه معنويا فيدخل من هذا الجانب تحت باب الضّرّ من حيث الظاهر ولكن من حيث الباطن فقد يبتلي الإنسان ليكون خليفة، لا لأجل أن يضل ويرتكب المفاسد، وفي هذا الأمر لا يخلو مخلوق من أن يصيبه ألمٌ من هذا النوع، قال تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}51.

أمّا عدم الإضرار فهو كل ما لا ألم فيه وهو الخير من فضل الله في الدارين، لذلك عندما يصيب الخليفة في الدار الدنيا من هذا النوع من الألم فهو يعلم أن الله تعالى يقول: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

---

50 يونس 12

51 النساء 78، 79.

كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}52 فالابتلاء بالأموال والأنفس ينصب على الجانب المادّي الذي يمتلكه الخلق، وأمّا سماع الأذى في القول وكيل التُّهم والافتراء فهو ينال من الجانب المعنوي والنفسي الذي يسبب نوعا مختلفا عن ذلك الألم، ومع هذا فإنّ الخليفة يدرك بحكم اختياره، وبنعمة الصفات النسبية التي أسبغها عليه الضّار جلّ شأنه أن هذا الضّرر فيه أجر عظيم، وفيه مديح لمن صبر على هذا الضّرر لأن ذلك من عزم الأمور، وعزم الأمور هو من الشدائد العظيمة التي تحتاج إلى نوع خاص من الرجال من أجل احتمالها وذلك لاتصافهم بصفات تختلف كل الاختلاف عن الصفات التي يحملها الآخرون، والخليفة ليس من هؤلاء الآخرين، وإنما هو من المصطفين الذين نالوا عناية واختيارا إلهيا فميزه بذلك عن بقية الخلق، ألا ترى كيف أن الله تعالى خاطب نبيه صلّى الله عليه وسلم بقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}53 فالله سبحانه يعلم أن الضّرر سيلحقّ جميع الخلق حيث المصلح والمفسد يعيشون جنبا إلى جنب، والضّرر الذي يصدر من بعض المخلوقين للبعض الآخر هو أربعة أنواع:

1- الضّرر بقصد الأذى لا لفائدة وإنما لما جبلت عليه بعض النفوس من الطباع السيئة التي تتلذذ بألم الآخرين، وهذا ناتج عن كون هذه النفوس أنها لا تستطيع أن تكون علما في عالم الخيرات وتريد أن تثبت ذاتها لنفسها على الأقل، أو أنها تفشل في مجاراة الآخرين في عالم الفضيلة ولا تستطيع أن ترقى الأمور عن الدنيئة فتلجأ إلى اختيار طريق

52 آل عمران 186

53 الأحقّاف 35

آخر تتميز به عن الآخرين حتى وإن كان في الاتجاه السلبي لذلك وجدنا (نيرون) وهو أحد القياصرة الرومان قد أحرق روما وهو حاكم لها من أجل التميز والتفرد بعمل لا مثيل له في التاريخ وهذا النوع من الضّرر لا مبرر له، ولا يخرج عن الأذى المقصود لذاته من أجل إشباع رغبة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}54، لذلك لما كانت هذه النفوس بهذا المستوى من السوء ولم تجد لها رادعا يضع حدا لها فظنوا أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم مخطئون في ظنهم هذا، فمثل أعمالهم في بطلانها وعدم جدواها كمثل اللمعان الذي يحدث من سقوط أشعة الشمس وقت الظهيرة على أرض مستوية في بيداء، فيظنه العطشان ماء وهو السراب، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا كما كان يظنه، فهؤلاء وأمثالهم إن ذُكروا فإنهم لا يذكرون إلا بسوء عملهم، وهناك نوع آخر من هؤلاء الذين يعمدون إلى الضّرر لذاته حسدا للآخرين على أعمالهم الصالحة التي تكون نبراسا وقدوة يُحتذى بها، وأمثلة ذلك كثيرة، حيث نقف على هذا النوع من الضّرر بقصد الحسد في قصّة ابني آدم عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ

---

54 النور 39، 40

نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}55 وهنا يبرز الحسد كأهم الأسباب الدافعة إلى الضّرر الضّار الذي يقصد منه الأذى وهو ما نهى عنه العقل والشرع لما له من مساوئ تعود على المجتمع بالخسران. قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}56.

2- الضّرر بالآخرين بقصد السيطرة والاستحواذ على حقّوق النّاس بغير وجه حقّ، ويحدث هذا النوع من الضّرر عندما يجد البعض لديه القوّة الكافية للتطاول على الحقّوق دون رادع يردعه، وهو إلحاق الضّرر بالزوجة المطلقة مثلا من أجل التنازل عن حقّوقها أو بعض منها حيث قال تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}57، فإذا طلقتم النساء فشارفن انتهاء عدتهن، فلكم أن تراجعوهن قاصدين إقامة العدل وحسن الصحبة

55، المائدة 27، 31

56 المائدة 32، 33.

57، البقرة 231

وعدم المضارة، ولكم أن تتركوهن لتنقضي عدتهن مراعين المعاملة اللائقة عند الفراق من غير جفوة، ذلك أن بعض الرجال يلجأ إلى استخدام ما خوله الله به من القيام على المرأة لغير ما أراده الله تعالى من الإنفاق حيث أن الله تعالى أعطى الرّجل هذا الحقّ مشروطا بقوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}58، فالقيامة مشروطة بشرطين: الأوّل هو من تفضيل الله في تكوين الخلق والاختلاف القائم بين الذكر والأنثى من جانبين: (البيولوجي) وهو الخلق والتكوين العضوي و(السيكولوجي): وهو التركيب العقلي والنفسي، وكذلك الإنفاق من قبل الرّجل على المرأة، فلا يجوز أن يكون القصد من المراجعة مضارة المرأة وتطويل عدتها من أجل التنازل عن حقّها الذي فرضه الله لها، ومن يفعل ذلك فقد حرم نفسه سعادة الحياة الزوجية وثقة النّاس به واستحقّ سخط الله عليه لما يلحقّه بها من ضرر، ولا تتخذوا أحكام الله في الأسرة التي جاءت بها الآيات وجعلت زمام الأسرة بيد الرّجل سببا في الأذى، ويكون الطلاق أيضا لغير سبب وجيه وإنما الغرض منه الحصول على متاع من الدنيا بغير حقّ مشروع فيكون ذلك، مضارة وإيذاء، إذ لا يجوز أن يكون القصد من المراجعة إلحاق الضّرر بالمرأة حتى تدفع إلى التنازل عن حقّها وافتداء نفسها، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه في الدنيا بإتباعه طريق الإضرار المنهي عنه، وسلوك طريق الشر وحرمان نفسه سعادة الحياة الزوجية وهو إضرار بالنفس وبالأسرة وبالتالي فهو إضرار بالمجتمع.

3- الضّرر الذي يواجه ضرر الآخرين دون فائدة وهو نوع من الانتقام والثأر، إذ أن هناك حالات من الضّرر الخطأ تكون نتيجة أعمال يقصد منها المنفعة فيصدر عن ذلك ضرر خطأ نتيجة السهو أو

58 النساء 34.

الإهمال وهذا ما يحدث كثيرا في حياة النّاس العامة كأن يسقي إنسان زرعه فيفيض الماء على بستان جاره فيلحقّه ضرر غير مقصود، فيعمد ذلك الجار إلى الانتقام بضرر ممّاثل أو زيادة في الأذى، وكذلك حوادث السيارات التي يؤدّي بعضها إلى الموت وهو قتل الخطأ ممّا يدفع أهل القتيل لأخذ الثأر ضررا بغير وجه حقّ وانتقاما لما أصابهم من ضرر عن طريق الخطأ، فهذا لا مبرر له، وإن جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}59، فالأمر هنا ليس كذلك وما هو انتقام أذى، ولكنه انتقام عدالة وحساب أوليّ لما قدموا من الأعمال المسيئة بحقّ الله تعالى وبحقّ نبيه عليه الصّلاة والسّلام فتوعدهم الله تعالى بمجازاتهم على سوء أعمالهم يوم القيامة حين تأتي السّماء بدخان واضح يعم النّاس ويغطيهم، فيقولون: ربنا اكشف عنا العذاب قد آمنا بدينك، فإيمانهم لن ينفعهم في ذلك اليوم، وقد جاءهم رسول الله بالرسالة الواضحة الصادقة، فكفروا به، وقالوا إنه مجنون يعلمه بعض النّاس القرآن الذي يتلوه علينا، لذلك تأخذهم الأخذة الكبرى بعنف وقوّة وهذا هو الانتقام الحقّ بسبب سوء أعمالهم فينتقم منهم في ذلك اليوم الرهيب كما انتقم من فرعون وهامان وجنودهما وقوم صالح عليه الصّلاة والسّلام وأصحاب الأيكة وأقوام كثيرون أهلكوا لارتكابهم المعاصي والموبقات وما كان ذلك إلا بعد الإنذار والتنبيه والدعوة إلى ترك ما هم فيه ممّا يوقع الضّرر بأنفسهم وبالآخرين على حدٍّ سواء، فهم أنكروا واستكبروا عن الاستجابة للحقّ والصلاح والهدى، فاتضح بهذا أن المقصود ليس الانتقام بل هو جزاء ما اقترفوا من الذنوب والآثام والانغماس في المعاصي، وبسبب الكفر والطغيان واتخاذ آلهة غير الله تعالى وعبادة الأصنام، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده،لأن غيره لا يملك

59 الدخان 16

ضرا ولا نفعا، وإفراده بها دون جميع خلقه سبحانه وتعالى، من أنبياء أو ملائكة، أو صالحين، أو جن أو غير ذلك؛ لأن الله سبحانه هو المالك الرازق القادر المحيي المميت الخالق لكل شيء، المدبر لأمور العباد، فهو المستحقّ لأنّ يعبد جلّ وعلا، وهو العليم بأحوالهم سبحانه وتعالى؛ فلذلك بعث الرّسل لدعوة الخلق إلى توحيده والإخلاص له ولبيان أسمائه وصفاته، وأنّه المستحقّ لأنّ يعبد ويعظم، لكمال علمه وكمال قدرته، وكمال أسمائه وصفاته ولأنه عزّ وجلّ النّافع الضّار العالم بأحوال عباده، السميع لدعائهم الكفيل بمصالحهم جلّ وعلا فهو المستحقّ لأن يعبد دون ما سواه، فإن كانوا يخشون الضّرر من هذه الآلهة فهو جهل منهم، ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يترك قوما إلا وأنذرهم وأرسل لهم رسلا يبينون لهم الحقّ وطريق الهدى، فإن أبوا فهو عناد وكبر لذلك قال الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}60 فالله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم ومنزه عن الإضرار، لأنّ ذلك من الإفساد في الأرض والله تعالى أمر بإعمارها وإصلاح ما يفسده المفسدون الذين يسعون فيها فسادا وخرابا وتدميرا، لذلك فإن الضّرر الموجه للضرر المقابل دون أن يعود على المجتمع بفائدة فهو من باب الإفساد وهو منهي عنه لما يترتب على ردة الفعل من ضغائن وأحقّاد تنمو وتكبر كلما تكرر الفعل والفعل المضاد بغية الثأر والانتقام.

4- الضّرر من أجل الإصلاح ودفع المخاطر التي تصيب المجتمع أفرادا أو جماعات سواء كان هذا الضّرر صادرا من شخص بعينه أو من قبل جماعة تواطأت قصدا على إلحاق الضّرر بالآخرين، أو ما يصيب المجتمع من كوارث طبيعية من الزلازل والبراكين والأعاصير والطوفان، أو

60 فاطر 24

ما يلحقّ النّاس من الضّرر بسبب المعاصي، فلا يكون الضّار جل شأنه ضارا بصفة فعل الضّرر، وإنما ضرر عدالة لإقامة الحقّ، فالله سبحانه وتعالى لما كان من أسمائه الحسنى الضّار فلا يمكن أن تُحمل هذه الصّفة على غير الوجه الذي أراده الله تعالى من وصفها بالحسنى، فإن قيل إن الله أهلك أقواما كثيرة وهو من الضّرر بهذه الأقوام، فلا نقول إلا كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}61، لذلك وجب على العباد حقّ الله تعالى من إيجادهم وإحيائهم ورزقهم أن يعبدوه ولا يتخذون آلهة من دون الله، لذلك قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يضرّكُمْ}62 فقد وصف آلهتهم بأقذع الأوصاف لأنها لا تملك أن تضر أو تنفع أو تقدم أي فائدة ترجى، فكيف يقبل العقل السليم هذه الأحجار أو الأخشاب بأن تكون ربًّا وهو محال، فبهذا إنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بصفتها المخلوقة تنبيها على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم، فكيف يهدي إلى الرشاد من إن دُعي إلى الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادا من ضلال، وكان سواءً دعاء داعيه إلى الرشاد وسكوته عنه، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له، وهذا يعني عدم التمييز بين ما يضرّه ممّا لا يضرّه، وإنما الرّب المعبود هو النّافع من يعبده، الضّار من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه. وكذلك من براهين أن الضّار هو الله تعالى معرفة أوصاف المخلوقين وقدراتهم حتى وإن كانوا آلهة يعبدون مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله،

61 الذاريات 56، 58

62 الأنبياء 66

عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضّار النّافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء.

إنّ الاعتقاد والإقرار بأنّ الإنسان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا بإرادة الله تعالى هي من متممّات الإيمان، فالله رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وهو المحيي المميت النّافع الضّار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ليس له في ذلك شريك ولا يملك مخلوق من الأمر شيئا فقد أطلق الله تعالى العنان للخلق في ملكوته إن استطاعوا فعل شيء خارج عن إرادته فليفعلوه حيث قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السّماوات وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}63 فالله يعلم أن بعض النفوس طبعت على الأذى والشر فكان هذا موقف التحدي لأمثال هؤلاء إن كانوا يستطيعون الضرّ لفعلوه من أجل أن يعلو بعضهم على بعض، ولا يكون ذلك إلا بعلم الله وإرادته وتقديره لحجم هذا الضّرر أو ذاك، فقد جاء في الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: "أحفظ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجتمعوا على أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يضرّوكَ لَمْ يضرّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"64 وهو دليل أن الضّرر المطلق بيد الله تعالى وليس من أجل

63 الرّحمن 33

64 مسند أحمد، ج 6، ص 69

الضّرر نفسه وإنما من أجل دفع مفسدة أو جلب منفعة، ودفع المفاسد بالضّرر كثيرة أولها وأعلاها رتبة إعلاء كلمة التوحيد فقد أرسل الله الضّرر على قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام من أجل دفع ضرر الكفر عن الذين آمنوا، ولا يدفع ذلك إلا ضرر مثله أو أشد منه حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}65. لقد صب الله تعالى العذاب أو الضّرر، سمه ما شئت على قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام وخرج الماء وارتفع من الأرض وهطل من السّماء، وحتى يكون هذا الضّرر نافعا للمؤمنين ضارا للكافرين، فقد أمر الضّار سبحانه وتعالى نوحا عليه الصّلاة والسّلام أن يحمل من كل ذكر وأنثى من جميع أنواع المخلوقات من كل زوجين اثنين من أجل تحقّيق مصداقية فعل الضّرر أنه ليس المقصود منه ذاته لذاته، وإنما هو الإصلاح بفعل الضّرر، لذلك جاز الفعل وحسن موقعه وتوقيته لإقامته حجّة وإبطال باطل وإحقّاق حقّ ونصرة مظلوم من حيث أنه قرر مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله وما جنت يداه، إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وكذلك اتقاء الضّرر من الله تعالى أنه أمر واجب لأنه لا سبيل إلى صون الأرواح والنفوس

---

65 هود 40، 44

من الهلاك إلا بسبب أو واسطة، وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو أمر مباح شرعا لأنّ الله تعالى يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}66 إذا فهو بمنزلة أن يتخذ الإنسان لنفسه دارا يسكنها، أو يكون ذلك تعليما له ولمن بعده في كيفية اتقاء الضّرر الواجب، ولا يكون ذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به، فإنّ الله تعالى أعلم نوحا عليه الصّلاة والسّلام بالضّرر الذي سيقع وأعلمه طريقة اتقائه فمعنى ذلك أنه منجاة للمؤمنين وعبرة للكافرين، وإضافة إلى ما ذكرنا فإن هذه الآية دلت على صحة القول بالضّرر الواجب الدافع للضرر الحاصل، لأنه تعالى أخبر بأنهم لا يؤمنون بعد ذلك، فلو حصل إيمانهم مع بقاء ضررهم وامتناع ضرر الله بهم يكون هذا الخبر من وجه النقيض، وهذا محال، ولو أنهم آمنوا وامتنع ضررهم ونزل ضرر الله بهم على تلك الصورة لكان من الظلم وهو محال على الله أيضا، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر الله في الأرض فوجب عليه أن يدفع الضّرر بالضّرر حال وقوعه أو استشعاره قبل وقوعه لما في ذلك مصلحة للرعية في دفع المفاسد عنها وجلب المصالح والمنافع لها في المكان والزمان الذي يراه.

وعليه فالضّار جلّ جلاله: هو الذي يضرّ بالضّرر والضّار من دونه، لأجل النفع، ولهذا فالضّار هو النّافع، الذي يضرّ الضّرر حتى النهاية، وهو الذي يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغ حتى يزهقه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السّماء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ممّا تَصِفُونَ}67.

---

66 البقرة 195

67 الأنبياء 16 ـ 18.

ولأن الضّار جلّ جلاله ضرره نفع فهو كائد كيد المكيدين وماكر بمكرهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}68، وقال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}69.

الكيد فعل ضرري، والمكر كذلك فعل ضرري، والفرق بين كيد وضرر البشر، وبين كيد ومكر الله أن البشر يكيدون العمل الصالح ويمكرون به وبمن يقوم به، وهذا العمل الضّرري مفسدة، ولهذا جاء ضرر الله ببطلان الكيد والمكر البشري بالآخرين، ممّا يجعل الضّرر الأول إعاقة للحقّ، والضّرر الثاني ترسيخا للحقّ، ولهذا فإن الضّار هو النّافع جلّ جلاله.

إنَّ المعتمد في إثبات أسم الضّار لله سبحانه وتعالى وكون ذلك من الأسماء الحسنى وظاهر الاسم يفهم منه غير الصّفة الحسنى فسنبسط فيه القول بشيء من التفصيل في هذا المكان إن شاء الله فنقول: في إثبات الصّفة الحسنى للضار جل شأنه واتصاف الخليفة بنسبية هذه الصّفة، أنه لو كان فعل الضّرر حسنا أو قبيحا لذاته فالمفهوم من كونه قبيحا وحسنا ليس هو نفس ذات الفعل، وإلا كان من علم حقّيقة الفعل علمنا بحسنه وقبحه قبل وقوعه، وليس الأمر كذلك لجواز عدم علم حقّيقة الفعل، ويتوقف العلم بحسنه وقبحه على النظر والموقف كقبح الصدق الضّار، مثل الذي يمشي بالنميمة وهو صادق فيما نقل عن القائل وإنما أراد بذلك الفتنة فأصبح الصدق ضارا، وحسن الكذب النّافع الذي يصدر من شخص ينوي إصلاح ذات البين فيتقول على شخصين بينهما خصومة كلاما حسنا لم يقله أحدهما في حقّ الآخر

68 الطارق 125 ـ 17.

69 آل عمران 54.

وبذلك تزول الأضغان فيتحول مفهوم الكذب عن الضّرر، وإن كان مفهوم الصّفة زائدا على مفهوم الفعل الموصوف بهذه الصّفة من الضّرر فهي صفة معنوية تظهر وجوديتها في وجود الأشياء التي تقع تحت تأثير فعل الضّرر لأمر أراده الضّار التي تتجلى من خلالها صفته جل شأنه، لأن الفعل قبل وقوعه، هو لا حسن ولا قبيح، ولا يمكن أن يكون صفة للعدم المحض، لأن فعل الضّرر قبل وقوعه بالإرادة هو قائم بالمشيئة ويخرج بالقدرة، فإن كان عدميا وجب انتفاء الصّفة وهو محال، ذلك أن النصوص القطعية الدلالة والخبر المتواتر المنقول عن الثقة العدل الضابط والأحداث المشاهدة تبين صفة اتصاف الموصوف بالصّفة، فمثال الأول ما جاء به القرآن الكريم من تلك النصوص الكثيرة في آيات التوحيد والخلق كقوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}70 فهذه أدلة الخلق حيث يرى المتأمل فيها أن الله تعالى جعل في الأرض جبالا ثابتة تحفظها أن تضطرب، وجعل فيها أنهارا تجرى فيها المياه الصالحة للشرب والزرع، وطرقا ممهدة لتهتدوا بها في السير إلى مقاصدكم، وجعل علامات ترشد النّاس في أثناء سيرهم في الأرض، وهم في ذلك يسترشدون في أثناء سيرهم بالنجوم التي أودعها السّماء إذا عميت عليهم السبل والتبست معالم الطرق، فهل يستوي في نظر العقل السليم التسوية بين القادر والعاجز فيجعل من يخلق هذه الأشياء كمن لا يستطيع خلق أي شيء، فهذه الآيات من خلق الله ونعمته فهو الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم وهو الذي أنزل المطر من السّماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون الشجر والنبات وهذا الشجر والنبات هو

---

70 النحل 15، 17

الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم باللبن واللحم والأصواف والأوبار والأشعار والجلود، إن هذا الماء ينزله الله من السّماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات وتجعلونه رزقا لكم ونعمة وحجّة عليكم، وإن فيما ذكر من الآيات الدالة على قدرة الله وما فيها من نعم لا تحصى فهي لا تحتاج إلى دليل غيرها، ومن آيات الخلق التي تدخل تحت مدلول الدلالة القطعية أن جعل لكم الليل لباسا ومهيأ للراحة، والنهار جعله مناسبا للسعي والحركة والعمل، والشمس تمد بالدفء والضوء، والقمر لتعرفوا به عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات البر والبحر، إن في كل هذه النعم والدلائل لآيات لقوم لهم عقول تدرك وتتدبر ما وراء هذه الظواهر من قدرة، ومن آيات الخلق التي لا تحصى، ما خلق الله في الأرض من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها من المعادن المختلفة الألوان والأشكال، وجعل كل ذلك لمنافعكم، ومن هذه النعم الكبرى نعمة البحر وما فيه من أنواع الحيوان، فإن الله تعالى قد أقام الحجّة على الخلق بهذه الأدلة التي لا يحتاج الوقوف على دلالتها أكثر من النظر والتأمل، وأما الخبر المتواتر فما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم من أحاديث عن الغيبيات في العقائد الإسلامية كالجنّة والنار والبعث والنشور والحوض والصراط ممّا جاءت به النصوص القرآنية، يؤكدها ما أخبر به أصحابه وتحقّقت في حصولها لهم، فقد جاء في الحديث أن عليا رضي الله عنه قال: "بعثني رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله

صلّى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم"71؛ وأمّا الخليفة في هذا الجانب فقد أوتي من الفراسة والعلم والكشف ورجاحة العقل وإصابة الرأي وبعد النظر في الأمور الدنيوية والأخروية بما يتناسب مع اختيار الله له ليكون خليفة.

وأمّا الأحداث المشاهدة فما يقع من كوارث تصيب البشر والتي يعزوها المتتبعون إلى العوامل الطبيعية من تغير أحوال البيئة والتضاريس والأنواء الجوية والتلوث والإخلال بموازين الطبيعة ممّا يؤدّي إلى الزلازل والعواصف والأعاصير التي تفعل الأفاعيل، ولم ينتبهوا إلى ما جنت أيديهم من الآثام التي توقع الضّرر بالآخرين، فكان حقّيقا على الله تعالى أن يدفع الضّرر بالضّرر، وما إعصار تسونامي إلا من هذا القبيل، وإن كان البركان والماء والريح هو الذي أدى إلى هذه النتيجة إلا أن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ ربّك إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}72 والضّار جل شأنه يظهر في آيات ومعجزات الضّرر الحاصل من المشاهدة بالبصر وانطباع صورة الضّرر الواقعة على الأشياء لذلك كان الوجوب بحكم هذه الصّفة أنها ضرر مخصوص أي لا يتعلق إلا بالموجود من خلال إدراك الآثار الناتجة عن الفعل، والموجودات اشتركت في قضايا واختلفت في قضايا من أسباب الفعل ونتائجه، فإرسال الضّرر على شخص أو جماعة يكون الغرض منه التنبيه والتذكير لمصلحة من يقع عليه هذا الضّرر، فإن أخذ منه الجانب الإيجابي وسخره فيما أراد الله به من الخير فيكون بذلك وقف على الضّرر الحقّيقي للصفة الحسنى من الضّار وهذا ما يدركه الخليفة ويعلم أن الله

---

71 صحيح البخاري، ج 10، ص 194

72 المدثر 31

تعالى ما أراد به من هذا الضّرر إلا الخير سواء بالدعاء من أجل كشف هذا الضرّ وهو مثاب ومأجور عليه من الله تعالى، أو برفع هذا الضّرر عمن أصابهم من رعيته ويعلم أنه مكلف بذلك فهو خليفة الله في أرضه، ودفع هذا الضّرر ورفعه عن الرعية يكون من واجباته، وبفعله هذا يكون قد نفذ ما هو مكلف به فهو من باب الطاعة لله تعالى وبذلك يكون قد نال رضى الله في أمره وفيما كلفه به، غير أن كثيرا من الخلق لا ينظر إلى الضّرر بهذه العين الثاقبة في بعد النظر من المراد من الضّار جل شأنه في إرادته فيكون كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضّرّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[73] وإذا أصاب الإنسان ضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك، أحس بضعفه ودعا ربه على أي حال من حالاته، مضطجعا أو قاعدا أو قائما، أن يكشف ما نزل به من محنته، فلما استجاب الله له . فكشف عنه ضره . انصرف عن جانب الله واستمر على عصيانه، ونسى فضل الله عليه، كأنه لم يصبه ضر ولم يدع الله إلى كشفه، أي إذا أصابه جنس الضّرّ من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة، والمقصود، بيان أن الإنسان قليل الصّبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضّرّ أقبل على التضرع والدعاء مضطجعا أو قائما أو قاعدا مجتهدا في ذلك الدعاء طالبا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة، فإذا كشف الله تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضّرّ ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على اختلاف الإدراك والنهج والسلوك والتصرف بين الخليفة وما يعلمه من حكمة إنزال الضّرر، وبين

---

73 يونس 12

طبيعة الإنسان العادي من الرعية الذي تسيطر عليه شدة استيلاء الغفلة والشهوة وما إلى ذلك من أمور الدنيا، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرا عند نزول البلاء شاكرا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، فالخليفة يدرك تماما هذه المعاني الجليلة من وقوع الضّرر ونزول البلاء فيستبشر بذلك خيرا لمعرفته بعظيم الأجر الذي سيناله للصبر على هذا الضّرر ودفعه عن الآخرين ويدرك بذلك أيضا أن الله تعالى قد اختاره من بين الخلق جميعا ليكلفه بما أراد أن ينفذ مشيئته في الأرض على علم فأسبغ عليه من صفاته النسبية ما هو أهل لها.

إنّ جميع ما قد ذكرناه من وقوع فعل الضّرر واجب على المسلمين أولا معرفته من الوجه الذي أراده الله وكما يراه الخليفة، وثانيا الإيمان به والإذعان لله عزّ وجلّ والإقرار له بالعلم والقدرة وأنه ليس شيء كان ولا هو كائن إلا وقد علمه الله عزّ وجلّ قبل كونه ثم كان بمشيئة الله وقدرته، فالضّار جل شأنه ينزل الضّرر لا للفعل نفسه وإنما للفائدة والإصلاح ودفع الأذى، فالذين كفروا فإنما فعلوا ذلك باختيار عقولهم فصدوا عن سبيل الله فنزل عليهم الضّرر الضّار، والذين آمنوا فإنهم اتبعوا الهدى باختيار عقلهم أيضا فكان لهم الضّرر منفعة بأن درأ عنهم شر من أراد بهم الضّرّ، ولعلم الله المسبق بما سيحدث قبل حدوثه كتب على هؤلاء الضّرّ من العذاب والانتقام لما فعلوا، وكتب على أولئك الضّرّ الدافع عنهم ضرر الآخرين، وهنا يأتي دور القدرة التي قدرها الله تعالى على خلقه بعلمه المسبق من تمسك هؤلاء بباطلهم، وتوثق أولئك بإيمانهم فكانت مشيئته بأن كتب لخلقه أقدارهم بما سيفعلون بعد خلقهم.

إن الضّار سبحانه وتعالى لم يجعل هذا الاسم من أسمائه الحسنى إلا لما فيه من الخير والرّحمة الذي يعود على الخلق والبلاد والعباد فهو كما يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}74، فهذا الأمر الذي فرضه الله على المسلمين وفيه شعور بالضّرر مثل ما نظر البعض إلى عبادة الزكاة والتي سنأتي عليها ولم يدركوا أن في الإنفاق على اليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع من داخله، فإن القتال حماية له من أعدائه في الخارج، ولذلك فرض عليكم القتال لحماية دينكم والدفاع عن أنفسكم، وإن نفوسكم بحكم جبلتها تكره القتال كرها شديدا، ولكن ربما كرهتم ما فيه خيركم وأحببتم ما فيه شركم، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون فلذلك وجب أن تستجيبوا لما فرض عليكم، ولو كان شاقا عليكم مكروها منكم، الكراهة نعت به للمبالغة كأن القتال في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له وهذه الكراهة من حيث نفور الطبع منه لما فيه من مؤونة المال ومشقة النفس وخطر الرّوح لا لأنهم كرهوا أمر الله تعالى، وكراهة الطبع لا توجب الذم بل تحقّق معنى العبودية إذا فعل ذلك اتباعا للشرع مع نفرة الطبع فأما كراهة الاعتقاد فهي من صفات المنافقين وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التي تكون بمجملها خيرا لكم لأن في الغزو والجهاد إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنّة، ومن هنا نعلم كيف يكون الضّرر مخالفا لمعناه، ويصبح الكلام في توضيح هذه الحقّيقة من السهولة بمكان، إذ أن الأمثلة من الآيات في القرآن الكريم وضحت ذلك بما لا يدع مجالا للشك في أن الضّرر إنّما أراد الله تعالى به الخير من عدة وجوه:

---

74 البقرة 216

أوّلها: ردع من قبل الخلق على بعضهم البعض لما جبلت عليه بعض نفوس البشر من الطمع والجشع وحب السيطرة واستعباد الآخرين بغير وجه حقّ فكان إيقاع الضّرر من الضّار جل شأنه بهؤلاء من حكمة وعدالة الضّار حيث قال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}75 إن الضّرر الذي أوقعه فرعون جعله يتعاظم في نفسه حتى جاوز الحد في ظلمه، واستكبر في الأرض والحقّ بأهلها الضّرر البالغ، يصطفي بعضهم ويسخِّر بعضهم، ويستضعف من يشاء، فيذبح الذكور من أولادهم، ويستبقى الإناث، حتى أفسد وطغى وكان من المسرفين فكانت صفة الضّار وفعله هو الحد الفاصل بين ما أباحه الله تعالى لخلقه، وبين من تجاوز على حقّوق الآخرين في العيش والحياة فكان الضّرر هو النفع والفائدة التي وضعت الأمور في نصابها الصحيح من المعادلة المنطقية في ترجيح كفة العدالة من استقامة الأمور ووضعها في ميزانها حفاظا على توازن الحياة بالنسبة للخلق، وحتى على مستوى الحياة العامة بما يخص الأسرة والعائلة الواحدة فإن القيّم على هذا المجتمع المصغر الأب فهو المسؤول عن تربية الأسرة أو أفرادها حيث يوقع بأحدهم نوعا من الضّرر إذا ما شذّ عن الأخلاق العامة فيمارس على ضرره الضّرر الذي يؤدّي إلى الاستقامة والصلاح، والخليفة هو القيم على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولذا فإنه يلجأ إلى استخدام الضّرر النسبي الذي يتصف به من الضّار المطلق في أكثر من اتجاه بغاية النفع المترتب عليه، فمن واجب الخليفة استخدام الضّرر للتقويم لأن الخليفة يعلم معنى الضّار المطلق فهو بعلمه

---

75 القصص 2 . 5

هذا تقي ورع صالح يخشى الله فهو بذلك يأتي أوامر الله ويجتنب مناهيه، ولذلك يكون سلطان الضّار الذي يمتلكه بمثابة الهيبة في الردع حتى دون اقتراف ذنب وإنما تحسبا فمن ذلك ما جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه أن الحسن البصري قال: "كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والنّاس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي ولك أما سمعتها؟ قال: سمعتها، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك"76. فهذا يدل على بعد نظر الخليفة وخوفه على الرعية من الفتنة فلذلك يستخدم سلطان الضّرر في تذكير النّاس بأنهم معرضون للفتنة أو الخيلاء فيؤدبهم بالضّرر حرصا عليهم ومحبة لهم، فهذا الضّرر النفسي إنما هو يعود على المتضرر بخير لا يدركه هو، وإنما لما كان الخليفة من العلم بما لا يعلمه غيره ومن الحرص على الرعية أكثر منهم على أنفسهم لابدّ أن يكون كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ}77 فالخليفة هنا قام بواجبه اتجاه رعيته، وصبر الرعية على هذا الضّرر النّافع كان سببا لرضى الله عنهم بتحمله فكان دفع السيئة بالحسنة من كلا الجانبين، وكذلك لمعرفة الخليفة بأمور تغيب عن معظم الرعية فإنه يتخذ جانب الحيطة والحذر لما يتوقعه هو من إضرار الآخرين من غير رعيته لدفع الضّرر عمن هو قائم بأمر ولايته، لأن الخليفة هو الولي، وهذا من جانب الحفاظ على سلطان الله الذي خوله للخليفة

76 إحياء علوم الدين، ج 2، ص 352

77 الرعد 22، 23

بدفع الضّرر عن عباده بالأسباب حيث قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}78، فهذا الإعداد من قبل الخليفة إنما يكون من باب الإعداد المباح لضرر متوقّع فيكون لمواجهة الأعداء، ويكون الإعداد على قدر الاستطاعة من قوّة حربية شاملة لجميع أنواع القتال، من القوّة المادّية من السلاح والعتاد ومستلزمات ذلك، وكذلك من القوّة العلمية والخبرة والتدريب لتخيفوا بهذا الإعداد والرّباط عدو الله وعدوكم من المتربصين بكم الدوائر، وتخيفوا آخرين لا تعلمونهم الآن والله يعلمهم، لأنه لا يخفي عليه شيء، فهذا الإعداد الضّار إنما هو موجه إلى عدو خارجي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع.

وهناك ضرر جزئي يمارسه الخليفة موجه إلى بعض أفراد الرعية صونا للقسم الأكبر من الرعية في إقامة الحدود والقصاص، وإن كان هذا يلحقّ الضّرر، فإنما هو دفع الضّرر بمثله وذلك من باب تقوى الخليفة في إقامة الشرع حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ ربّكم وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}79، فهذه الشرائع التي فرضها الله على عباده في أحكام القتل العمد فإنه من واجب الخليفة إقامة هذه الشرائع، حيث فرض الله القصاصَ بسبب القتل، فلا يأخذ الرعية إلا بما أمر الله به، ويمنع عمل وفعل أهل الجاهلية الذين كانوا

78 الأنفال 60

79 البقرة 178، 179

يقتلون الحر غير القاتل بالعبد، والذكر الذي لم يقتل بالأنثى، والرئيس غير القاتل بالمرؤوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه، ولكن الخليفة يوقع الضّرر الذي أمر الله به عباده صونا للدماء، فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم، وعلى أولياء الدم اتباع هذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل أو تعنيفه، وعلى القاتل أداء الدين دون مماّطلة أو بخس وهنا يبرز دور الخليفة على أكمل وجه في إيقاع الضّرر ودفعه وتوجيهه، فهو يوقع الضّرر بالقاتل نفسه ويدفع الضّرر عن أهل القاتل ويوجه الضّرر إلى فائدة تحقّق من خلالها الدماء، وفي حكم القتل الذي فرضه الله على هذا الوجه وكلف الخليفة بتنفيذه، إنما هو تخفيف على المؤمنين بالنسبة إلى الحكم الذي يوجب القصاص من القاتل، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلى الذين يدعون إلى العفو من غير تعرض للقاتل، فمن جاوز هذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة، عذاب في الدنيا بما يراه الخليفة من العقوبة على من اعتدى، وعذاب الآخرة وهو الخلود في النار لمن قتل مؤمنا متعمدا، لذلك كانت رحمة الله عظيمة في فرض القصاص، فبفضل القصاص الذي هو من صلاحيات الخليفة وضرر هذا القصاص الذي ينزله بالجناة تتحقّق للمجتمع حياة آمنة سليمة، وذلك أن من يهم بالقتل إذا علم أن في ذلك هلاك نفسه لم ينفذ ما هَمَّ به، وفي ذلك حياته وحياة من هَمَّ بقتله.

ومن هذا الباب أيضا من أنواع الضّرر الذي يقوم به الخليفة ما يقع على بعض أفراد الرعية دون البعض الآخر وذلك بسبب درء المفاسد لجلب المصالح، فإذا أصابت آفة من الآفات أو حشرة ضارة

بعض الزروع ممّا لا سبيل لدفع ضرره عن بقية ممتلكات الرعية ومحاصيلهم فمن حقّه ممّارسة نوع من الضّرر يحفظ أموال الآخرين لأنه يعرف أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، فيأمر بإحراق وإتلاف ما يمكن أن يصيب المجتمع بالضّرر العام فيدفع ذلك بالضّرر الخاص، أو أقل الضّررين، وهكذا كما هو الحال عند مرض الدواجن بالفيروس الضّار للبشر، فحرقها نافع لأنه قضاء على ضرر أو ضار.

ولهذا فالضّار المطلق جلّ شأنه يدفع بالضّرر الأصغر الضّرر الأكبر ويكلف بذلك الخليفة فيصبح تنفيذ هذا النوع من الضّرر طاعة وعبادة فمن ذلك قصّة العبد الصالح مع موسى عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ

غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ ربّك أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ ربّك وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}80 فقد قال موسى للعبد الصالح: هل أسير معك على أن تعلمني ممّا علمك الله، فأجابه: إنك لن تستطيع الصّبر على مصاحبتي لأنه لا علم لك بنتائج الأفعال التي سوف أقوم بها لذلك لا يمكنك الصّبر على شيء لا خبرة لك فيه، ولكن موسى عليه الصّلاة والسّلام أبدى استعداده للصبر والطاعة، فطلب منه أن لا ينكر عليه أي شيء من أفعاله، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى وجدا سفينة، فركباها، فخرقها العبد الصالح في أثناء سيرها، فاعترض موسى عليه الصّلاة والسّلام قائلا: أخرقتها قاصدا إغراق أهلها؟ لقد ارتكبت أمرا منكرا وهو ضرر صريح دون سبب، قال العبد الصالح: إنني قلت لك: إنك لن تستطيع الصّبر على مصاحبتي، قال له موسى عليه الصّلاة والسّلام: لا تؤاخذني على نسيان وصيتك، ولا تكلفني مشقة في تحصيل العلم منك وتجعله عسيرا، وبعد أن خرجا من السفينة ذهبا منطلقين، فلقيا في طريقهما صبيا فقتله العبد الصالح، فقال موسى عليه الصّلاة والسّلام مستنكرا: أتقتل نفسا طاهرة بريئة من الذنوب بغير أن يقتل صاحبها أحدا؟ لقد أتيت فعلا مستنكرا، فأجاب العبد الصالح، إنك لن تستطيع صبرا على ما أقوم به من أفعال، قال موسى عليه الصّلاة والسّلام: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني، لأنك قد بلغت الغاية التي تعذر بها في فراقي، فسارا حتى أتيا قرية، فطلبا من أهلها طعاما، فأبوا ضيافتهما، فوجدا

80 الكهف 65. 82

فيها جدارا مائلا يكاد يسقط، فنقضه العبد الصالح وبناه من جديد حتى أقامه، قال موسى عليه الصّلاة والسّلام: لو شئت طلب أجر على النقض والبناء لفعلت، قال العبد الصالح: هذا التعرض منك مرارا لما أفعل سبب الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بحكمة هذه التصرفات التي خفي عليك أمرها، ولم تستطع صبرا على ما خفي حتى تعرف حقّيقته وسره، وهي كالآتي:

. فأمّا السفينة التي خرقتها، فهي لضعفاء محتاجين يعملون بها في البحر لتحصيل رزقهم، فأردت أن أحدث بها عيبا يُزهد فيها، لأن خلفهم ملكا يغتصب كل سفينة صالحة. . وأما الغلام الذي قتلته فكان أبواه مؤمنين، فعلمنا – إن عاش – أنه سيصير سببا لكفرهما، فأردنا بقتله أن يعوِّضهما الله عنه ولدا خيرا منه دينا وأعظم برا وعطفا.

. وأمّا الجدار الذي أقمته – دون أجر – فكان لغلامين يتيمين من أهل المدينة، وكان تحته كنز تركه أبوهما لهما، وكان رجلا صالحا، فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا رشدهما، ويستخرجاه، رحمة بهما وتكريما لأبيهما في ذريته، وما فعلت ما فعلت باجتهادي، إنما فعلته بتوجيه من الله، فالضّار هنا جل شأنه أعلم العبد الصالح بمقدار الفائدة المترتبة على نتائج أفعال الضّرر التي أُمر بتنفيذها فالله سبحانه يقدر الخير لعباده من حيث لا يعلمون، لذلك وجب على العباد أن يرضوا بما كتب الله عليهم وأن يسلموا الأمر كله لله، وأن يعلموا أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّه هو النّافع الضّار المعطي المانع، فبعد أن علم الإنسان ذلك وجب عليه أن يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبة، وهو مع هذا يبذل ما يسعه من جهده في فعل الأسباب النّافعة.

ومن مسائل النفع والضّرر التي فرضها الله تعالى على المسلمين هي عبادة الزكاة حيث قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}81 فقد وجد البعض أن ضررا يلحقّ بهم في أموالهم من عبادة الزكاة علما أنه ورد الأمر بإيتائها ست وعشرون مرة في القرآن الكريم وقد قرنت جميعها مع إقامة الصلاة للدلالة على عظم أجرها، ومع ذلك منع البعض تأديتها شعورا بالضّرر وغاب عنهم جانبين أولهما ما أعد الله للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}82 فحال الذين يبذلون أموالهم في طاعة الله ووجوه الخير ليس من الضّرر في شيء، وإنما ينالون على ذلك ثواب الله المضاعف أضعافا كثيرة، كحال من يبذر حبة في الأرض طيبة فتنبت منها نبتة فيها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وهذا تصوير لكثرة ما يعطيه الله من جزاء على الإنفاق في الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل، عليم بمن يستحقّ وبمن لا يستحقّ، فالذين ينفقون أموالهم في وجوه البر المشروعة دون مَنٍّ أو تفاخر أو تطاول على المحسن إليه، لهم أجرهم العظيم الموعود به عند ربهم، ولا يصيبهم خوف من شيء ولا حزن على شيء، وإنما سيلحقّهم الضّرر في الآخرة بعدم إنفاقهم، وأما الجانب الآخر، هو الذي يعتبره مانعوا الزكاة ضررا في أموالهم إنما هو حقّ شرّعه الله للفقراء والمحتاجين ليدفع عنهم الضّرر الذي يلحقّ أفراد المجتمع من تكدس الأموال في يد فئة قليلة تستأثر بهذه الأموال وتستخدمها في إضرار الآخرين، وهنا يبرز

81 البقرة 43

82 البقرة 261، 262

دور الخليفة بصفة الضّار لهؤلاء والنّافع لأولئك المعوزين، فيمارس الضّرر عنوة لدفع الضّرر الأعظم الذي سيصيب المجتمع من امتناع هؤلاء عن تأدية هذه الفريضة التي يدرك الخليفة آثارها ويعلم واجباته المكلف بها من إعمار الأرض والأخذ على يد المفسدين لعلمه بالمقاصد الضّرّورية لأحكام الشريعة والغاية من تشريعاتها حفاظا على الضّرّوريات التي يعمر بها الأرض من الفساد، فقوّة الخليفة وصفاته النسبية في عقيدته وفي بدنه وفي كل شيء يحتاج إلى العزم والعزيمة والمجالدة، وذلك من أجل المحافظة على أفراد المجتمع لتكون أنفسهم صحيحة قوية قادرة على أداء واجبات الدين والدنيا، لذلك يكون الخليفة قد أطاع الله فيما أمر به من إلحاق الضّرر ببعض رعيته من أجل الحفاظ على المجتمع علميا وعقليا وغذائيا وصحيا بشكل خاص وذلك بسبب انتشار أمراض العصر التي تكلف أموالا طائلة، وإذا كان التداوي من المرض مطلوبا ليشفي المريض، ويصير عضوا نافعا في مجتمعه، وإذا كانت أمراض الحضارة قد انتشرت واستشرت، تقوض بناء الإنسان بعد أن تسري في دمائه وأوصاله، وإذا كان العلم الذي علمه الله الإنسان، قد وقف محاربا لهذه الأمراض والأوبئة في صورة معاهد ومستشفيات متخصصة في نوعيات من المرض في بعض أعضاء الإنسان، وإذا كان الكثيرون من النّاس قد تعجز مواردهم عن مواجهة نفقات العلاج المتخصص، إذا كان كل ذلك حاصل فوجب على المجتمع أنّ يتساند ويتكافل، كما فرضه الإسلام وينفذه الخليفة، وكما تدعو إليه غريزة حب البقاء مع النقاء والتكافل والتعاون بين النّاس في درء المفاسد والأمراض وإذا كانت الزكاة قد فرضها الله في أموال الأغنياء لتعود إلى الفقراء، فإنه لم يترك أمر صرفها وتوزيعها دون تحديد، وإنّما بينها في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ}83وها نحن نجد أن أوّل الأصناف المستحقّين للزكاة بترتيب الله سبحانه الفقراء بمعنى صاحب الحاجة التي لابدّ منها ولا يستطيع الحصول عليها فأصبح لزاما على الخليفة أن ينفق على علاج هؤلاء ممّا خوله الله بصفة الضّرر النّافع في تحصيل تلك الأموال من أجل وضعها في الوجه الذي حدده الشرع، وفي الجملة أن صفة الضّار هي من الوجه الإجمالي للذات الإلهية حكمة لإعمار الأرض والمحافظة على الإنسان وقد منح الله تعالى الخليفة صفة نسبية من الضّار ليخلفه في أرضه بما أراد في خلقه من أمور فيها الخير لهم في الدنيا والآخرة، ليضرّ كل ما من شأنه أن يلحقّ الضّرر بما هو نافع ومفيد.

وممّا يدخل في باب الضّرر من الأخلاق بصرف النظر عن أنها سامية أو متدنية وإنما هي قيمة أخلاقية، فالأخذ بالسامية منها يكون من الفضائل، والمتدنية تكون من الرذائل التي تدخل في باب الضّرر، فالحقّ والباطل من هذا النوع من القيم الأخلاقية وهما من نتائج المعرفة والنكرة، لأننا نعرف الحقّ وننكر الباطل، وهذا من متمّمات صفة الضّار بالإضافة التي يتصف بها الخليفة، وذلك لأغراض تتبعهما، ولواحقّ تلتبس بهما من المنفعة والضّرر، فالخليفة يحقّ الحقّ ويزهق الباطل بالإضافة، وذلك كما قال الله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}84. جاء الحقّ من التوحيد والدين الصحيح والعدل، وذهب الباطل والشرك والفساد، فالباطل مضمحل زائل دائما وذلك بوجود الخليفة وهو نصير الحقّ الذي يدفع الباطل بالضّرر ومن هنا كان استخدام الضّرر واجب لإزهاق الباطل الذي يحمل المفاسد والأضرار للمجتمع بأسره.

---

83 التوبة 34

84 الإسراء 81

وكذلك الرشد والغي فهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة؛ وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام، وأما الثقة والارتياب فخلقان يغلبان وينفعان ويضرّان ويحمدان ويذمان ألا ترى أنه يقال: لا تثق بكل أحد، ولا ترتب بكل إنسان وهكذا الطمأنينة والتهمة، لأنهما في طيهما، وأما الخلاعة والوقار، فمن باب الضّرر ودفعه، وكذلك التوقي والتهور، فهما خلقان في جميع الخلق، ويغلبان على الإنسان، لأن العقل يبطل أحدهما، والحس يغلب الآخر، وأما الصدق والكذب، فمن علائق النفس الكاملة والناقصّة، وقد يكونان راسخين فيلحقّان بالخلق، إلا أن الصدق ممدوح لنفعه، والكذب مذموم لضرره، هذا في الوهلة الأولى، وقد يعرض ما يوجب المصير إلى الكذب لينجو الإنسان به؛ فهما إذن بعد الحقّيقة الأولى وقف على الإضافة؛ وقد نجد كذبا ينتفع به، وكما نجد من الصدق ما يكون ضارا، وأما الإخلاص والنفاق، فهما يلحقّان بالخلق، ولكنهما يصدران عن عقيدة القلب وضمير النفس، وأما الإحسان والإساءة، فهما يعمان الأفعال والأقوال، فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين، وأما النصح والغش، فهما خلقان، وطرفاهما يتعلقان بالخلق، وكذلك الطمع واليأس، والحب والبغض، واللهج والسلو، وما شاكل ذلك من الشيء ونقيضه ما يكون أحدهما في النفع والآخر في الضّرر، إلا أن بعض هذه القيم ما يمكن تسخيرها بعكس مفهوم التسمية، ولكن كيف يكون ذلك؟ فالإجابة على ذلك نعود بها إلى صفة الضّار المطلقة لله جل شأنه وللضار بالإضافة وهو الخليفة، فالكيد والمكر من الأفعال التي تجلب الضّرر ولكن استخدامها لمكر المكر وكيد الكيد تحول نتائج الفعل إلى فائدة ومنفعة ومصلحة، فالمكر من العبد هو تدبير سيء خفي، ومن الله تعالى ومن الخليفة هو إبطال هذه التدابير السيئة، فالذين عتوا ونفروا عن الحقّ استكبارا في الأرض وأنفة من الخضوع للحقّ والدين الذي جاء، فمكروا مكرا سيئا

بتدبيرهم الشر والأذى وقادهم شيطانهم إلى الانصراف عن الدين الحقّ، وكان من سنة الله تعالى أن لا يحيط ضرر المكر السيئ إلا بمن دبروه، فهل ينتظرون إلا ما جرت به سنة الله في الذين سبقوهم، فلن تجد لطريقة الله في معاملة الأمم تغييرا يُطمِّع هؤلاء الماكرين في وضع من سبقهم من الأمم بما كانوا يصنعون، لذلك لن تجد لسنة الله تحويلا عن اتجاهها، فقد أوكل الله تعالى خليفته بإلحاق الضّرر بهؤلاء دفعا لأذاهم ومكرا بمكرهم، لأنهم لم يرتدعوا ويتعظوا من الأمم التي سبقتهم وفعلت مثل أفعالهم، ولم يسيروا في الأرض فينظروا بأعينهم آثار الهلاك الذي أنزل على من سبقهم من العقاب لتكذيبهم وكان قبلهم من الأمم من هم أشد منهم قوّة وبطشا فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم تمنعهم قوتهم من عذاب الله، وما كان ليعجزه من شيء في السّماوات ولا في الأرض، ثم إن بعد ذلك ترى بعض الخلق لا يكتفي بأن يضل ويصد عن السبيل وإنما يحاول أن يضل الآخرين في تحديه لسنة الله تعالى بإشاعة الضّرر وهذا ما يحاوله البعض في كل زمان ومكان ونحن نقف على شواهد كثير من هذا النوع، فقد حاول البعض في زمن النبوّة وعصر الرسالة أن يصدوا النّاس عن طريق الهدى باتخاذهم مسجدا ضرارا حيث قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحقّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[85]، فمن المنافقين جماعة بنوا

85 التوبة 107 . 109

مسجدا لا يبتغون به وجه اللَّه، وإنّما يبتغون به الضّرار والكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، وأنّهم سيحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الخير والعمل الأحسن، واللَّه يشهد عليهم أنهم كاذبون في أيمانهم، لذلك فقد نهى الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصّلاة والسّلام عن الصلاة في ذلك المسجد مطلقا، أي لا تصلي في هذا المسجد أبدا لأن هذا البناء إنما يراد من إقامته إضرار المجتمع بتحريف العقيدة وإفساد النّاس، وإن مسجدا أقيم ابتغاء وجه اللَّه وطلبا لمرضاته من أول أمره كمسجد قُباء لجدير بأن تؤدى فيه شعائر اللَّه، وفي هذا المسجد رجال يحبون أن يُطهروا أجسادهم وقلوبهم بأداء العبادة الصحيحة فيه، واللَّه يحب ويثيب الذين يتقربون إليه بالطهارة الجسمية والنفسية لأنّ طهارة الإيمان إنّما هي من باب الصلاح والتقى الذي يهدم الضّرر ويدحضه، وفرق كبير بين من كان دأبه وعمله إصلاح الأمة وهداها وبين من يريد أن يهوي بها الإضرار، فلا يمكن أن يستوي في عقيدته ولا في عمله من أقام بنيانه على الإخلاص في تقوى اللَّه وابتغاء رضائه، ومن أقام بنيانه على النفاق والكفر، فإنّ عمل المتقي مستقيم ثابت على أصل متين، وعمل المنافق كالبناء على حافة هاوية، فهو واهٍ ساقط، يوقع بصاحبه في نار جهنم، واللَّه لا يهدي إلى طريق الرشاد من أصرَّ على ظلم نفسه بالكفر، وسيظل هذا البناء الذي بناه المنافقون المضرون مصدر اضطراب وخوف في قلوبهم لا ينتهي حتى تتقطع قلوبهم بالندم أو التوبة أو بالموت، واللَّه عليم بكل شيء، حكيم في أفعاله وجزائه، ومن الضّرر ما يقوم به بعض أفراد المجتمع غلبت عليهم آمال فاسدة، لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا، ثم الهم والإثم آجلا، كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك النّاس، وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها الضّرر لغيره، وإن كانت له فيها منفعة، فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته، ولا يأتيه من

ذلك بما ليس في علم الله تعالى من إرادة، فلو تمنى الخير والرخاء، لتعجل الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فهؤلاء يتمنون وقوع الضّرر في جميع أنحاء المجتمع من أجل فائدة شخصية أو مصلحة أنفسهم، وما ذلك إلا لفساد أخلاقهم فوجب على الخليفة تقويم اعوجاجهم بالضّرر الذي يردعهم عن أمنياتهم حتى لا تتحول هذه الأمنية إلى حقّيقة ويترجمونها إلى الواقع الذي يضرّ بالمجتمع.

ويدخل في هذا الباب من الضّرر نوع من العلم مع أنّه من الصفات الحميدة، ولكن هذا النوع من العلم فاسد الأصل واضح الضّرر مذموم وبيان علة ذم العلم المذموم تأتي من الوجهة التي يتوجه بها، وهو غير العلم النّافع الذي هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذموما؟ فاعلم أنّ العلم لا يذم لعينه وإنّما يذم في حقّ العباد لأحد أسباب كثيرة منها أن يكون مؤديا إلى ضرر ما، إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات، إذ شهد القرآن الكريم له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين العباد، قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّاس السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يضرّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}86 فالشياطين من الإنس والجن يعلِّمون النّاس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت، مع أنّ هذين الملكين ما

86 البقرة 102

كانا يعلِّمان أحدا حتى يقولا له: إنما نعلمك ما يؤدّي إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره وتوق العمل به، وهو من باب العلم من أجل الحذر وعدم الوقوع به. ولكن النّاس لم ينتصحوا بهذه النصيحة، فاستخدموا ما تعلموه منهما فيما يفرقون به بين المرء وزوجه، ونحن نجد من الشياطين الفجرة من الجن والإنس من حمل هذا العلم على محمل الضّرر وجعله جميلا فاتخذ ذلك ذريعة لتعليم النّاس السحر وبهذا يلحقّ الضّرر بهم، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذي يأذن بالضّرر إن شاء، وأنّ ما يؤخذ عنهم من سحر سيضرّ من تعلمه في دينه ودنياه ولا يفيده شيئا، وهم أنفسهم يعلمون حقّ العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ في نعيم الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم، وهذا العلم ضار بطبيعته لأنّه نوع يستفاد من العلم بخواص معينة وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص مادته ويرصد به وقتا مخصوصا من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور، ومعرفة هذه الأسباب من حيث أنها معرفة، ليست مذمومة، ولكن العمل بها هو المذموم فهي ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق فهي الوسيلة إلى الشر، فالعمل بهذا النوع من العلم يكون ضررا، فكان ذلك هو سببا في كونه علما مذموما لأدائه إلى الضّرر، ومنها ما يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مضر لذاته، إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، حيث قال الله عزّ وجلّ: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

بِحُسْبَانٍ}87 فهما يجريان في بروجهما بحساب وتقدير لا إخلال فيه، فهو دقيق منتظم بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب فالسنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما والشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وفي ذلك منافع عظيمة للناس منها علم السنين والحساب واختلاف الليل والنهار وفائدة كل منهما وهو لولاه لما حصل النفع والانتفاع، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء أمر الحركة والدوران على الفصول، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق، فإن الرزق أصله منه، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله، فالنبات هو أصل الرزق لأنّ الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان، ولولا النبات لما عاش الحيوان؛ والنبات هو الأصل وهو قسمان: قائم على ساق كالقمح والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار ومنها ما هو غير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشائش والعشب الذي هو غذاء الحيوان فالعلم بهذه الأمور ومثيلاتها هو دافع للضرر وجلب للمنفعة، لذلك اختار الله تعالى من الآفاق آيات منها الشمس والقمر، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص، ولو اجتمع من في العالم من

---

87 الرّحمن 40

الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤوا أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحقّ بأن الذي حركهما هو الله تعالى كما أراد، وذكر الأرض والسّماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكر من الدلائل العقلية، لذلك كان الأمر من الخليفة بمعرفة هذا الجزء من العلم واجب لدرء الضّرر المترتب من عدم معرفته، وكذلك معرفة الجزء النّافع منه لأجل دفع الضّرر المترتب من عدم معرفته أيضا لذلك فالخليفة بصفاته النسبية وبعلمه يعرف هذه الحدود ويلحقّ الضّرر بمن يتعداها، حيث حددها الله تعالى بقوله: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}88 فعلم النجوم يقتصر على جانب النفع والفائدة، فكانوا يتعلمون من النجوم ما يهتدون به في البر والبحر ثم لا يقدمون على أكثر من ذلك لأنه منهي عنه، وإنّما زجر عنه لأنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها، ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها، ويذهب ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والخليفة لأنه راسخ في العلم هو الذي يطلع على أنّ الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنّه لا فائدة من أن يتعدى الإنسان في علم النجوم أكثر ما هو مباح فيه أصلا لأنّه دخول في المعصية بتناول العلم الضّار وإضاعة الوقت والعمر فيما لا طائل من ورائه، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه ضرر، وإضاعة النفيس ضرر، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنّه يحصل به من قضاء وطر في

88 النحل 16

الدنيا، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضّرر الحاصل عنه، وكثير من الأمور يجهلها النّاس لذلك كان لابدّ من الأنبياء والخلفاء، فالأنبياء هم الذين يبلغون الرسالة إلى أجل مسمى، والخلفاء بعد ذلك يقومون برعاية الرسالة وصونها والاستمرار بها جيلا بعد جيل قولا وتنفيذا لأوامر الله جلّ جلاله، وذلك بإحلال ما أحل الله واجتناب ما حرمه ونهى عنه بسبب الضّرر المترتب على استخدامه أو تناوله وتعاطيه، فمن ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[89] فالله سبحانه وتعالى من لطفه بعباده أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث الضّارة، ثم أعطى الخليفة هذا السلطان الذي يقيم به حدود الله، فيأمرهم بكل خير وينهاهم عن كل شر، ويحل لهم الأشياء التي يستطيبها الطبع، ويُحرم عليهم الأشياء التي يستخبثها الطبع كالدم والميتة التي تشكل الضّرر القاتل، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد التي يكون الضّرر فيها غير واضح، لذلك حددها الله تعالى رحمة بالعباد، ولو ترك النّاس وقوى عقولهم وجماح طبائعهم، وغلبة شهواتهم، وكثرة جهلهم، وشدة نزاعهم إلى ما يرديهم ويطغيهم، حتى يكونوا هم الذين يحتجزون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم، وحتى يقفوا على حد الضّار والنّافع، ويعرفوا فصل ما بين الداء والدواء، والأغذية والسموم، كان قد كلفهم شططا، وأسلمهم إلى عدوهم، وشغلهم عن طاعته التي هي أجدى الأمور عليهم وأنفعها لهم، ومن أجلها عدل تركيب الإنسان وسوى بنيته، وأخرجه من حد الطفولة والجهل إلى

---

89 الأعراف 157

البلوغ والاعتدال والصحة، وتمام الأداة والهيئة والخلق، ولو أن النّاس تركهم الله تعالى والتجربة، وخلاهم في تجربة الأمور وامتحان السموم، واختبار الأغذية، وهم على ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، وتسلط الطبيعة، مع كثرة الحاجة، والجهل بالعاقبة، لأثرت عليهم السموم، ولأفناهم الخطأ ولأجهز عليهم اختلاط الأمور، ولتولدت الأدواء وترادفت الأسقام، حتى تصير منايا قاتلة، وحتوفا متلفة، إذ لم يكن عندهم إلا أخذها، والجهل بحدودها ومنتهى ما يجوز منها والزيادة فيها، وقلة الاحتراس من توليدها، فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصلاحهم، ولا يجوز صلاحهم إلا بتبقيتهم ولولا الأمر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة من معنى، ولما أن كان لابدّ للعباد من أن يكونوا مأمورين منهيين، بين عدو عاص ومطيع ولي، علمنا أن النّاس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم، ومخالفة أهوائهم، إلا بالزجر الشديد، والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل، بعد التنكيل في العاجل، إذ كان لابدّ من أن يكونوا منهيين بالتنكيل معجلا والجزاء الأكبر مؤجلا، وكان شأنهم إيثار الأدنى وتسويف الأقصى، وإذا كانت عقول النّاس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز، إذ كان علم الدين مستنبطا من علم الدنيا. وإذا كان العلم مباشرة أو سببا للمباشرة وعلم الدنيا غامض، فلا يتخلص إلى معرفته إلا بالطبيعة الفائقة، والعناية الشديدة، مع تلقين الخليفة ورعايته لهم وعنايته بهم، ولأن النّاس لو كانوا يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم كان إرسال الرّسل قليل النفع، يسير الفضل، وإذا كان النّاس مع منفعتهم بالعاجل وحبهم للبقاء، ورغبتهم في النماء، وحاجتهم إلى الكفاية، ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون لأنفسهم معرفة ذلك وإصلاحه، وعلم ذلك جليل ظاهر سببه بعضه ببعض، كدرك الحواس وما لاقته، فهم عن التعديل

وتفصيل التأويل، والكلام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز، وأجدر ألا يبلغوا منه الغاية، ولا يدركوا منه الحاجة، لأن علم الدنيا أمران: إما شيء يلي الحواس، وإما شيء يلي علم الحواس، وليس الدين كذلك، فلما كان ذلك علمنا أنه لابدّ للناس من خليفة يعرّفهم جميع مصالحهم، فعلى سبيل المثال: أن معظم الخلق ينظرون إلى الموت على أنه ضرر يلحقّ بالأحياء من حيث يأتي على حياتهم، ويتركون خلفهم أزواجا وأطفالا بحاجة إلى من يعينهم، ناهيك عن تمسك الإنسان بالحياة والعيش، قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}90 إن معظم الخلق ينظرون إلى الموت على أنه ضار من جوانب عديدة ليس للميت وإنما لأسرة الميت وصغاره وأنهم أصبحوا أيتاما، وفعل الموت وقع بإرادة الضّار سبحانه وتعالى، وليس الأمر كذلك، وإنما فيه من الصلاح والعبرة والرّحمة ما يغيب عن كثير من النّاس وأمور كثيرة لا يدركها إلا أولو الألباب وأوّلها أنها قمة العدالة الإلهية وأن البشر متساوون في هذا كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم وسيدهم ومسودهم وذكرهم وأنثاهم، ورسولهم وحكيمهم، وأجمل ذلك كله عزّ وجلّ حيث قال: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}91 فما من نفس إلا ويأتي الموت عليها وهي على ما نرى أعلى درجات الديمقراطية على مستوى الخلق.

90 النساء 78، 79

91 آل عمران 85

الجانب الثاني: فلو ترك الإنسان دون موت وبلغ من العمر عتيا فهو محتاج إلى من يقضي له جميع حوائجه، فإذا قال قائل: أن أبناءه وأحفاده ملزمون به، فنقول له إلى متى يستطيعون القيام على خدمته ومن ثم فالجيل الرابع بعد الأحفاد وما يلي ذلك من أجيال من يتعامل معهم ويؤدّي تلك الخدمات للأجيال المتراكمة، إذا فالموت من الضّار جل شأنه أصبح من باب الرّحمة.

الجانب الثالث: حيث أن بعض المتوفين يتركون أبناءً قصرا وليس لهم راعٍ فهنا يأتي دور الولي للأمر أو يأتي دور الدولة بمؤسساتها العاملة، في رعاية من استخلفه الله بدفع ضرر اليتم والفقر والعوز، وفي هذا الأمر تسود الصفات الحسان بين المستخلفين فيها، من الرّحمة والعدل وما إلى ذلك ممّا أسبغه الله عليهم وجعلهم خلفاء في أرضه، لذلك ضرر الموت إن كان ضررا فإن الخليفة المكلف يقوم بدفع هذا الضّرر، وأما الذين يحاولون الفرار من الموت اتقاء ضرره فقد غابت عنهم هذه الأمور، في الوقت الذي لا مفر منه، إنه حقّ من الله تعالى انعم به على عباده، فلا مفر ولا خوف منه، الخوف فقط يكون إذا جاء الموت والعباد لم يكونوا على الطاعة والشهادة، فالموت الذي تفرون منه ملاقيكم أينما كنتم وهو حقّ، ولو كانت إقامتكم في حصون مشيدة وإن هؤلاء الخائرون لضعف إيمانهم يقولون: إن أصابهم فوز وغنيمة هي من عند الله، وإن أصابهم جدب أو هزيمة يقولون هذا من عندك وكان بشؤمك، ولكن كل ما يصيبكم ممّا تحبون أو تكرهون هو من تقدير الله ومن عنده اختبار وابتلاء، فما لهؤلاء الضعفاء لا يدركون النفع والفائدة من وجه الضّرر، إذ أن بعض الخلق عندما تصيبهم مصيبة يقولون دفع الله ما كان أعظم، أي ما كان أعظم من المصيبة التي حلت بهم، وهو من باب دفع الضّرر بضرر مثله، فما يصيبك من رخاء ونعمة وعافية

وسلامة فمن فضل الله عليك، يتفضل به إحسانا منه إليك، وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه فمن نفسك بسبب تقصير أو ذنب ارتكبته، فما أصابك من حسنة يعني من خير ونعمة فهي فمن الله ومن فضل الله عليك يتفضل به إحسانا منه إليك وما أصابكم من سيئات ومن شدة ومكروه ومشقة وأذى فمن نفسك يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به، فمعنى قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك وما هو من باب الضّرر في شيء، وما أصابك من خير فالله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب والمراد من الحسنة والسيئة في ذلك ما يصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعله كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}[92] إن الذي أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم وجمع المشركين واقع بقضاء الله، وليظهر للناس ما علمه من إيمان المؤمن حقّا، فهنا يبرز الضّرر كأحد مقاييس الإيمان والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وهذا الضّرر وإن ترتب عليه مقتل البعض واستشهادهم، فإنّ خيره أكثر من ضرره، إذ أنّ الشهداء نالوا رضوان الله والجنّة، ومن جانب آخر انكشف للخليفة وللمؤمنين أولئك المنافقون الذين هم أشد خطرا من الأعداء، فظهر نفاق الذين نافقوا، وهم الذين قيل لهم حين انصرفوا عن القتال تعالوا قاتلوا لأجل طاعة الله، أو قاتلوا دفاعا عن أنفسكم، قالوا : لو نعلم أنكم ستلقون قتالا لذهبنا معكم، وهم حين قالوا هذا القول كانوا أقرب للكفر منهم

---

92 آل عمران 166، 167

للإيمان، لأنّهم ينفون وقوع الحرب مع علمهم بها مخافة الضّرر، مع أنّهم يعتقدون في قلوبهم أنها واقعة، والله يعلم بما يضمرون من النفاق لذلك أظهر ما يضمرون بتخليهم عن مناصرة المؤمنين، ولم يكن ذلك ضررا للذين آمنوا وإنما هو فائدة كبيرة بأن كشف الله لهم أعداء كانوا يظنوهم إخوانا لهم.

قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}93 وإن يصبك الله بسوء فلا كاشف له إلا هو، وإن يمنحك خيرا فلا راد لفضله، لأنه على كل شيء قدير فإذا أصاب اللهُ الإنسانَ بأي نوع من الألم والحزن وغيره فلا صارف يصرفه عنه إلا الله وإن يمنحه خيرا كصحة وعافية وغنى وقوّة وجاه فلا راد لفضله، وهو القادر على حفظه، لأنه القدير على كل شيء، وإثبات الضّرر من الله تعالى كونه الضّار، أنه اثبت تعالى لنفسه كمال القدرة، كما اثبت كمال السلطان والقوّة، مع كمال الحكمة والعلم والإرادة، والضّرر من الله سبحانه وتعالى إنما يكون لخير يريده بعباده الصلحين، لذلك قال صلّى الله عليه وسلم: "من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلها غير الله"94 فعلى العبد الرضى بقضائه الله وقدره، لأنه من لم يطع الله في امتثال أمره بالشكر على المصائب التي تكون وسائط في إيصال نعم الله عليه فقد أخل بشرط من شروط الإيمان، وإنما يتم الإيمان بالرضا بما قسمه الله تعالى لعبده، والله سبحانه وتعالى نفي الظلم عن نفسه وحرمه، فالإنسان لا يعلم ما هو مقدر له وما مقدر عليه، وإن لحقّ الضّرر بالإنسان من الضّار عزّ وجلّ بمفهوم قدر عقل الإنسان وعلمه، فهو ليس ضررا أراده الضّار بأن

93 الأنعام 17

94 فيض القدير، ج 6، 296

يلحقّه بعبده، وذلك لسبب بسيط، وهو أننا نحن بنو البشر إنما نحاول إلحاق الضّرر بمن نخافه خشية على مصالحنا وما يتعلق بها من حرص على الأموال والأولاد وما يتهدد مستقبلنا وحياتنا وحياة من نقوم برعايتهم ومن هم في ولايتنا وكفالتنا، فالأمر مع الضّار جل شأنه لا يستوي بهذه المقاييس، إذ لا يخشى الضّار جل شأنه خلقه على ملكه، ولا أن يلحقّ به أحد الضّرر حتى يبادره ويكون سابقا إلى إلحاق الضّرر بالخلق لتلافي الضّرر الناتج عن الخلق له بالمفهوم والعرف الإنساني، وهذا يعني أن المفاهيم الإنسانية قاصرة عن إدراك القضاء بالضّرر على الخلق، وهنا يجب أن نوضح أن الضّرر من الضّار للخلق على نوعين:

النوع الأول: ضرر انتقام: وهو الضّرر النّافع لأهل الابتلاء، لأن الضّار عزّ وجلّ يضرّ من يضرّهم بانتقامه لهم، وشواهد هذا النوع كثيرة حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}95 لقد أرسل الله تعالى رسلا إلى أقوامهم، فجاء كل رسول قومه بالحجج الواضحة الدالة على صدقه فكذّبه قومه وظلموا الذين آمنوا بالرّسل بالاعتداء والأذى، فأهلك الله الذين أذنبوا وعصوا وظلموا انتقاما لكفرهم بالله ورسله ولعدوانهم على الذين آمنوا، فقد أوجب الله على نفسه أن ينصر عباده المؤمنين،

والضّرر الثاني: ضرر ابتلاء: وهو امتحان صبر المؤمنين على هذا الضّرر لأن الضّار تبارك وتعالى أحبهم لإيمانهم ويريد أن يزيد في أجرهم، وإذا أحب الله عبده ابتلاه، وزيادة الأجر لا تكون بدون سبب حيث قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}96 فمن هنا

95 الروم 47

96 الرعد 24

كان الضّار نافعا لهم في صبرهم على هذا الضّرر، لذلك فإن الأجر كان على قدر المصيبة فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم، فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله ابنوا لعبدي بيتا في الجنّة وسموه بيت الحمد"97. فالحمد لله تعالى على الإيمان والطاعة، ولذا فإذا مات ولد العبد فإنما هو يشعر بضرر، لأن الإنسان لا يدري مغزى الحكمة من الضّرر، وإنما هو يتفكر بمصيبته وبهذا البلاء الذي نزل به، حيث أن بعض الذين ينزل بهم الضّرر وتصيبهم مصيبة، يبدأ يفكر بزمن ما قبل المصيبة أو البلاء الذي ينتج عنه الضّرر، ويبدأ بالدخول فيما هو منهي عنه من الأماني التي يعارض فيها قضاء الله وقدره والحكمة الإلهية، حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان}98 وعمل الشيطان يتعارض مع المشيئة، ولا يكون الصّبر على ما يشعر به أنه ضرر إلا بالحمد والاسترجاع، لذلك قال الله لملائكته الموكلين بقبض الأرواح: قبضتم ولد عبدي، أي روحه (فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده) أي أنه كالثمرة من الشجرة لأن الثمر أجمل ما في الشجر وأنفعه (فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع) أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون. وبناء بيت الحمد هو تنبيه الملائكة على ما أراد الله من التفضل على عبده الحامد لأجل تصبره على المصائب وعدم اعتبار ذلك من الضّرر، بل عدّه إياها من النعم الموجبة للشكر ثم استرجاعه وأنّه هو نفسه ملك لله وإليه مصيره، وليس شيء يضرّ به الإنسان أغلى عليه من الولد، لذلك فإن

97 سنن الترمذي، ج 4، ص 154

98 صحيح مسلم، ج 13، ص 143

الله تعالى جعله فرع شجرة الإنسان، ثم ترقى إلى ثمرة فؤاده أي نقاوة خلاصته، فإن خلاصة المرء الفؤاد، فحقّيق لمن أصابه هذا الضّرر وفقد تلك النعمة فتلقاها بالحمد، أن يكون هو محمودا وحتى المكان الذي يسكنه في الآخرة هو بيت أسمه بيت الحمد، فهذه الأضرار والأسقام والمصائب لا يثاب عليها لأنّها ليست بفعل اختياري كعمل الخير والتطوع في النوافل والصدقات وما إلى ذلك من غير العبادات المكلف بها، بل هو من الصّبر على الضّرر، فهو إنّما نال ذلك البيت بحمده واسترجاعه لا بمصيبته، وإنما ثواب المصيبة يكفر الخطايا، وظاهر ترتيب الأمر ببناء البيت على الحمد والاسترجاع معا أنه لو أتى بأحدهما دون الآخر لا يبنى له شيء وعليه فكان القياس في وجه التسمية أن يقال سموه بيت الحمد والاسترجاع، لكن الأقرب أن الخصلة التي يستحقّ بها ذلك إنما هي الحمد على الضّرر الذي أصابه، وذلك أن "موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب، يا له من صدع لا يشعب يوهي القوي ويقوي الوهي ويوهن العظم ويعظم الوهن مر المذاق صعب لا يطاق يضيق عنه النطاق شديد على الإطلاق لا جرم أنّ الله تعالى حث فيه على الصّبر الجميل ووعد عليه بالأجر الجزيل وبنى له في الجنّة ذاك البناء الجليل"99 وأمّا تقوية الصّبر على المصيبة التي تنزل بالإنسان من الضّار جل شأنه فهي أطماع النفس في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا بالصّبر على الضّرر، وذلك بأن يكثر فكره فيما أعد الضّار جلّ جلاله للصابرين المتبصرين في حسن عواقبه في الدنيا والآخرة، لذلك فالخليفة بما أوتي من علم وما اتصف به من صفات فهو أعظم النّاس صبرا وأكثرهم جلدا وأبعدهم نظرا وخيرهم روية لما يحمل من الحلم في التعامل

---

99 فيض القدير، ج 1، ص 564

مع الضّرر لعلمه بالنفع الذي يعود عليه من هذا الضّرر لأن ثواب الصّبر على المصيبة أعظم ممّا تحدثه من الضّرر في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، لذلك فإن الخليفة لا يراوده شك، ولا ينتابه قلق من أي ضرر يلحقّ وذلك لعلمه بأنّ ما أدّخره الضّار له في الآخرة خير ممّا فاته في الدنيا، وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان وقوّته، وقوّة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصّبر، وأقل ما أوتي النّاس من النعم هو اليقين وعزيمة الصّبر على الشدائد وتحمل نزول الضّرر، وأعظم النّاس إيمانا ومعرفة بأنّ الضّار لا يريد بعباده إلا خيرا هم أهل اليقين، وهذا لا يتأتى إلا بالتسليم بالقضاء والقدر والطاعة التامة للضار بما يضرّ به من ضرر لكل ضار ومضر سبحانه جلّ جلاله، فهو بما يضرّ نافع، لذلك وصف الله تعالى هؤلاء وأولهم الخليفة ومن سار على نهجه بأنهم أصحاب حظ عظيم حيث قال تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}100 وذلك أن الخليفة صارت الهموم عنده هما واحدا وهو الله تعالى، ثم غلب ذلك على قلبه، حتى أصبح له مجال في الفكر والتأمل بالباطن في ملكوت السّماوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ما ليس لغيره، ولو سؤل الخليفة ما الصّبر على المصيبة؟ لأجاب على البديهة بأن لا تبث، أي لا تبث شكواك لأحد وإنما تصبر وتحتسب وهذا منتهى الصّبر على الضّرر النازل بك من الله تعالى، ألا ترى يعقوب عليه الصّلاة والسّلام عندما عوتب من أبنائه في حزنه على يوسف عليه الصّلاة والسّلام قال: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}101، وهذا دليل على أن الخليفة لا يشكو لأحد، ولا يطلب من أحد تخفيف لوعه إلا لله تعالى، فهو يعلم أنه ليس له إلا الله

100 فصلت 35

101 يوسف 86

يتضرع إليه ويشكو له همومه صعبها وسهلها وصغيرها وكبيرها وعظيمها وجليلها، وما يستطيع كتمانه منها وما لا يستطيع، لأنه يدرك من حسن ضرر الله وابتلائه لعباده، سعة الرّحمة والمغفرة ما لا يدركه غيره، فالثقة بالله تحيي الأمل وتبعث على الطمأنينة التي تحول الضّرر إلى نفع والمصائب إلى نعم، ولا شيء يقوى على الضّرر مثل الصّبر، وهو على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: صبر على أداء الفرائض لله تعالى.

الثاني: صبر عن محارم الله تعالى.

الثالث: صبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، والصّبر على المصيبة أفضل من الصّبر عن المحارم وعلى الفرائض، لأن الصّبر على الفرائض والمحارم من أحوال المسلمين، والصّبر على المصيبة من مقامات اليقين، وإنما فضل المقام في اليقين على مقام الإسلام لعموم والخصوص وذلك أن أهل اليقين من عموم المسلمين، وليس جميع المسلمين من أهل اليقين الذين يصبرون على الضّرر، ويدلل على ما نقول دعاء النبي صلّى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما يحول بيني وبين معصيتك، وارزقني من خشيتك ما تبلغني به رحمتك، وارزقني من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا"[102]. فأحسن النّاس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا وأكثر النّاس جزعا وسخطا في المصائب أقلهم يقينا، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين الذين تمكن اليقين في قلوبهم، فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين، فالصّبر على ضرر الأوجاع والمصائب وإخفاء ذلك من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى، ومن الصّبر على الضّرر هو ضرر الفقر وإخفاؤه وصونه وعدم التشكي لغير الله، والصّبر على بلاء

---

102 المستدرك للحاكم، ج 4، ص 482

الله تعالى في طوارق الفاقات وهي من ضر الامتحان، وصفة القول أن الذي يبتغي أعظم الأجر من الضّار عندما ينزل به الضّرر يتمسك بأنواع الصّبر، فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وأعظم الضّرر ما جاء من مصيبة لأن كل شيء يبدو صغيرا ثم يكبر إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشترط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل أن تصغر وهي في صدمة القلب أول ما تبتغيه المصيبة، لذلك فإن الضّار جلّ جلاله أعطى الأجر لمن صبر على الضّرر.

وعليه، فالضّار هو النّافع جلّ جلاله، فهو الضّار بما يضرّ وبمن يضرّ، وفي هذا نفعا لمن يريد إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، والخليفة الضّار هو الذي يؤكد الحقّ ويعمل على إحقّاقه، وهو الذي يقدِم على كل ضررا ليضرّه في مهده قبل أن يلحقّ ضرره الآخرين، ولهذا فالخليفة يصلح، والذي يريد للأضرار أن تتفشى بين النّاس هو المفسد في الأرض، وهنا تكون المواجهة بين من يريد ضررا بالعباد وبين من يريد إلحاق الضّرر بما يضرّ العباد، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّك بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}103. فالحمد لله الضّار الذي أنقد الكعبة قبلة الموحدين، بضره لمن أتوا من الحبشة برئاسة أبرهة الحبشي الأشرم ليخرب قبلة المستخلفين فيها بالحقّ، محاولة منه وظنا بأنه سيطفئ نور الله ولكن أتم الله نوره بالرغم من كره الكافرين، قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

103 الفيل 1 ـ 5.

تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}[104].

اللهمّ يا الضّار أجعلنا بضرك ضارين لمن يريد إلحاق الضّرر بالأرض والعباد، واجعلنا من مبطلي السّحر الذي يفرق بين المرء وزوجه، وأحفظنا وأولادنا وزوجاتنا وأخوتنا من كلّ ضرّ وكيد ومكر وحسد، وأنر عقولنا بما ينفع يا النّافع يا ذا الجلال والإكرام، فأنت بضرّك يا لضار لما يضرّ ولمن يضرّ تُمكّن عبادك المستخلفين فيها من الإصلاح والفلاح، اللهمّ اجعلنا من المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدّماء فيها بغير حقّ، اللهمّ إنّنا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك؛ فهب لنا القدرة والقوّة التي بها نُحفظ من كلّ ضرر، ونتمكّن من إلحاق الضّرّ بكلّ مارد ضار، يا الله يا الضّار يا لعزيز يا لغفار يا عالم الأسرار والإجهار يا خالق الليل والنهار والشجر والثمار وكلّ ما يعدّ ويحصى وكلّ مالا يعدّ ولا يحصى. فبرحمتك ارحمنا بالقوّة والقدرة والحكمة والعلم النّافع يا لنافع يا لله، وأحفظنا يا الضّار من كلّ ضرر، ومن كلّ الشرور في البحار والبراري، إنّك أنت النّافع ولا نافع سواك سبحانك لا إله إلا أنت الضّار جلّ جلالك.

---

104 الصف، 8 ـ 14.

وعليه؛ فالضّار هو الذي نفع أيّوب، وذلك بضرّ الضّرر الذي مُسّه فجعله في حاجة لمعين؛ فكان الضّار هو الرّب المعبود النّافع من يعبده، الضّار من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السّامع دعاء من دعاه"105.

ومن أسماء الله تعالى النّافع وهو الذي يوصل النفع إلى من يشاء من خلقه حيث هو خالق النفع والضّرّ والخير والشر، وهنا يأتي النفع ضد الضّرّ، وما من اسم من أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته جلّ شأنه إلا وتدخل فيه صفة النّافع التي تعود بالخير والنفع على خلقه جلّ شأنه، إنّها الصّفة المطلقة في كل صفة من صفاته جلّ جلاله، فبعلمه وحكمته وإحسانه وفضله كان نافعا للخلق ولذا فهو النّافع في كل حين وكل مكان ومتى ما شاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}106. فالإنسان لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضر إلا إن شاء اللَّه من ذلك فيمكنه منه ويمنحه إياه، ولو كان أحد يعلم الغيب لا ستكثر من كل خير لنفسه، فلا يوجد أحد يملك جلب نفع ولا دفع ضر إلا الله النّافع الذي يتفضل به على عباده، فالفضل من الله تعالى نفع تدعو إليه الحكمة وهو تعالى يفضل عباده ويتفضل عليهم بنفعه لا محالة لأن الحكيم لا يخالف ما تدعو إليه الحكمة، ولهذا وجب شكر النعم التي تقع في أصل النفع الذي هو الزيادة في الإحسان والتفضل والتخصص بالنفع الذي يوليه القادر عليه وهو الله تعالى حيث إنَّه متفضل بكل نفع يعطيه من نعمة أو صحة وعافية أو طاعة أو ثواب أو غيره ممّا

105 تفسير الطبري، ج 13، ص 320.

106، النساء 188

يدخل في باب النفع، فالثواب أوجبه الله تعالى من جهة أنه جزاء على الطاعة، والشكر واجب على العبد اعترافا بجميل النعم ويدخل فيها نفع الصلاح والاستقامة على ما تدعو إليه الحكمة ويكون في الضرّ والنفع كالمرض يكون صلاحا للإنسان في وقت دون الصحة ممّا يذكر بنعمة الله تعالى من العافية النّافعة للبدن، ممّا يدفع إلى التوبة والاستغفار الذي يكون سببا في الأجر وزيادة الحسنات وذلك أنه يؤدّي إلى النفع في باب الدين وليس في أمور الدنيا، ومن هنا فإن المرض يؤدّي إلى الصلاح والنفع واستقامة الحال، والصالح هو المتغير إلى استقامة الحال، ولهذا لا يقال لله تعالى صالح، وإنما الصالح من علم مكمن الصلاح واستخرجه وعمل به حتى ينتفع به وينفع الآخرين وهذا لا يأتي إلا بالعمل الدؤوب الصالح والهمة العالية والطلب المستمر في تحصيل أشرف الأشياء النّافعة بالنسبة للبشر ألا وهو العلم النّافع على كثرة اتجاهاته ومعانيه لما جعل الله له من فضيلة، ذلك أن العقل وحده لا يكفي لأن يرشد إلى الخير والمنفعة إلا إذا اتصف بصفة العلم النّافع.
وأما العلم فمنافعه لا تحصى ولا تعد ولذلك كان العليم من الأسماء الحسنى لله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}107 فقد ظهر للملائكة عجزهم وعدم إدراكهم لحكمة الله فيما يشاء من خلقه وما يريد من هذا الخلق من خلافته في الأرض، وما هذه الخلافة إلا لنفع كان الملائكة عنه جاهلون، لذلك استدركوا بقولهم: إننا ننزهك يا ربَّنا التنزيه اللائق بك، ونقر بعجزنا وعدم اعتراضنا، فلا علم عندنا إلا ما وهبتنا إياه، وأنت العالم بكل شيء، الحكيم في كل أمر تفعلهن ولذلك فإن الله تبارك وتعالى أعلم الخلق بفضل العلم حيث قال: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

---

107 البقرة 32

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}108 أي من هو خاشع لله أثناء الليل يقضيه ساجدا وقائما، يخشى الآخرة ويرجو رحمة ربه، كمن يدعو ربه في الضّرّاء وينساه في السراء فلا يستوي الذين يعلمون حقّوق الله فيوحدونه، والذين لا يعلمون، لإهمالهم النظر في الأدلة، إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة، وربما ينسب من لا يدرك حقّيقة العلم النّافع إلى العلماء الجهلَ والغفلةَ والسهوَ فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها إحسان ظنه بها وإساءة ظنه بغيره، وأهل العلم النّافع على ضد هذا يسيؤون الظنّ بأنفسهم ويحسنون الظن بغيرهم من العلماء ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل العلماء لأنهم بلغوا مراتبهم في الوصول إليها بالجد والجهد والتقى والورع، ومن علمه غير النّافع إذا رأى لنفسه فضلا على من تقدمه في المقال وتشقق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلا في العلوم أو الدرجة عند الله لفضل خص به عمن سبق فاحتقر غيره واجترأ عليه بقلة العلم ولا يعلم أن قلة كلام هؤلاء إنما كان ورعا وخشية لله ولو أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك وأنهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله غير أنّهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكية التي تعود بالنفع على غيرهم وذلك لفرط علمهم بأنهم يعلمون ويعملون فكان عملهم ترجمة لعلمهم، ولذلك فإن الخليفة من باب العلم النّافع كان عمله أكثر من قوله لعلمه فهو القدوة الحسنة المحتذى، لهذا فإن الله تعالى شهد لنفسه بأنه نافع، وشهد له من خصهم بالنفع أنّه قائم بالقسط والعدل الذي يعود على خلقه بالخير حيث قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}109 فقد شهد

108 الزمر 9

109 آل عمران 18

الله أولا أنه المتفرد بالألوهية وبيَّن ذلك بما بث في الكون من دلائل وآيات لا ينكرها ذو عقل، وأنّه واحد لا شريك له، قائم على شئون خلقه بالعدل، وأقرَّ بذلك ملائكته الأطهار، وَعَلِمَهُ أهل العلم موقنين به، وأنّه جلّ شأنه المتفرد بالألوهية الذي لا يغلبه أحد على أمره، وشملت حكمته كل شيء فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز العلم في مقام المدح وهو العلم النّافع حيث قال: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}110
وما كان أمر الله تعالى بطلب زيادة العلم لعبده إلا لما فيه من المنافع والفوائد فهو أنفس بضاعة، وطلبه أفضل تجارة، ولزوم العلماء ومصاحبتهم من أفضل الأعمال، ولما كانت صفات الله تعالى المطلقة كلها تحمل معنى النفع لأن الله سبحانه لا يريد لعباده إلا الخير، وأن الخليفة يتصف بها نسبيا فهو أدرك بما حباه الله من فضل نعمه من هذه الصفات قيمة العلم ونفعه فقد ألزم نفسه في جمعه، وشغل ذهنه بحفظه، وحوى خطيره ونال رفيعه وروى جليله وعرف دقيقه وعلم غامضه، ووعى واضحه، ثم صانه بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، ونزهه عن الإذاعة عند من يجهل مكانه وجعل غرضه أن يودعه من يستحقّه، ويبديه لمن يعلم فضله، ويؤتيه إلى من يعرف محله، وينشره عند من يشرفه، ويودعه أفضل مكان لأن العلم النّافع يذكر بالرجاحة طالبه، وينعت بالنباهة صاحبه ويستحقّ الحمد عند كل العقلاء حاويه، ويستوجب الثناء من جميع الفضلاء واعيه، ويفيد أسنى الشرف مشرفه ويكتسب أبقى الفخر وما يمتلك هذه الصفات إلا الخليفة الفاضل العادل، حيث يعلم أين يضع علمه ويحدد الجهة التي يوجهها إليه ليعود بالنفع على من يقتدي به أولا: في تعليمه العلم النّافع، وثانيا: في استثمار هذا العلم ليكون لهم عونا في الحياة الدنيا ومنجاة لهم في

---

110 طه 114

الآخرة، ومن هذا الفهم العميق للمسؤولية إن صح التعبير كان العلماء والخلفاء في الأرض ورثة الأنبياء، ولذا فالخليفة هو أعظم رهبة وأشد خشية من الله تعالى لما علم ممّا لا يعلمه غيره بوضع علمه في مجالات النفع والفائدة التي تعود على الآخرين بخير الدارين خشية من الله تعالى ورحمة، لذلك قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}111 وهذه الخشية هي التي يكمن فيها النفع ويكون بها ويتصف الخليفة بنسبية النّافع وليس كل العلماء يخشون الله، وإن كانوا جميعهم يخشونه فإنما بدرجات متفاوتة حسب مراتب النفع، فمراتب الإنسان في النفع ثلاث تظهر في ثلاثة أشخاص، فأحدهم نافع مُلهم ويعمل، ويصير مبدأ للمقتبسين منه، المقتدين به والآخذين عنه، السائرين على خطاه، المارين على غراره، القافين على آثاره، والآخر نافع ولا يُلهم فهو يماثل الأوّل في الدرجة الثانية، ونعني ينفع نفسه فقط، وواحد نافع ويلهم بنفع الآخرين وهذا في أعلى درجة حيث تجتمع له تلك الخلتان، فيصير بقليل ما يملك من وسائل النفع مكثر للعمل به وينفع بقوّة ما يلهم من النصيحة والمشورة والعمل ويعود بكثرة ما يلهم من النفع على الآخرين وهذه صفة الخليفة، ولهذه الصّفة قال موسى عليه الصّلاة والسّلام للعبد الصالح: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}112 فهذا هو أحد أبواب النفع إن لم نقل أعظمها وهو العلم النّافع الذي نفع حامله بعلمه وعمله، ونفع موسى عليه الصّلاة والسّلام بما تعلمه من حامل العلم، ونفع من انعكست عليه نتائج العمل بذلك العلم، لذلك نرى الخليفة الحامل للعلم، لا يحمله للعلم ذاته، ولا لنفسه، وإنما يحمل علمه لما يعود بالنفع على الجميع، بمعنى نقل ما يحمل من العلم أو جزء منه إلى الآخرين

111 فاطر 28

112 الكهف 66

على قدر ما يستطيعون وعيه، وعودة نفع هذا العلم على الجميع بالعمل به، وعندما يحقّق هذين الشرطين بالعمل بهما يكون قد وصل إلى مرضاة الله تعالى فتتحقّق الغاية من هذا الجانب وهو أجر العاملين به على الوجه الذي أراده الله من الخليفة. وممّا لا شك فيه أن الخليفة، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتمام في الحلم والسعة في العلم، والكمال في الحزم والعزم، مع التمكين والقدرة، والفضيلة والرياسة والسيادة، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة، والتأييد وحسن المعونة، أن الله جلّ اسمه لم يكن ليجلله باسم الخلافة، ويحبوه بتاج الإيمان، وبأعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسناها، ثم وصل طاعته بطاعة الخليفة، ومعصيته بمعصيته، ورضاه برضاه، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم، والعفو في موضع العفو، والتغافل في موضع التغافل، ما لا يبلغه فضل ذي فضل ولا حلم ذي حلم إلا الخليفة وهذه الصفات هي أقصى درجات النفع. وقد يؤتى أُناس علما فلا ينفعهم علمهم، ويكون هذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به ولم ينفع به أحدا كما قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}113 فإنّ الله تعالى العليم الحكيم يؤتي العلم لعباده، والخير بيده يفيضه على خلقه في أرضه لذلك وجب على العباد أن يسخّروا هذا العلم للخير ونصرة الحقّ ووضع هذا العلم في الموضع الذي يرضي الله تبارك وتعالى في نشر الفضيلة ودحر الرذيلة ودفع الأذى، فلما ترك هؤلاء ما أمر الله به من حقّ العلم النّافع، ولى عليهم خيارهم، ليذهب عنهم الضّرر ويزيل عنهم البأس، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصف المظلوم من الظالم ويقيم منار الشرع المطهر بهذا العلم الذي

113 الجمعة 5

آتاه الله إياه. ومن صفات العلماء الذين ينتفع بعلمهم السكينة والوقار والحلم والتواضع، فالسكينة تبعث الراحة والطمأنينة في النفوس، والوقار يحافظ على هيبة العلم والعلماء، والحلم هو سعة الصدر لتوضيح كل شاردة وواردة للسائلين، والتواضع يكسب المحبة في قلوب النّاس للعلماء، وما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا، فذلك هو العلم النّافع، ومن آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق وعمل صالح فهو الخليفة. وحتى يكون العلم نافعا يجب أن يجمع العالم ثلاث صفات تتم له نعمة العلم النّافع ألا وهي الصّبر والتواضع وحسن الخلق، وكذلك العقل والأدب وحسن الفهم، وعلى الجملة فالأخلاق التي وردت إنما تكون مجتمعة في الخليفة، فالله سبحانه وتعالى ينزل علمه ويلهمه لمن يختار من عباده كي ينتفع به كما ينتفع من الماء الذي ينزله من السّماء حيث قال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السّماء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَممّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يضرّبُ اللَّهُ الحقّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النّاس فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يضرّبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}114 وهذا الماء لا يقف توضيحه عند حدود التفسير المادّي من إغاثة الأرض وإنبات الزرع وإنما ينسحب أيضا على ماء الغيب وهو العلم النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت فتغرقه سحائب الرّحمة وتثيره رياح الهداية فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة فتملأ منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة وهو الطرف المقابل أو المعادل الموضوعي في الجانب العلمي لما أنزل من السّماء من ماء فسالت أودية بقدرها فأحتمل السيل زبدا رابيا حيث شبه الحقّ تعالى العلم النّافع بالمطر النازل من السّماء فكما أن المطر

114 الرعد 17

تعمر منه الأودية والغدران وتجري منه العيون والأنهار كل على قدر سعته وكبره كذلك العلم النّافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة فسالت به أودية القلوب كل على قدر طاقته وحسب استعداده وكما أن المطر يطهر الأرض من الأدران وهو معنى قوله تعالى فأحتمل السيل زبدا رابيا أي مرتفعا على وجه الماء كذلك العلم النّافع يطهر النفوس من الأدناس والقلوب من الضغائن والأرواح من الأكدار والأسرار من الوساوس، فقد تبقى في القلب بقية من حب شيء فيكون العلم بمثابة الدافع إلى التسامي عن الدنيا من أجل الانتقال إلى ما هو أبعد من هذا العالم المادّي إلى عالم الفضيلة فإذا تحقّق ذلك فيستوي عنده الحلو والمر والعز والذل والغنى والفقر لأنه تحقّق أن كلا من عند الله وما في الوجود سواه وهذا هو العلم الحقّيقي الذي هو العلم النّافع وهو الذي ينبسط في الصدر شعاعه وينكشف به عن القلب قناعه وهو علم القلوب ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل ويبدأ بعد ذلك فيبحث عن عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الرّوح وعيوب السر فيطهر كلّ واحد من عيوبه فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال كالإيمان واليقين والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة وتحلى أيضا بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة فشعاع العلم النّافع الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين وبرد الرضى والتسليم وحلاوة الإيمان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة وغير ذلك ممّا تقدم من الأخلاق الحسنة التي يتصف بها الخليفة لاتصافه بالعلم النّافع. وإن من النفع أيضا ما يكون من العدالة بين البشر على حدٍ سواء، فالتفويض الإلهي للخليفة بإعمار الأرض هو من النفع الدنيوي، ودعوتهم إلى الحقّ والخير وطريق الهداية لإصلاح دينهم هو من النفع في الآخرة برضا الله عنهم وإدخالهم في رحمته وإدخالهم جنته، أما الذين يظهرون غير ما

يبطنون فإن الخليفة يدعوهم إلى ما هو خير لهم وما تكمن فيه منفعتهم فإنّ أبوا فإنه يأخذ على أيديهم في الدنيا من أجل مصلحتهم ونفعهم ثم بعد ذلك أمرهم في الآخرة يعود إلى الله حيث يعلم خائنة الأعين وما تخفي صدورهم فيكون مصيرهم كما قال تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ}115 يُعرف المجرمون من الإنس والجن بعلامة يتميزون بها، فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعر مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار أو تسحبهم الملائكة إلى النار وتأخذ بالنواصي وتجرهم على وجوههم أو تجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسة من وراء ظهورهم فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة، وهذا ليس من الضّرر في شيء وإنما هو جزاء بما كانوا يعملون، وهذا العقاب اختص به الله سبحانه وتعالى في الآخرة، وأمّا ما كان يعمله هؤلاء في الدنيا فأمره لدفع ضررهم من أجل المنفعة العامة، بما كان من خروجهم على سلطان الله تعالى الذي خوله للخليفة بإقامة الحقّ والعدل لامتلاكه الصفات النسبية من الصفات المطلقة، لذلك لا يكون نفع الخليفة محضا دون عقاب حتى لا تذهب الهيبة لذلك قال تعالى: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}116 وهذه الآية حجّة واضحة في تفويض الخليفة لما فيه النفع باستخدام ما فوضه الله به من النفع الضّار فإن ظهرتم على الشرك كانوا معكم، وإن ظهر المشركون على الإسلام كانوا مع المشركين، فهم

115 الرّحمن 41

116 النساء 91

يريدون أن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم من المشركين، وهؤلاء في ضلال مستمر ونفاق، فإن لم يكفوا عن قتالكم ويعلنوا لكم الأمن والسلام فاقتلوهم حيث وجدتموهم حتى لا تكون في الأرض فتنة منهم بعد ذلكن فيعاقب هؤلاء المسيئين ويكافئ المحسنين، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، ويقتل في موضع القتل، ويحيي في موضع الإحياء، ويعفو في موضع العفو، ويعاقب في موضع العقوبة، ويمنع ساعة المنع، ويعطى ساعة الإعطاء، خالف الله تعالى في سنته في الخلق وتدبيره في الكون، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه، فبعض القتل إحياء للجميع، وبعض العفو إغراء للآخرين في التوبة، كما أن بعض المنع نفع، ولا خير فيمن كان خيره محضا، وشر منه من كان شره صرفا، ولكن خلط الوعد بالوعيد مدعاة للهيبة والرهبة، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فهذا ممّا يعود بالنفع على المجتمع، لأن النّاس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه، فخير الخير ما كان ممزوجا، وشر الشر ما كان صرفا، وربما ينفر من هذا بعض الذين لا يعلمون أن الجنّة حفّت بالمكاره وحفّت النار بالشهوات، ولا يعلمون الأمور على حقّيقتها وأن الخير والنفع يكمن في المكروه إن لم يكن كلّه فجلّه كما قال تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}117 ولو كان النّاس يصلحون على الخير وحده لكان الله عزّ وجلّ أولى بذلك الحكم، وفي سنن الخلق والأمم والأقطار والأزمان جميعا، كان استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصواب فيه دون غيره وهو مجلبة للنفع، وإذا كان النّاس إنما يصلحون

117 النساء 19

على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد بذلك الشر خيرا وذلك المنع نفعا وذلك المكروه محبوبا، وإنما الشأن في العواقب، وفيما يدوم ولا ينقطع، لذلك فإن الخليفة يجعل العدل والإنصاف في الثواب والعقاب حاكما بينه وبين غيره، فمن يقدمه منهم فإنما يقدمه على الاستحقّاق، وبصحة النية في مودته، وخلوص نصيحته لما يحمل من أخلاق وشيم تكمن فيها المنفعة، وهو مع ذلك يحمل من العطف والشفقة والرّحمة على النّاس ما لا يحمله غيره وذلك لمعرفته بما يضرّهم وما ينفعهم، فينأى بهم عما يضرّهم وينجو بهم إلى ما ينفعهم بالرفق واللين والخطاب المؤثر في النفوس وبهذا الأسلوب الرقيق من أجل النفع ودفع الضّرر جاء خطاب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه حيث قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[118] فهذا كلام يهز أعطاف السامعين، وفيه من الفوائد والمنافع ما لا يخفي على عاقل، وهو لما أراد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه ممّا كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر ربه، رتب الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن، مستنصحا في ذلك بنصيحة ربه من أجل نفعه، وذلك أنه طلب منه أولا العلة في

---

118 مريم 41، 47

خطيئته طلب منبه على تماديه كي يوقظ غفلته بسؤاله لمَ تعبد الشيطان، ثم ثنى بعد ذلك بدعوته إلى الحقّ مترفقا به، فلم يصف أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إنّ معي طائفة من العلم وشيئا منه، وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بهداية الطرق دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل، ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه، فقال: إن الشيطان الذي عصى ربّك إنّما هو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذي دعاك إلى الخروج على طاعة الله، وألقاك في هذه الضلالة، وإنما ألغى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ذكر معاداة الشيطان إلا التي تختص بالله، وهي عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته، ثم بعد ذلك بدأ بتخويفه أبيه سوء العاقبة، فلم يصرح بأنّ العقاب لاحقّ به، ولكنّه قال: إني أخاف أن يمسك عذاب ملاطفة لأبيه، وصدّر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله: (يا أبت) توسلا إليه واستعظاما لشأنه، وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه، فإنه قال: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فأقبل عليه بفظاظة الكفر، وغلظ العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بني، ونحن نجد أن الخليفة قد حمل هذه الصفات واستخدمها صونا للناس وحرصا عليهم، وطاعة لله، ومحبة لهم بأنه يتصف بصفة النّافع بالإضافة فهو يدرك بما يحمل من علم كيف يكون نافعا في امتثاله لقول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّك بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّك هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[119] فالدعوة هنا إلى طريق الحقّ الذي شرعه الله تعالى من أجل فائدة الخلق ومصالحهم ومنافعهم في الدنيا والآخرة، إنما تكون بسلوك الطريق الذي يناسب كل واحد

119 النحل 125

منهم حسب مقامه ومنزلته وقدرته العقلية على استيعابه للأمور، وتكون مخاطبتهم على قدر عقولهم فدعوة خواصهم ذوي الأفهام بما يرقى إلى مداركهم العالية بالقول الحكيم المناسب لقولهم، ودعوة بقيتهم على حسب ما يستطيعون إدراكه من إيراد المواعظ وضرب الأمثال التي توجههم إلى الحقّ وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، ويكون جدال أصحاب الملل والمعتقدات بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وكل ذلك لأنه نافع ويريد نفع الآخرين. هذا هو الطريق لدعوة النّاس إلى الله على اختلاف ميولهم، فسلوك هذا الطريق هو الذي يؤدّي إلى منفعة ما أراده النّافع جل شأنه، وبعد ذلك يكون أمرهم إلى الله تعالى الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة، ومن سلم طبعه فاهتدى وآمن بما جاء به الحقّن فالذين اهتدوا وصلح أمرهم فقد نالوا من النفع حظا وافرا ونصيبا وافيان والذين ابتعدوا عن الحقّ والهداية وجب على الخليفة إعادتهم إلى الطاعة بالقوّة النّافعة التي تعود عليهم بالخير، إذ أن تركهم يعني مكافأة لهم على عصيانهم وهذه إساءة للمجتمع، وليس من العقل في شيء أن يُكافئ المسيء على إساءته، فمن قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف سنة الله في التدبير، وظن أن رحمته فوق رحمة الله تعالى، والنّاس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، فمن باب الحكمة استخدام القوّة النّافعة كلما اقتضى الأمر في هذه المواقف، وهذا ما يلجأ إليه الخليفة بصفته نافع بالإضافة، والحكمة أوفى منحة وأوفر نعمة يسبغها الله تعالى على خليفته لينفع بها خلق الله وقد قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}120 فالله تعالى يعطى

120 البقرة 269

صفة الحكمة من إصابة الحقّ في القول والعمل من يشاء من عباده، ومن أُعْطِيَ ذلك فقد نال خيرا كثيرا ونفعا كبيرا لأن به انتظام أمر الدنيا والآخرة، وما ينتفع بالعظة الحسنة والاعتبار والحكمة إلا ذووو العقول السليمة التي تدرك الحقّائق من غير طغيان الأهواء الفاسدة، ولا يتعظ بالعلم ويتأثر به إلا ذوو العقول السليمة والنفوس الطاهرة التي تدرك الحقّائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذه الحياة، وهنا يتجلى النّافع سبحانه وتعالى في رحمته بالعباد أن آتى بعضهم هذه الحكمة ليكونوا خلفاء في أرضه وشهودا على خلقه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد بعباده إلا ما ينفعهم باسمه النّافع، وإضافة إلى الحكمة التي لا يدركها كثير من الخلق، وعلمه المسبق بذلك فقد اختار من العباد قيّما على هذه الحكمة يعرف معناها ويدرك مغزاها ويؤدّي حقّاها ويسعى في نفعها ليوصلها إلى الذين هم بحاجة إليها وإلى نفعها في الدين والدنيا فكان الخليفة مكلف بذلك لأنّه هو النّافع بالإضافة، وكذلك من المنافع التي يؤتيها النّافع جل شأنه، هي حكمة مواعظ القرآن ومعاني آياته وتبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها، فهو يبينها ويوفق للعمل بها من يشاء من عباده، ويؤتيها بموجب سعة فضله وإحاطة علمه بما تحمله من المنافع العظيمة والعبر البالغة التي يدور عليها فلك منافع الخلق وهي أيضا دعوة إلى اغتنامها والمسارعة إلى العمل بها، فمن وصل إلى هذه الدرجة وأعطي العلم والعمل فقد أوتي خيرا كثيرا لأنّه قد حاز خير الدارين، وما يتعظ بما أوتي من الحكمة إلا أصحاب العقول النيرة والخالصة من شوائب الوهم ولا يركنون إلى متابعة الهوى، والمراد هنا الحكماء العلماء الذين يعملون بما علموا وأوّل هؤلاء هو الخليفة، ولا يتناول كل مكلف وإن كان ذا عقل لأنّ من لا يغلب عقله على هواه فلا ينتفع به فكأنه لا عقل له، ومن أعطي علم نافعا ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لانّ ما أعطي له من خير كثير،

والدنيا متاع قليل، وأمّا الذين يدعون إلى ترك ما ينتفع به من الحكمة فإنما هي دعوة للفحشاء التي هي اسم جامع لكل سوء لأنها تتضمن معاني البخل والحرص واليأس من الحقّ والشك في مواعيد الحقّ للخلق بالرزق والخلف للمنفق ومضاعفة الحسنات وسوء الظن بالله وترك التوكل عليه وتكذيب قول الحقّ ونسيان فضله وكرمه وكفران النعمة والإعراض عن الحقّ والإقبال على الخلق وانقطاع الرجاء من الله تعالى وتعلق القلب بغيره ومتابعة الشهوات وإيثار الحظوظ الدنيوية وترك العفة والقناعة والتمسك بحب الدنيا وهو رأس كل خطيئة، فمن فتح على نفسه باب الوساوس فسوف يبتلى بهذه الآفات ومن سد هذا الباب فان الله يكرمه بأنواع الكرامات ورفعة الدرجات والله واسع عليم يؤتى الحكمة من اجتنب الوساوس، لأن الحكمة من مواهبه ترد على قلوب الأنبياء والأولياء والخلفاء عند تجلى صفات الجلال والجمال وفناء أوصاف الخلقية بشواهد صفات الخالقية فيكاشف الأسرار بحقّائق معان أورثتها تلك الأنوار سرا وإضمارا. فحقّيقة الحكمة نور من أنوار صفات الحقّ يؤيد الله بها عقل من يشاء من عباده فهذه ليست ممّا تدرك بالعقول والبراهين العقلية والنقلية وأما المعقولات فهي مشتركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فالمعقول ما يحكم العقل عليه ببرهان عقلي وهذا ميسر لكل عاقل بالدراية وعالم بالقراءة فمن صفي عقله عن شوائب الوهم والخيال فيدرك عقله المعقول بالبرهان دراية عقلية ومن لم يصفُ عقله عن هذه الآفات فهو يدرك المعقول قراءة بتفهيم معلم مرشد، فأما الحكمة فليست من هذا القبيل وما يذكر إلا أولو الألباب وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول الإنسانية بل سعوا في طلب لبها بمتابعة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الإنسانية إلى نور لب المواهب الرّبانية لنوال أعلى درجات المنافع، فتحقّق لهم أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور، وكان

الخليفة ممن خصهم الله بهذه السجية وهو نوع من الاصطفاء وسنأتي عليه إن شاء الله في مستهل كلامنا. إنّ الله سبحانه وتعالى رحمة منه في العباد ولطفا بهم وشفقة عليهم لأنّ الإنسان خلق ضعيفا ولأنّ الله غني عن العالمين فقد سخر لهم ما في جميع الأرض من منافع حيث قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}121 لقد ذلل لكم من أجل الانتفاع كل ما في السّماوات من نجوم مضيئة وكواكب، وكل ما في الأرض من زرع وضرع وخصب وماء ونار وهواء وصحراء جميعا، ليوفر لكم منافع الحياة، وإن فيما ذكر من نعم لآيات دالة على قدرته لقوم يتدبرون الآيات بأنّه وحده الذي ذلل البحر تجري السفن فيه بأمره، وتحمل النّاس وجميع ما يحتاجون، وبفضله يمكنكم أن تطلبوا من خيرات البحر بالتجارة والصيد واستخراج ما فيه من لآلئ وتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم، وكل هذه النعم آيات تدل على قدرته تعالى لقوم يتفكرون في صنائع الله القدير، وأنه بيده الملك وهو النّافع القادر على النفع، وإنّ الآيات توضح القدرة الإلهية من جانب الخلق والإبداع ولكنها تدل المتأملين والمتفكرين على النّافع وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهذه المخلوقات من تباين في هذا الكون ممّا يدل عل اختلاف أنواع المنفعة، فالسّماوات والأرض من جنسين مختلفين ولكن كل منهما يؤدّي منفعة لا يعوضها غيره على الرغم من البعد والمسافات والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب وهذا الاختلاف تكمن فيه الفوائد والمنافع، وكذلك اختلاف الليل والنهار، أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما ترك الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة

121 = الجاثية 13

والنقصان والظلمة والنّور، كل ذلك من أجل منفعة الإنسان حيث سخر النّافع عزّ وجلّ هذه المخلوقات لاستمرار الحياة، وهذه الفلك التي تجرى في البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع النّاس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل لأنه يربح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه، فهذه المخلوقات الكونية كلها، أوجدها النّافع خدمة لنفع الإنسان، ومن هنا كانت صفة النّافع التي اتصف بها الله تعالى، حيث خلق الجن والإنس للعبادة وسخر بقية مخلوقاته منافع للإنسان حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السّماء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}122. الله هو الذي أنشأ السّماوات وما فيها، والأرض وما فيها وما عليها، وأنزل من السحاب ماء مدرارا، فأخرج بسببه رزقا لكم هو ثمرات الزرع والشجر، وسخر لكم السفن لتجرى في البحر تحمل أرزاقكم وتجارتكم بإذنه ومشيئته، وسخر لكم الأنهار العذبة لتنتفعوا بها في ري الأنفس والزروع، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، للإضاءة وإصلاح النبات والحيوان، وسخر لكم الليل للراحة، والنهار للسعي والعمل وقضاء الحاجات، فهو النّافع لكم، والخليفة الذي يختاره الله لإعمار الأرض فهو أيضا نافع بالإضافة ويأخذ بأسباب الفائدة والنفع من أجل الحقّ وإقامة العدل فإن خالفه مخالف أو عارضه معارض أو عانده معاند كان معذورا إن انتفض لإعادة الأمور إلى نصابها ووضع الموازين في أقساطها إذ أن الخروج على النّافع بالإضافة هو ضرر يلحقّ المجتمع، لذلك كان من

122 إبراهيم 32، 33

حقّ الخليفة أن يستنهض جميع الأسباب لأن يردع كل من خرج عن طاعة الله سبحانه ولو بإعلان الحرب دفعا للضرر وجلبا للمنفعة التي منحها الله تعالى للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط سلطانه، ودحر الظلم والجور وإزهاقه، وبهذا يكون الخليفة قد أدى ما عليه من حقّ الله تعالى في إطاعة أوامره باستخدام ما خوله الله من قوّة تصب في مجال النفع وإن كانت ضارة من وجهة نظر الأعداء، إلا أن الله تعالى ليردع بالسلطان ما لا يردع بالقرآن، والردع من أعظم أسباب جلب المنافع ودرء المفاسد، وبهذا تتجلى صفة النّافع في الخليفة بدفع الظلم وإقامة العدل وإعمار الأرض وإصلاح العباد ونشر الأمن والطمأنينة في نفوس البشر في ديارهم وبلدانهم، وبهذا يكون أدى ما عليه من حقّ هذا النفع المستمد من قوّة النّافع جل شأنه بالكلمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجلب المنافع ودفع المفاسد ودحر الضّرر فمن نعم النّافع على خلقه بصفته نافعا أنه مُصطفي، يَصطفي من يشاء من عباده ويصطفيهم برسالاته ليبينوا للناس سننه جلّ جلاله في خلقه وما يريد تعالى من خير ونفع للخلق حيث قال سبحانه جلّ جلاله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَي آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}123 فمن رحمة الله تعالى ونفعه لخلقه وعباده أنه اصطفي محمّدا عليه الصّلاة والسّلام لتبليغ رسالته الخاتمة للكافة، وجعل إتباعه وسيلة لحب الله ومغفرته ورحمته التي يترتب عليها جميع المنافع في الدنيا والآخرة، كذلك من قبل قد اصطفي آدم عليه الصّلاة والسّلام وجعله من صفوة العالمين فهو أوّل هؤلاء الصفوة المختارة من النّافع لنفع الخلق وإرشادهم إلى الخير والهدى والصلاح فاصطفاه ربه واجتباه واسكنه فسيح جناته وسخر له كل ما فيها لينتفع

123 آل عمران 33، 34

من نعيمها إلا تلك الشجرة حيث قال تعالى: {وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}124، فالله سبحانه وتعالى أمر آدم عليه الصّلاة والسّلام أن يسكن هو وزوجه دار الكرامة والخلود، وهى الجنّة، ويتنعما بما فيها، يأكلان من أي طعام أراداه لأنّه سيعود عليهما بالفائدة والانتفاع حيث أنّ كل ما في الجنّة نافع، إلا هذه الشجرة، فلا يقرباها حتى لا يكونا من الظالمين لأنفسهما، وما كان النهي عن تلك الشجرة إلا لمنفعة لم يدركها آدم عليه الصّلاة والسّلام، ولكن الشيطان زين لهم الإقدام على الأكل منها فكان العقاب المترتب على المخالفة هو الخروج من الجنّة، وعلى هذا يمكن القول أن الله سبحانه وتعالى كما اصطفي الأنبياء لنفع البشر بإرشادهم إلى طريق الخير والسداد، كذلك اختار لهم خلفاء يقومون بأمورهم بما يعود عليهم بالنفع من الخير والرشاد. واصطفي نوحا عليه الصّلاة والسّلام بالرسالة، واصطفي إبراهيم وآله إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصّلاة والسّلام والأنبياء من أولادهم، ومنهم موسى عليهم الصّلاة والسّلام، واختار من آل عمران عيسى عليه الصّلاة والسّلام وأمه الصديقة، اختارهم ذرية طاهرة، فهم يتوارثون الطهر والفضيلة والخير، فهؤلاء جميعا إنما جاء اصطفاؤهم من النّافع عزّ وجلّ من أجل انتفاع النّاس بهم وبما يحملون من العلم والفضيلة والخير والرشاد ليصلوا بالنّاس إلى الهدى والحقّ والعدل الذي أمر به الله تعالى وجعل انتفاع خلقه بإتباع هداه، والهدى الذي يبينه هؤلاء الأخيار لانّ الفلاح والنفع منوط بإتباع من اختارهم وجعل منهم الرّسل الذين يبيّنون للناس طريق الله ومحبته، فقد اختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوّة والرسالة فيهم كما اصطفي

124 الأعراف 19

محمّدا عليه الصّلاة والسّلام لتبليغ رسالته للكافة، فالله سبحانه وتعالى اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الرّوحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرّسالة في نفس المصطفي كما في كافة الرّسل عليهم الصلاة السلام أو فيمن يلده وينشأ في رعايته كما في مريم أو اصطفاه بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة له وإسكانه الجنّة، واصطفي نوحا بكونه أوّل من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما، فقد نسخ ذلك وحرَّمه، وجعل الله ذريته هم الباقين استجابة لدعوته في حقّ الكفار والمؤمنين حيث قال تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}125 وهذه الدعوة من نوح عليه الصّلاة والسّلام على الكافرين إنّما كانت من أجل منفعة، وقد حمله على متن الماء حيث قال تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}126، فأدى الله تعالى إليه منفعة بدفع ضرر الطوفان، فمن اصطفاه الله فقد جعل فيه الخير والنفع وصافاه وكان له وليا منتخبا مكرما مواصلا، يورثه عزائم الأنبياء، ويزيده في التقريب زلفي، ويثبت في محاضر النجوى، ويصطنعه للخلة والاصطفاء، ويرفعه إلى الغاية القصوى، ويبلغه في الرفعة إلى المنتهى، ويشرف به من ذروة الذرى على مواطن الرشد والهدى، وعلى درجات البررة الأتقياء، وعلى منازل الصفوة والأولياء، فيكون كله منتظما وعليه بالتمكين محتويا، وبأنبائه خبيرا عالما، وعليه بالقوّة والاستظهار حاكما، وبإرشاد الطالبين له إليه قائما، وعليهم بالفوائد والعوائد والمنافع دائما، ومن كانت هذه صفاته وأحاطه الله بهذه العناية ومنحه هذه الرعاية فهو إمام الهداة العظماء والأجلّة الكبراء اللذين جعلهم للدين عمادا وللأرض أوتادا، فهذا هو الخليفة الذي أمر الله بإتباعه وجعل فيه الخير

125 نوح 26

126 القمر 13

وعلى يديه النفع، فكان هو النّافع للعباد بحيث يقوم بقضاء حاجات النّاس التي ينتفعون بها إما بعلمه وعقله وإما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الواجب ابتغاء مرضاة الله، فقد قال صلّى الله عليه وسلم: "من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق، كل خندق أبعد ممّا بين الخافقين"127، وإضافة إلى كونه الخليفة المفوض، ففي النهوض بقضاء حوائج النّاس ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة من أجل التوجيه والتصويب وإبداء الرأي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكل ذلك من النفع للخلق في دينهم ودنياهم مع القيام بحدود الشرع، ومع ذلك فهو ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام الذكر والتفكر فذلك لا يعدله شيء. وأما النّافع تبارك وتعالى فقد سخر كل مخلوقاته خدمة للإنسان، وكل ما في الوجود من شيء خلقه الله تعالى إلا وجعل فيه منفعة وفائدة لخلقه دون استثناء ولعباده على وجه الخصوص، فإن لم تكن فائدة مباشرة فإنها فائدة ومنفعة غير مباشرة لا محال، إذ ما من شيء في السّماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات إلا وهي مسخرة لمنفعة الإنسان بصرف النظر عن طاعته أو عصيانه أو إيمانه أو كفره في هذه الدنيا، وأما في الآخرة فكل نفس بما كسبت رهينة، فالله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون للمنفعة والاعتبار حيث قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السّماوات وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السّماء سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ

127 المعجم الأوسط للطبراني، ج 16، ص 113

يَسْبَحُونَ}128 ألم يبصروا الذين كفروا أن السّماوات والأرض كانتا في بدء خلقهما ملتصقتين، فبقدرتنا فصلنا كلا منهما عن الأخرى، وجعلنا من الماء الذي لا حياة فيه كل شيء حي، فهل بعد كل هذا يُعرضون، فلا يؤمنون بأنه لا إله غيرنا ومن دلائل النفع أن الله جعل في الأرض جبالا ثوابت، لئلا تضطرب بهم، وجعل فيها طرقا فسيحة، ومسالك واسعة، لكي يهتدوا بها في سيرهم إلى أغراضهم وحاجاتهم ومنافعهم وجعل السّماء فوقهم كالسقف المرفوع، وحفظها من أن تقع أو يقع ما فيها عليهم، وهم مع ذلك منصرفون عن النظر والاعتبار بآياته الدالة على القدرة والحكمة والرّحمة. وهو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، كلٌ يجرى في مجاله الذي قدَّره الله له تقديرا، ويسبح في فلكه لا يحيد عنه، فإبداع السّماوات والكواكب التي تسير فيها بانتظام دون أن تتزاحم أو تصدم، بل تبعث الحرارة والنور لهذا الكون، والأرض وما فيها من البر والبحر، وتعاقب الليل والنهار، كل ذلك من المنافع للناس، كذلك ما يجري في البحر من السفن التي تحمل النّاس والمتاع بقدرته، كذلك فهو الذي يرسل الرياح لواقح وتبعث المطر، فيحيي الإنسان والحيوان والنبات، ومن خلقه أيضا ما ترونه من السحاب المعلّق بين السّماء والأرض وكل ذلك منفعة وفائدة لهم، فالله سبحانه وتعالى يظهر الدلائل الدالة على وجود النّافع، وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزه عن الحاجة، وكذلك دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم. وفيها أيضا رد على اليهود بقولهم في أن الله سبحانه بحاجة لخلقه حيث قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ

---

128 الأنبياء 30، 33

بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}129 فكيف يجوز في العقل أن يعدل الخالق بالمخلوق الذي لا يضرّ ولا ينفع، فهذه الأرض وما أقلت والسّماء وما أظلت فقد خلقهما النّافع جل شأنه لمنفعة المخلوقين دون استثناء، وخص منهم الإنسان على وجه التحديد لما ميزه بالعقل وفرض عليه العبادات وشرّع له الشرائع كل ذلك من أجل منفعة وفائدة تعود عليه بالخير والسعادة والهناء في الدنيا والآخرة، فالنّافع سبحانه وتعالى جعل المنافع أيضا بما فرضه من عبادات حيث قال تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}130 ففي المشهد العظيم يوم الحج عندما يؤدّي الحجاج هذه الفريضة يحصلون على منافع دينية من خلال أداء فريضة الحج، ومنافع دنيوية بالتعارف مع إخوانهم المسلمين (المستخلفين فيها)، والتشاور معهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وذكر اسم الله في يوم عيد النحر والأيام الثلاثة بعده على ذَبْح ما رزقهم ويسّر لهم من هذه النعم التي يكون فيها منافع مادية ومنافع روحية، فكلوا منها ما شئتم وأطعموا الذي أصابه الفقر والبؤس، فالبائس الشديد الفقر والفقير المحتاج الذي أضعفه الإعسار ليس له غنى، فهؤلاء تعود عليهم المنافع من هذه العبادة التي فرضها الله على العباد لمنفعة كانوا يجهلونها، فاتضح خيرها ونفعها في ممّارستها وتطبقها، ومن المنافع الدينية والدنيوية التي يصيبها الحاج من هذه العبادة ألا وهي العفو والمغفرة والتجارة والكسب في أيام الحج وهو نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة لا يوجد في غيرها من العبادات، وهي منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد، ويجوز أن يكون أي نوع من المنافع الدينية والدنيوية، وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين منافع في الدنيا ومنافع في

129 آل عمران 181

130 الحج 28

الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى وأما منافع الدنيا فما يصيبون من مكاسب معرفية وفضائل حسان بمعرفة الآخر الذي زاد على قوّته قوّة ممّا جعل مظهر الإسلام في الحج استعراض للقوّة المادّية والمعنوية والرّوحية، وهكذا كانت لهم مكاسب البيع والشراء وما يستبدلون، وللسائل أن يسأل أين يكمن دور الخليفة فيما فرضه الله من هذه العبادة وكيف تتضح صفة النّافع النسبية في هذا المجال؟ وللإجابة على هذه التساؤلات لابدّ من أن نذّكر بصفة الخليفة النّافع في عبادة الزكاة التي يجمعها من الأغنياء ويردها على الفقراء وهو أعلم بذلك حيث جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}131 وكون الخليفة على ما ذكرنا من صفات العلم والورع والتقى والفقه وما إلى ذلك فهنا يكون نافعا في تقديم نفقات الحج لمن ليس لديه استطاعة، وتأمين المواصلات وسبل النقل وأمن الطريق في الحفاظ على أرواح حجاج بيت الله الحرام وتأمين مستلزمات المسافر وما يحتاجه، والاستعداد إذا داهم الحجاج مرض أو وباء بتأمين الأدوية والأطباء للعلاج والشفاء فإذا عددنا المنافع التي يقدمها الخليفة في هذه الشعيرة من الشعائر والأجر الذي يناله من الله لا يسعنا أن نقول إلا ما جاء عن أبي حنيفة رحمه الله بعد أن حجّ: "أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص"132 ويدل ذلك على حجم النفع ومقداره الذي يحصل من عبادة الحج ماديا ومعنويا وروحيا في الجانب الإيماني، وهذا يبين لنا أن النّافع جل شأنه جعل النفع متدرجا من الأعلى إلى الأدنى، فالله سبحانه وتعالى نافع مطلقا وتأتي

---

131 التوبة 60

132 تفسير حقّي، ج 7، 397

النسبية بالتدرج إلى الأدنى فالأدنى، حيث الأنبياء والخلفاء، ثم بعد ذلك تتفاوت العباد فيما بينها، ولا يقف أمر النفع من هذا الجانب عند هذا الحد، ولكنّه قبل ذلك يعود عليهم من الأضاحي والنذور حيث قال تعالى: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}133 لقد ذكر النّافع عزّ وجلّ في هذه العبادة منافع إلى أجل مسمى وهي أيام الحج إلا أن هذا النفع مسجل في ميزان حسنات كل واحد منهم يوفي أجره يوم القيامة، وهذا غير النفع المباشر الذي يحصل عليه أثناء حجه من التعارف الاطلاع والتجارة والراحة النفسية حين يصرفوا ما نذروه لله إن كانوا قد نذروا شيئا غير الأضاحي، وعندما يطوفون بالبيت الحرام ليس لهم دعاء غير التوحيد وإعلان الطاعة والتوبة، وطلب الرضا من النّافع جلّ جلاله لينفعهم في الدارين استخلافا ووراثة، فمن يلتزم أوامر الله ونواهيه في حجه تعظيما في نفسه كان ذلك خيرا له في دنياه وآخرته وحصل له أعظم النفع، ولأجل الحصول على النفع العظيم والخير الوفير أمروا أن يكونوا مخلصين لله حريصين على إتباع الحقّ غير متخذين أي شريك لله في العبادة، فإن من يشرك بالله فقد سقط من حصن الإيمان، وتنازعته الضلالات، وعرض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك، وكان حاله حينئذ كحال الذي سقط من السّماء فتمزق قطعا فتخاطفته الطيور فلم يبق له أثر، أو عصفت به الريح العاتية فشتتت أجزاءه، وهوت بكل جزء منه في مكان بعيد، والذي يكون هذا حاله، فإنه لم يفقد النفع فقط، وإنما خسر الدنيا والآخرة، فلذلك كان أمر الله بتعظيم شعائر الحج لما فيها من منافع يعود على أهل الإيمان، لأن من يعظم دين الله وفرائض الحج وأعماله والهدايا التي يسوقها إلى فقراء الحرم، فيختارها عظيمة لا عيب

---

133 الحج 33

فيها فقد اتقى الله، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب المؤمنة، وعلامة من علامات الإخلاص، ودليل على المنفعة التي تعود عليه، ففي هذه الهدايا منافع دنيوية ومنافع دينية، وفي كل ذلك يكون التقرب إلى الله والاتصال به جلّ جلاله، ولذا فلم يقصر النّافع عزّ وجلّ نفعه على شيء دون شيء ممّا خلق خدمة للإنسان، ولكنه جعل النفع عاما شاملا في كل مخلوقاته بشكل متكامل من حيث المنفعة الخاصة للذات المنتفعة بتلك المنافع، وكذلك تبادل المنافع بين تلك الذوات المنتفعة بما سخره النّافع عزّ وجلّ، فقد جعل الله تعالى الأرض بساطا لخلقه وتفضل عليهم بصفة النّافع الذي هو من أسمائه الحسنى، بأن أودع فيها من المنافع ما لا حصر له، حيث أنه سبحانه وتعالى لم يطلب منهم العبادة والطاعة إلا وأمّن لهم مستلزمات هذه العبادة من الرزق والخير الذي يعود عليهم بالنفع وتكفل بكل ما له خير ومنفعة لهم في دينهم ودنياهم حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}134 فالله جلّ جلاله هو النّافع فما خلق الجن والإنس لشيء يعود عليه بالنفع منهم، وإنما خلقهم للعبادة، والعبادة كلها بما فيها من صلاة وزكاة وصوم وحج تعود عليهم بالنفع لما فيها من الفوائد العظيمة. فالله تعالى فجر منابع النفع من الأرض وصبّها من السّماء على الخلق، فهو لا يريد منهم من رزق لأنه غنى عن العالمين، وهو وحده المتكفل برزق عباده، لذلك خلقهم لعبادته تعالى وهم مستعدون لها أتم استعداد ومتمكنون منها أشد التمكين بأكمل وجه لأنه جل شأنه أمّن لهم جميع أسباب النفع، فالله سبحانه وتعالى ليس شأنه مع عباده كشأن السادة مع عبيدهم أو الأجراء مع من استأجروهم، لأنهم

134 الذاريات 56، 58

إنما يملكونهم أو يستأجرونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، والمالك النّافع عزّ وجلّ نفي أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه: ما أريد أن استعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي، وهو توضيح لدفع توهم الحاجة من خلقهم، أي انتفاء حاجة النّافع جل شأنه لخلقه أو كونهم مخلوقين لحاجة، وهذا النفي حتى لا يتوهم أحد ممّا وقع في العرف العام أن الذي يملك لابدّ له من منفعة، فالذين يملكون العبيد أو يستأجرون الأجراء على قسمين:

القسم الأوّل: يتخذونهم لإظهار العظمة بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك.

القسم الثاني: يتخذونهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فكأنه قال سبحانه: إني خلقتهم ولابدّ فيهم من منفعة لأنفسهم فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق لمن خلقهم؟!، فهم ليسوا كذلك، فما أريد منهم من رزق، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت أو طعام وتقديمه لمن يصنع؟، فالنّافع ليس كذلك، وهم ليسوا كذلك أيضا، لأنّه ما يريد منهم أن يطعمونه، فالله سبحانه كرر نفي الإرادتين لأن السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب إذا كان له مال وافر، لكنه يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه، فنفي الإرادة الأولى لا يستلزم نفي الإرادة الثانية فكرر النهي على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذاك، وهذا النفي من باب الترقي في بيان غناه عزّ وجلّ وكأنه قال سبحانه: لا أطلب منهم رزقا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدي السيد فإن ذلك أمرٌ كثيرا ما يطلب من العبد أو الأجير إن كان التكسب لا يطلب منه، فالله سبحانه

وتعالى هو الغني عن ذلك المغني بذلك، ولكونه النّافع أبدا فقد أغنى واستغنى، فبث في هذه الأرض كل حاجات الإنسان التي هي منفعة له سواء ما ينبت فيها من الشجر والفواكه والغذاء كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}135، فمن أجل النفع الذي يعود عليكم خلق جنات وحدائق من الكرم، منها ما يغرس ويرفع على دعائم، ومنها ما لا يقوم على دعائم وخلق النخل والزرع الذي يخرج ثمرا مختلفا في اللون والطعم والشكل والرائحة وغير ذلك كثير، وخلق الزيتون والرمان متشابها في بعض الصفات وغير متشابه في بعضها الآخر، مع أنّ التربة قد تكون واحدة وتسقى جميعها بماء واحد، فكلوا من ثمرها إذا طاب لكم لتنتفعوا به، وأخرجوا منها الصدقة عند نضجها وجمعها لنفع الآخرين، ولا تسرفوا في الأكل فتضروا أنفسكم وتضروا الفقراء في حقّهم، لأنّ الله لا يرضى عن المسرفين في تصرفاتهم وأعمالهم، ذلك أنّ النّافع جل شأنه لم يخصص خلقا دون خلق بالفائدة والنفع، وإنما كان أمر الله بالنفع عاما، ولذلك جعل خلقه منهم نافع لنفسه ونافع لغيره، ومنهم منتفع بغيره نافع لنفسه، وذلك من أجل أن تستمر الحياة وتعمر الأرض على الوجه الذي أمر به النّافع عزّ وجلّ، إذ لا يكمن أن يكون البشر كلهم متساوون وفي درجة واحدة من العلم والفهم والحكمة والحزم والعزم والغنى والفقر والحاجة والاكتفاء، فلو كان الأمر كذلك لتوقفت الحياة، فكانت حكمة النّافع جل شأنه أن يجعل هذا التفاوت بين النّاس حتى في الأشكال والألوان والألسنة حاجة ومنفعة متبادلة حيث قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ

---

135 الأنعام 141

السّماوات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}136 فمن الدلائل على كمال قدرته وحكمته خلق السّماوات والأرض على هذا النظام البديع، واختلاف الألسنة في اللغات واللهجات، وتباين الألوان في السواد والبياض والصفرة والحمرة وغيرها، إن في ذلك لدلائل ينتفع بها أهل العلم والفهم، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح والمنافع، ولم يقتصر نفع الله تعالى لعباده على النبات والزرع، وإنما سخر مخلوقات أخرى لمصلحة الإنسان تدرّ عليه من المنافع ما لا حصر لها، فكل ما يدبّ على ظهر الأرض فيه منفعة للإنسان وإذا ذكرنا قسم منها فهذا لا يعني أن الذي لم نذكره خارج دائرة النفع، وإنما نختار بعض ذلك لتوضيح النفع من النّافع لخلقه في خلقه، وقد جاء ذكر بعض هذا النفع في القرآن الكريم مجملا متداخلان وبعضه منفردا مفصلان فمثال الأوّل كما قال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ ممّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَى ربّك إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَممّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}137 حيث ذكر تعالى منافع هذه المخلوقات جملة لبيان التكثير في النفع وليس لبيان جزئيات ذلك النفع، فذكر هذه الأنواع من الأنعام لفائدتها الجليلة ومنفعتها الكبيرة وللموعظة والاعتبار لما في الإبل والبقر والنعم من المنافع دون تفصيل جزئيات المنافع التي تعود منها، ولو أنه ذكر التنقل والارتحال عليها، إلا أن الصورة التي تظهر إبداع النّافع في

136 الروم 22

137 النحل 66، 69

استخراج النفع بالقدرة الإلهية ما تحار به الألباب من تدبير الخالق المبدع الحكيم، حيث يكون الانتفاع بالسقيا من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبنا صافيا سهل التناول كامل الغذاء والفائدة والنفع سائغا للشاربين، وكذلك من ثمرات النخيل والأعناب التي أنعم بها على الخلق فمنها ما يكون عصيرا مسكرا غير حسن، ومنها ما يكون طعاما طيبا حسنا، إن في ذلك لعلامة دالة على القدرة والرّحمة لقوم ينتفعون بها وينتفعون بعقولهم على إدراك حسن صنعها وإبداعها، وكذلك ألهم ربّك النحل أسباب حياتها، ووسائل معيشتها، فأوحى إليها بأن تتخذ من الجبال بيوتا في كهوفها، ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، ثم هداها النّافع سبحانه وتعالى، لتنتفع بالأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهَّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها ربها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، وهذا الشراب جعله الله تعالى عاما في النفع، ينتفع به البشر جميعا ولم يأت على التخصيص، لأن هناك نفع خاصّ بالمؤمنين كما قال الله تعالى في نفع القرآن الكريم: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}138 فهو شفاء لما في الصدور من الشك والريب، وسبب رحمة وعفو وغفران لمن آمن به، أمّا الطعام والشراب فلم يخص منفعته على المؤمن دون الكافر، وإنّما جاء النفع عاما دون استثناء أحدن وأمّا ما جاء مفصّلا في فائدته ونفعهن والذي سخره الله لخلقه فهو كثير فقد جاء في قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا

138 الإسراء 82

أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}139 فالله سبحانه وتعالى لأنه نافع جعل لكم هذه النعم التي تنتفعون بها وجعلكم قادرين على إنشاء بيوت تتخذون منها مساكن، فجعل لكم من جلود الإبل والبقر والغنم وغيرها منازل تسكنون فيها وتنقلونها في حلكم وترحالكم بخفة وسرعة في أسفاركم، وتتخذون من صوفها وشعرها ووبرها فرشا تتمتعون بها في هذه الدنيا إلى حين آجالكم، وكذلك من نفعه لكم أن منحكم الصحة والعافية التي تنتفعون بها لتكونوا قادرين على استخدام هذه المنافع في تحويلها إلى بيوت ومساكن تطمئنون فيها بأمن وسلام، فكان التنوع في المنافع بما جعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا ومتاعا لكم ولبيوتكم من الملابس والفرش وغيرها، وكذلك من المنافع التي سخرها لكم النّافع جل شأنه هذه الأشجار التي خلقها فكانت ظلالا تقيكم شر الحر، ومن المنافع أيضا هذه الجبال التي تتخذون منها كهوفا ومغارات تسكنون فيها كالبيوت، ومن الصوف والوبر والشعر والقطن والكتان وغيرها تصونكم من حرارة الشمس، أو تلجئون إلى ظل تستظلون به من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها، وكذلك تقيكم ألم البرد على اختلاف مصادرها ومنابتها من الحيوانات أو من الزراعة فكلها منافع لكم من النّافع جلّ جلاله، وكذلك المعادن فالذهب والفضة تتخذون منها الحلي والزينة والحديد تصنعون منه دروعا تصونكم من قسوة حروب أعدائكم، فجعل لكم هذه الأشياء كلها منافع، ليتم عليكم نعمته وتقروا بفضله، لتنقادوا لأمره وتخلصوا عبادتكم له دون غيره شكرا على تلك المنافع التي حباكم بها، وتتجلى

139 النحل 80، 81

صفة النّافع فيما منح الله لخلقه من أشياء ينتفعون بها، في أعظم نعمة وهو الماء الذي جعل منه كل شيء حي، وقد خص النّافع جل شأنه الماء بمنافع لا يضاهيها أي شيء آخر ممّا خلق، وذلك نوع من التكريم لهذا المخلوق حيث قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}140 وأجل من هذا وأعظم في تكريمه قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}141، وأوّل ما يتبادر للذهن عند ما يذكر الماء أنه الحياة، فبدون الماء ينعدم وجود الأحياء، وهذا يعني أنه ما من حي تدبّ فيه الحياة إلا والماء هو سبب لحياته، فهذا النفع لا يخفي على أحد، ولا يمكن لأحد أن يقرنه بنفع آخر من أي شيء، أما أنه سبب في المنافع فهي ممّا لا يكاد يحصيها عدد، ولكن لابدّ ممّا ليس منه بدّ، إذ أننا نأخذ بعض وجوه منافع الماء وأولها قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}142 فعلى الرغم من اختلاف البحرين في الملوحة والعذوبة إلا أنهما يشتركان في منافعهما، فهذا ماؤه عذب فرات بالغ العذوبة بحيث يكسر العطش ويقطعه لشدة عذوبته وحلاوته وسهولة تناوله وسائغ شرابه لسهولة انحدار مائه في الحلق فان العذب لكونه ملائما للطبع تتقبله النفس وتستهويه وتجذبه لشعورها بالراحة والطمأنينة، وهذا ملح شديد الملوحة، ومن كل منهما تأخذون ممّا فيهما من منافع حيث تأكلون لحما طريا

140 الأنبياء 30

141 هود 7

142 فاطر 12

ممّا تصيدون من الأسماك وتستخرجون ما تتخذونه زينة كاللؤلؤ والمرجان، وهذه أولى المنافع التي ينتفع بها النّاس، وأما البحر الأجاج الشديد الملوحة وهو نقيض الفرات، فالحكمة في كون ماء البحر ملحا أجاجا لا يذاق ولا يساغ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان وعلى ممرّ الأحقّاب والأحيان فتهلك من نتنه وتعفنه المخلوقات، ولو كان عذبا لكانت انتفت منه الفائدة والمنفعة، بل على العكس لو كان عذبا لأصبح ضرره لا يحتمل بحيث يؤدّي إلى الهلاك وينتفي نفعه، وأما الأنهار العظيمة العذبة فبسبب جريانها دائما لم يتغير طعمها ورائحتها فان التغير إنما يحصل من الوقوف في مكان، ومن كل واحد من البحرين المختلفين في الطعم، تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية وزينة من اللؤلؤ والمرجان، ورب قائل يقول إن النساء هن اللواتي يتحلين بالزينة فلماذا كان الخطاب يشمل الرجال والنساء؟ فنقول لأن النفع في هذا الاتجاه يشمل كلا من الرّجل والمرأة، ذلك أن المرأة التي تلبس الزينة فإنها تشبع حاجة في أنوثتها وهو جانب يصب في النفع النفسي، والرّجل الذي ينظر إلى امرأته وهي متحلية بتلك الزينة فإنه أيضا يحصل على النفع النفسي من جانب المتعة النفسية أيضا، فلما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينة ولباسا لهم ولذا اسند إليهم، وأما ما يطلب من ركوب البحر من أجل التجارة والسفر والانتقال فهو أكبر من أن تحصى منافعه فترى السفن تجرى فيه شاقة الماء بسرعتها طلبا للمنافع.

فالنفع من النّافع سبحانه وتعالى، لم يتوقف على شيء دون شيء أو على زمن دون غيره ولكنه يكمن فيما خلق الله تعالى من منافع خلقها وسخرها للناس بما شاء أن يكون، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}143 وقبل أن نتناول النفع من الله

---

143 يس 82

النّافع سبحانه وتعالى، وهذا النفع الناتج عن فعل الكينونة، لابدّ من الكلام عن الفعل نفسه، فالله تعالى إنما شأنه في الخلق إذا أراد إيجاد شيء أن يقول له: (كن)، فيكون في الحال، فأمره سبحانه بين الكاف والنون، فإن قال قائل إنما أمره أن يقول له كن فهو يحدث من غير توقف على أي شيء آخر أصلا، فإذا كان المقصود هو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شيء ما، فلا وجه لحمل الكلام على الحقّيقة، إذ ليس هناك قول ولا آمر ولا مأمور، لأن الأمر إن كان واقعا حال وجود المراد تكوينه، فلا وجه للأمر، وإن كان حال عدمه، فالأمر كذلك، إذ لا معنى لأن يؤمر المعدوم بأن يوجه نفسه، والتعقيب والتأخير في فعل الكينونة إنما نشأ من العبارة، وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه وهنا إشارة إلى أن الإرادة الأزلية كما تعلقت بإيجاد المكونات تعلقت القدرة الأزلية على وفق الحكمة الأزلية بالمقدورات إلى الأبد على وفق الإرادة بإشارة أمركن فيكون إلى الأبد ما شاء في الأزل، وبما أن النفع من النّافع وهو خاضع لفعل الكينونة ينسحب عليه ما انسحب على الفعل نفسه، ولتوضيح ذلك فقد قال تعالى: {بَدِيعُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}144 وهنا لابدّ من الاستفاضة بشيء من الكلام لتوضيح العلاقة بين الإرادة والكينونة والنفع، فالإبداع إظهار الشيء لا عن مادة ولا في زمان ولاعن مثال يحتذى، وذلك في إيجاده تعالى للمبادئ وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر، من وجوه ترجع كلها إلى إتمام الشيء قولا أو فعلا وإطلاقه على الإرادة من استعمال اللفظ المسبب في السبب فإن الإيجاد الذي هو إتمام الشيء مسبب عن تعلق

---

144 البقرة 117

الإرادة لأنه موجب في قضى المتعلق بالإرادة، وأما قوله: قضى أي أراد الذي جاء بصيغة الفعل الماضي والذي نتج عنه فعل الكينونة المتضمن للنفع هو ممكن، وعلى هذا فإن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكلّ محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لخالقه لا يملك له ضرا ولا نفعا، ولبيان أن الله تعالى نافع غير منتفع نقول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلو وجد أكثر من واجب لاشتركوا في وجوب الوجود، ولامتاز كلّ واحد منهم عن الآخر بميزات التعين والصفات المختلفة، ولكانوا اشتركوا ببعض الصفات التي لا تقبل المشاركة، كالخلق مثلا وهنا يقع التضارب في الإرادة، فالذي يُشترك به من الصفات غير التي لا تقبل التمايز، فيلزم من صفات الاشتراك، أن تكون مركبة، وكل مُركب متشكل من أجزاء، وكل جزء مفتقر إلى غيره، إذا كل مركب محتاج لسواه، وكل محتاج هو مفتقر لغيره، وكل مفتقر لغيره فهو ممكن الحدوث، وكل محدث يحتاج إلى حادث يحدثهن والحادث الذي أحدث المحدثات انتفت عنه علاقة المنفعة المتبادلة بين المركبات، وبهذا ثبت لله تعالى صفة النّافع أبدا، وانتفت عنه المنفعة مطلقان لأن كل ما سوى الله محدث مخلوق، وأنّ وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أنّ كل ما سواه فهو خلقه وملكه فيستحيل أن يكون شيء من خلقه نافعا له، وهذا يعني أن له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع. ويتجلى هذا التسلسل من النّافع عزّ وجلّ بتدرج المنفعة وانتقالها في خلقه حسب مشيئته من الخصوص إلى العموم في قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}145 إن هذه البشرى التي بشرت الملائكة بها مريم بمولود يخلقه الله بكلمة منه على غير السنة العادية في التوالد، لم تكن مريم عليها السلام تدرك النفع الحاصل من الضّرر الذي سيلحقّ بها من النّاس جرّاء هذه البشرى، فاستنكرت ذلك متعجبة من وجود الولد على غير نظام التوالد بقولها: من أين يكون لي ولد ولم يمسسني رجل؟ فذكر الله تعالى لها أنه يخلق ما يشاء بقدرته غير مقيد بالأسباب العادية، فإنه إذا أراد شيئا أوجده بتأثير قدرته في مراده من غير افتقار إلى موجب آخر، وما جعله إلا رحمة والرّحمة لا تكون إلا في مجال النفع، لذلك صبرت واحتسبت أمرها إلى الله، لأن دلالة البشرى لا تكون إلا في خير ونفع، وقد خلقه الله ذا مكانة في الدنيا بالنبوّة والبراءة من العيوب وهو أعظم خير لحمل النفع ولمن ينتفع منه في الدنيا، وفي الآخرة بعلو درجته مع الصفوة المقربين إلى الله من النبيين وهذا أعلى درجات النفع، وأمّا ما ميزه الله به من خصائص حيث كان يكلم النّاس وهو طفل في مهده كلاما مفهوما حكيما، كما كلمهم وهو رجل سوي، من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة فكان نفعه في مهده وطفولته كنفعه في رجولته، وهذا النفع المتدلي نزولا من النّافع إلى المنتفعين هو من طرق إثبات الصفات الدالة على المتصف بالصّفة، فإذا كان النّافع جل شأنه أسبغ على المنتفع المخلوق من النعم ما يكون به أهلا لنفع الآخرين، فإنّ المخلوق يدل على وجود خالقه،

---

145 آل عمران 45 49

وعلى حياته، وعلى قدرته وقوته، وعلى علمه وحكمته ومشيئته باختياره. فالفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاما ضروريا. لأنّ ما فيه من الإتقان، والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدلّ على حكمة فاعله وعنايته وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدلّ على أن خالقه أكمل منه، فمعطي الكمال أحقّ بأن يكون كاملا وواهب النفع مستغنٍ عنه بالضّرّورة.

فقد وهب النّافع للإنسان الفطرة، ورفده بالعقل ومنحه التفكر، وجمع له هذه الخصال وما هو أكثر منها في نفسه، وبسبب هذه الميزة الظاهرة فضل جميع المخلوقات حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها وهذه الميزة التي له مستفادة بالعقل، لأنّ العقل ينبوع العلم، والعلم أداة وسيلة للتفكر، والعلم والفكر يشد بعضه بعضا، فصواب بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصواب روية الفكرة من صحة الطباع، وصحة الطباع من طمأنينة النفس لأنّ النفس المطمئنة هي أعظم الأنفس نفعا من الله النّافع ولذلك خاطبها عزّ وجلّ حيث قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربّك رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}146 إنّ النفس المطمئنة هي التي نالت أعلى درجات النفع من النّافع، والمنتفع هو الذي أشبع حاجاته فوصل إلى السعادة لذلك وضح الله تعالى بيان سعادة النفس المطمئنة. والاطمئنان السكون بعد الانزعاج وسكون النفس إنما هو بالوصول إلى غاية الغايات في اليقين والمعرفة والشهود وفي قوله تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب}147

146 الفجر 27، 30

147، الرعد 28

تنبيه على أنه بمعرفته تعالى والإكثار من عبادته يكتب اطمئنان النفس الذي فيه أعلى درجات النفع وإذا وصلت النفس إلى مقام الاطمئنان بذكر الله صار صاحبها في مقام التمكين آمنا من الرجوع إلى الأحكام الطبيعية والآثار البشرية.

وعليه، فالذي يعرف مكامن النفع إنما هو الخليفة النّافع بالإضافة المهتدي إليه بعقله وقلبه، لأن العقل بالضّرّورة يعرف أسباب النفع ومسبباته، وفي القلب تكمن السكينة، وهما القوّة العاقلة والضامرة التي تستطيع الترقي، وأنّ القوّة العاقلة إذا أخذت تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكنا لذاته طلب العقل له سببا آخر، هكذا تطمئن القلوب والنفس بذكر الله، فكلما ذكر الذاكرين ربهم جلّ جلاله ازدادوا اطمئنانا، وهكذا ينتقل العقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه معرفة، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات ومنتهى الضّرّورات، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه القلب والنفس، ولم ينتقل عنه إلى غيره، فإذًا كلما كانت القوّة العاقلة ناظرة إلى شيء من الممكنات ملتفة إليه استحال أن تستقر عنده، وإذا نظرت إلى النّافع جلّ جلاله، وعرفت أن الكل منه استحال أن تنتقل عنه، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكره تعالى، وأن حاجات العبد متنوعة ومتعددة ومتطورة إلى النهاية، ولا بقاء ولا قوّة ولا قدرة إلا من النّافع تعالى، فالاطمئنان في الحياة الدنيا هو شعور نفسي بالرضا غير الذي سبق ذكره من اطمئنان الآخرة، ويعود على المطمئن بمنافع كثيرة من الشعور بالارتياح والرضا عما يقول ويعمل، ممّا يولد السكينة والوقار، الأمر الذي يجعله أكثر نفعا، وأكثر النّاس اطمئنانا هو الخليفة لذلك يحمل من الشعور بالارتياح والرضا ومن الهيبة والسكينة والوقار ما يجعله أكثر النّاس نفعا،

ومن هنا كان نافعا بالإضافة، ولو لم يكن الله هو النّافع ما كان الخليفة، ولهذا الخليفة هو النّافع بالإضافة، حيث استمداده قيمة النفع من النّافع المطلق جلّ جلاله، ولما كان الخليفة بما حباه الله من النعم وما أسبغ عليه من الصفات النسبية، فهو إذا نافع بالإضافة لما استخلف فيه من أمور الخلق، ونفع الخليفة هو جزء من التكليف المفوض به حيث أنه يسهم في إشباع حاجات المجتمع على اختلاف منافعها سواء أكانت دنيوية أم أخروية، فالخليفة يكون نافعا بالأمر والنهي والمشورة والرأي الصائب الذي يسهم في الإصلاح أو يؤدّي إليه، وهو بهذا يكون نافعا بالإضافة لأن الله تعالى قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}148 والمراد بسوق السحاب الحامل للماء أنّ الله النّافع يجري المطر إلى الأرض التي قطع نباتها فيخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم، ويأكلون حبه وثمره، لأنه هو الذي ينسب إلى الله تعالى، وأمّا السقي بالأنهار فمنسوب إلى العبد وإن كان الإنبات من الله تعالى، فالنّافع هو الذي يسوق الماء إلى الأرض الميتة فتسقى وتنبت حدائق وبساتين بعد جفاف عودها وزوال المأنوس منها، فيعود عودها مورقا بعد ذبوله فيخرج به زرعا ونباتا ينتفع به، فهذا النّافع وهذه قدرته جل شأنه، وأما الخليفة فإنه نافع بالإضافة حيث يأمر بشق الترع وحفر الآبار ونصب السواني ومدِّ الأنابيب وما إلى ذلك من وسائل النفع التي بها تعمر الأرض ويتم إصلاحها، ولهذا الخليفة مصلح لا مفسد فهو الذي ينفق في أوجه الإصلاح والعمار، ولا يتأخر عن ذلك، وذلك لأنه يعلم أن نتيجة ما ينفقه على الآخرين الذين هم في حاجة يعود عليه يوم الحساب رحمة، قال تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ

---

148 السجدة 27

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}149 ولأن ما تبذلونه من معونة لغيركم ففائدته عائدة عليكم ومنفعته تكون لكم، والله مثيبكم عليه، ويكون الخليفة نافعا في صونه أرواح النّاس وأعراضهم والحفاظ على مصالحهم وتعليم أبنائهم القول الحقّ، ذلك أن العلم هو مفتاح المنافع لما يعود به على المجتمع بأسره، فالمعلم والطبيب والمهندس والعامل كل واحد من هؤلاء يؤدّي منافع متنوعة، وهنا يقوم الخليفة النّافع بتوجيه منافع الله تعالى لأنّ لله عبادا يختصهم بالنفع لمنافع العباد، فنعم الله في أرضه وافرة المنافع.

وبما أنّ العباد لا يصلح حالهم إلا بالتقوى، فقد أوكل الله الخليفة كونه نافعا بالإضافة في توجيه هذا النفع بما يعود على جميع أفراد المجتمع بالخير الوفير، وأول توجيه للخليفة النّافع في هذا المجال يكون في توزيع ملكية الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}150 فالأرض ليست ملكا خاصا لأفراد أو جموع معينة، ولا ملكا حكوميا لحكومة معينة أو مجموعة حكومات، الأرض لله تعالى، ولذا فهي ملك لكل مصلح، ولهذا فالخليفة مصلح لا يسمح بأن يستأثر عدد قليل من الأفراد بأكبر مساحة من الأرض على حساب حاجات الآخرين، وذلك كي لا ينقلب النفع ضررا، ولهذا يكون توجيه النفع من قبل الخليفة بالتوزيع العادل للأرض التي استخلفه الله فيها بشكل يناسب إصلاح النّاس جميعا، ثم يوجه استخدام الملكية حسب حاجة المجتمع في زراعتها مراعيا سدّ الحاجة ومشبعاتها المتطورة

---

149 البقرة 272

150 الأنبياء 105 . 108.

والمتنوعة، فالخليفة يتصف بصفة النّافع النسبية ويؤدّي النفع ويقدمه في جميع مرافق الحياة، فالله لم يترك الخلق غفلة ولا هملا لا في دينهم ولا في دنياهم لشدة ما حباهم به من منافع حيث قال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}151، أي لا تستطيعون أن تحصروا وتحصوا ما أنعم عليكم من المنافع التي سخرها خدمة للناس إلا أننا سنذكر عشر دلائل تتجلى من خلالها المنافع التي شمل بها النّافع عزّ وجلّ خلقه بها، فالله الذي خلق السّماوات والأرض، وأنزل من السّماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وعلى الرغم من جزيل هذه النعم والمنافع، فإن كثيرا من العباد لا يشكرون النّافع على ما أكرمهم به، ومع ذلك فإن الله تعالى كونه حليما رحيم فهو نافع بحلمه ورحمته الواسعة، إذ أجل عنهم الحساب والجزاء في الثواب والعقاب بصفته مؤخرا لأنه نافع حتى وإن تمادى بعض الخلق في الطغيان على سبيل التحدي بقولهم: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}152 وذلك عند سماعهم بتأخير عقاب الله تعالى إلى الآخرة فقالوا ذلك بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب، إلا أن الله الحليم الرّحيم النّافع يؤخر الحساب لتكون الفرصة سانحة أمام من يتوب لتكون المغفرة رحمة واسعة من النّافع على المنتفع، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ ربّك لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ ربّك مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}153 فالذين عملوا

151 إبراهيم 34

152 ص 16

153 النحل 119

السوء تحت تأثير طيش وغفلة عن تدبر العواقب، ثم تابوا من ذلك الذنب، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم، فإن ربّك يغفر لهم ذنوبهم، فالتوبة لا تكون إلا من بعد الانغماس في السيئات والزلات والغفلات، ولهذا فهي تأتي بعد الصحوة من الغفلة والالتفات إلى الطاعات والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله أصلح الله شأنه، ولهذا ينال التائب نفع النّافع من تأخير العقوبة في فسح المجال أمامه ومنحه فرصة العودة إلى الطاعة وطريق الهدى وسبيل الرشاد، وبذلك تعود عليه أفضل المنافع رحمة وشفاء من ضلال، أنه نافع وخير النفع من النّافع ما كان في الآخرة حيث قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}154 فقد وعدهم الله الجنّة خالدين في نعيمها وأعد لهم مساكن تطيب بها نفوسهم في دار الإقامة والخلود، ولهم مع ذلك رضا الله عنهم يستشعرون به، وهو النعيم الأكبر، وذلك هو الفوز العظيم، وكذلك فالله النّافع في الدنيا فإن نفعه في الآخرة كونه المؤخر أكبر فائدة وأعظم نفعا فقد قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجنّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}155 فكانت مكافأتهم عظيمة من النفع الدائم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبلى، وكما كانوا منتفعين من الأرض في الدنيا والتصرف والتمكين ممّا هو يعود عليهم بالنفع، كذلك كان جزاؤهم من النّافع في الآخرة بأن أورثهم الجنّة، حيث دخل المتقون إلى الجنّة جماعات جماعات، وأفواجا أفواجا، حتى إذا بلغوها، وقد فتحت أبوابها،

154 التوبة 72

155 الزمر 73، 74

وقال لهم حفظتها: أمان عظيم عليكم، طبتم في الدنيا من دنس المعاصي، وطبتم في الآخرة بما نلتم من النعيم، فادخلوها مقدرا لكم الخلود، فإن لكم من النعيم ما لا يخطر على بال وهذا هو منتهى النفع، غير أنّ بعض النّاس يصرف وقته وجهده وعمله فيما يسخط الله لكي يرضي بعض النّاس ظننا منه أن أعماله هذه نافعة، مثل الذين يمشون بالنميمة أو يحلفون بالله كذبا ليرضى النّاس عنهم ويشعر أنه انتفع بهذه الأعمال فقد قال تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ}156، فيعتذرون ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم، وبذلك يعتقدون أنهم نالوا النفع. غير أن الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالذي يكون هذا دأبه لكسب المنافع بما يسخط الله تعالى فقد عاد عمله عليه ضررا، فبكسب منافع الدنيا يخسر الآخرة ويسخط الله عليه ويسخط عليه النّاس أيضا، مع العلم أن رضا النّاس غاية لا تدرك، وما أرضى أحد قوما إلا أغضب آخرين، ولهذا رضا الله أيسر، فلماذا الغفلة؟! فهو المستحقّ لأنّ يقصد وحده إذ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء فلا رازق ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلا هو تبارك وتعالى، فكيف يترك الله تعالى ونفعه برجاء كاذب ووهم فاسد ناقص يصيب ويخطئ، وهذا الواهم المنافق الكاذب لو أطلع النّاس على ما في قلبه من الرياء لطردوه ومقتوه، فمن أراد أن ينتفع وينفع الآخرين فعليه أن يتخلق بالفضائل ويترك الرذائل لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبهذا تكون منه المجاهدة في التوجه إلى النّافع جل شأنه لأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}157. فالله لا يظلم أحدا شيئا

---

156 التوبة 62

157، النساء 40

ولا ينقص من أجر عمله ولا يزيد في عذابه شيئا، ويضاعف للمحسن ثواب حسناته مهما قلت، ويعطي من فضله عطاء كبيرا غير مقابل بالحسنات التي يضاعفها وهذا هو النفع المرتجى.

لكن الذي شغل نفسه بطلب رضا النّاس عنه وتحسين اعتقادهم بظنه أنّهم يقدمون له نفعا أو يدفعون عنه ضررا فهو مغرور، لأنّه لو عرف الله حقّ المعرفة علم أنّ الخلق لا يغنون عنه شيئا، وأنّه لا نافع إلا هو جلّ جلاله، ولهذا رضا النّاس صعب لا ينال، ورضا الله النّافع ميسَّر لا صعوبة فيه، إنّه سهل المنال، فمثل هؤلاء كمن يستبدل ما هو أدنى بما هو خير، ولهذا فالخليفة فاز بنيل رضا الله النّافع جلّ جلاله، قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}158. فذلك اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقُهم، لهم حدائق تجرى تحت أشجارها الأنهار، وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدا، يتمتعون فيها برضوان الله عنهم ورضاهم بثوابه، وذلك النعيم هو الفوز العظيم وهو أعلى درجات النفع. غير أنّ الأخذ بالأسباب في الدنيا هو الذي يؤدّي إلى نفع الآخرة، والعمل النّافع ما كان حال التكليف، فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لا ينفعه اعترافه وصدقه وكذلك الجاني المعترف في الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه، فإنه ليس المراد كل من صدق في أي شيء نال النفع.

إنّ الأمور كلها تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق برحمة من الله وفضله حيث قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ

158، المائدة 119

عَذَابٌ عَظِيمٌ}159 فلولا فضل الله ورحمته عليهم في الدنيا بعدم التعجيل بالعقوبة، وفي الآخرة بالمغفرة لنزل بهم عذاب عظيم، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق الذي يؤدّي إلى الكفر، لذلك قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}160 فهو لن ينفعهم أبدا إن استطاعوا أن يملكوه، وإلى ما ينفع في الدنيا ويضرّ في الآخرة، كالتلذذ بإتباع الشهوة، وإلى ما يضرّ في الدنيا ويؤلم ولكن ينفع في الآخرة كقمع الشهوات ومخالفة النفس الهامعة والضالة، فالنّافع في الدنيا والآخرة هو النعمة وما شملت مادية كالمال والبنين إذا وجهت وفق ما أراده النّافع جل شأنه فقد قال الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}161، أي بنفس سليمة من الكفر والمعاصي وإنما أضاف السلامة إلى القلب لأن الجوارح تابعة للقلب فتسلم بسلامته وتفسد بفساده حيث قال صلّى الله عليه وسلم: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"162. فالذين يقولون نحن أكثر أموالا وأولادا فأخبر الله أنّه لا ينفعهم ذلك اليوم لا المال ولا البنون لعدم سلامة قلوبهم في الدنيا وأما المستخلفون فيها فتنفعهم خيراتهم وينفعهم ما عملوا من عملا صالحا. والقلب السليم الذي ينفع صاحبه له ثلاث علامات:

أوّلاها ألا يؤذى أحدا.

159 النور 14

160 المائدة 36

161 الشعراء 88، 89

162 صحيح مسلم، ج 8، ص 290

والثانية ألا يتأذى من أحد.

والثالثة إذا اصطنع مع أحد معروفا لم يتوقع منه المكافأة، فإذا هو لم يؤذ أحدا فقد جاء بالورع، وإذا لم يتأذَّ من أحد فقد جاء بالوفاء، وإذا لم يتوقع المكافأة باصطناع المعروف فقد جاء بالإخلاص، وهذا ما يعود عليه بالنفع في الآخرة. والمنفعة معنوية هي كالعلم وحسن الخلق.

والنفع يندرج تحت باب الخير والنعم، والخيرات تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال، والنّافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال، فالخير كالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ومفضلة عند أهل العلم والحكمة، وأمّا في الشر فكالجهل فإنّه ضار وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالما، ويرى نفسه جاهلا، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة بحيث يشعر بحاجة الانتفاع من العلم، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل وأدرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم فيكون قد بادر إلى النفع، وضروب النفع وأنواعه مختلفة، فرب نافع مؤلم كقطع العضو الضّار من الجسد، ورب نافع قبيح كالأحمق الذي لا يستغنى عنه، وفقدان العقل نافع لمن فقد عقله لأنه رُفع عنه القلم، ورب نافع من وجه ضار، كإتلاف المال لإنقاذ النفس أو إتلاف بعض المال لإنقاذ بعضه، فإنه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها. والنّافع الضّرّوري كالإيمان وحسن الخلق فهما يوصلان إلى سعادة الآخرة وهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما شيء، ثم إن العلم نافع وجميل في كل حال أبدا، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع حيث قال

تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}163 وإن سماه خيرا في مواضع أخرى حيث قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}164، وأمّا قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم كونه نافعا، فإما لعدم الذوق وإمّا لعدم الشوق، إذ الشوق تبع للذوق، وإمّا لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب إتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا فلا يرى فيه نفعا، وإما لقصور فطنتهم، إذ لم تخلق لهم بعد الفطنة التي بها يعرف نفع العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يميز بين التمر والجمر، فلكل منهما منافع ولكنه لا يملك توجيه المنفعة، فالقاصرون عن إدراك منفعة العلم والحكمة ثلاثة، إمّا من لم يحي فطنته كالطفل، وإمّا من مات بعد الحياة بإتباع الشهوات، وإمّا من مرض بسبب إتباع الشهوات وكان في قلبه مرض كما قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}165 إشارة إلى مرض العقل وهذا إنذار من الله لمن كان حيا، لأنّه لم يحي حياة ينتفع بها، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان، غير أن الله تعالى أحياهم حياة لا نعرفها ولم نألفها، لأننا نحن أحياء في الحياة الدنيا وما يحكمها من القوانين الطبيعية والفيزيائية وفق الغذاء والزمان والمكان، ولكن النّافع جلّ شأنه عندما أراد (وهو مريد) مكافأة من يقتل في سبيله نفعه بما لم ينتفع به أحد فجعلهم أحياء عنده جلّ جلاله حيث قال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

---

163 الأنفال 28

164 الكهف 46

165 البقرة 10

أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقّوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}166، فهؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل الله ليسوا أمواتا بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلمها، يرزقون عند ربهم رزقا حسنا لا يعلمه إلا هو، يتألق السرور بالبشر من وجوههم بما أعطاهم الله بسبب فضله من المزايا، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم في الدنيا أحياء مقيمين على منهجهم وبأنه لا خوف عليهم في شيء ولا من شيء، ولا هم يحزنون لفوات شيء يندمون عليه، وبالنتيجة أن هؤلاء قتلوا وماتوا. وصفوة القول في هذا أن الله سبحانه وتعالى كونه النّافع، فكل ما خلقه من شيء إن هو إلا نفع للبشر لأن الله كان بخلقه رحيما، فما من شيء من المأمور بأخذه أو فعله إلا وبه خير ومنفعة للإنسان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا مِمّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}167 وما من شيء منهي عنه إلا لمصلحة الإنسان ولعلم الله أن في النهي والمنع منفعة للإنسان حيث قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربّكمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}168 فهذه المنهيات التي أمر الله تعالى باجتنابها والابتعاد عنها إنما هي من المحرمات التي ينبغي أن لا تقربوها وتبتعدوا عنها لأن الضّرر يكمن فيها، والنفع يأتي من اجتنابها وتركها، فلا تجعلوا لله شريكا، بأي نوع كان من أنواع الشرك

166 آل عمران 169، 171

167 البقرة 168

168 الأنعام 151

وهذا أعظم الضّرر وأبعد ما يكون عن النفع، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحسانا بالغا حتى تبلغوا مرضاة الله التي تنالون بها أعظم المنافع، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله في المستقبل، فلستم أنتم الرازقين لأن الرزاق هو الله النّافع الذي ينفعهم برزقه، بل هو الذي يرزقكم ويرزقهم، ولا تقربوا الفواحش من الزنا والرّبا والخمر التي تؤدّي إلى انتشار الرذيلة التي تجلب الأضرار، وتدحر الفضيلة التي تحمل لكم جميع المنافع فهذه الأمور متناهية في القبح والسوء، سواء ما ظهر منها للناس حين إتيانها أو ما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها لعدم موجبه، إلا إذا كان القتل بحقّ تنفيذا لحكم قضاء يجلب المنفعة، فبديهة العقل وفطرة الإنسان التي جبلت على الخير تقتضي اجتناب ما ذُكر جلبا للمنافع. وبالنتيجة فإن أمور العباد وتصرفاتهم رجعها ومآلها إلى مولاهم ونفعهم وضرهم إلى الله النّافع، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، حيث لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء من محاسن الدنيا وملكها إلا إذا أراد الله أن ينفعه بأن ينال العفو والمغفرة وتشمله رحمة الله تعالى ليكون من الذين انتفع في الآخرة بأسباب ما قدم في حياته الدنيا على الرغم من قلته نسبة إلى الخيرات والنعم والمنافع التي سخرها له النّافع عزّ وجلّ، فالله سبحانه نافع لأنه هو خالق المنافع وهو مصدرها، أي لو لم يكن النّافع ما كانت المنافع، وجميع خلقه تحت رعايته وفي عنايته، وجميع خلقه محتاجون إلى نفعه، وهو غني عن المنافع ومغنٍ بها لما خلق، وإن عمَّ جميع الأحياء إلا أنّه خص الإنسان دون غيره لأنّه نفعه وميزه عن بقية المخلوقات بنعمة (أحسن تقويم) وبذلك استخلفه في الأرض وهيأ له أسباب الخلافة وإمكاناتها بما يعود عليه بكسب النفع الذي يؤدّي إلى حسن الخاتمة.

وعليه فالنّافع هو الذي بيده الأمر والنهي، وهو على كل شيء قدير، وهو مالك الملك، ولذا فهو ينفع بما يملك من أمر وقوّة وقدرة وعلم وحكمة، إنه عالم الغيب والشهادة وهو الرّحمن الرّحيم.

النّافع، هو من يملك المطلق الذي به يتم النفع، ولذا فهو النّافع في الظاهر والباطن، وهو الذي بيد المشيئة، الحياة ومعاشها بضيائها ونورها، والممّات وراحته وسكونه، والبعث وسرمديته ونعيمه. ولهذا النّافع هو من لا حاجة تلاحقّه وهو بمشبعاته يمد حاجات المخلوقين رزقا.

من

صفات النبي أيّوب

1. صابر:

الصّبر صفة جمعت الصفات التي اتصف بها سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، وهي أولى الصفات البدء بها في سيرته لأنها مضرب المثل بين النّاس.

الصّبر يستمد من الله فهو سبحانه وتعالى خالق الصّبر لأنّه هو الصبور، وجميع الأنبياء يستمدون الصّبر من الله بوصفهم عباد لله مخلصين، والله خالق الصّبر يفيض على عباده صبرا ويفرغه عليهم إفراغا حين يتضرعون إليه مستمدين إياه منه مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}169.

فلا نصر إلا بصبر

نصر على العدو

نصر على النفس

على الهوى

على الدنيا

على الشيطان

لذا؛ فالصّبر أثر يدل على إرادة قوية وعزيمة صلبة ورأي سليم وقرار واضح وفعل صائب وعمل دؤوب.

---

169 البقرة 250.

والصّبر الذي هذا وصفه لابدّ أن يكون لمؤمن يستمد الصّبر من الله تعالى، وأيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لم يطلب صبرا من الله تعالى بالرغم من ابتلاءات الله له، وهذا الأمر فيه من العجب الذي يدفع للتساؤل ما الذي دفع أيّوب لعدم طلب استفراغ الصّبر عليه؟

إن الصّبر في الحقّيقة كان ذاتيا في أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)،

إنا

وجدناه

صابرا

فإنّا عندما تصدر من الله توحي بلا شك على القدرة والاقتدار والعظمة والسيطرة وغير ذلك من صفات الجلال التي تُلقي في نفس المتلقي سواء أكان قارئا أم مستمعا الخشوع والضّرّاعة لله رب العالمين.

فهي تشمل تركيب مزدوج من (إنّ) التوكيدية، و(نا) الفاعلين التي توحي بالقدرة والاقتدار من مثل قول الله تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالحقّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ}170، وقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}171.

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا}172.

والفعل (وجدناه) له دلالات منها:

---

170 الحجر 8 – 10.

171 مريم 40.

172 الإنسان 23.

- أنّه ظهر في صبره ما كان في علم الله منه.

- إنّ أيّوب ظهر في الصورة المرجوة منه لأنّه مثل في الصّبر.

على أنّ المعنى الذي يزاحم العقل بصورة مبدئية أن وجدناه بمعنى لقيناه، غير أنّ هذه الدلالة توحي بانّ النتيجة كانت متوقّعة على وجهين:

- سالب.

- موجب.

وهذا السالب في حقّ أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لا شك نقص في صبره.

لذا، نحن نقول:

إنّ وجدناه من الوجد والإيجاد من تجلي الله الواجد بإيجاده منذ البداية صابرا ليس بعد البلاء. لذا، قال الله تعالى (إنا وجدناه صابرا)، فلا يؤثر في صبره شدة بلاء ولا مس شيطان ولا فقد أهل أو ضياع مال، لأنّ الله تعالى أوجده صابرا.

ولأنّ أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم قد استمد صبره من الصبور جلّ جلاله الذي لا يعجل بالمسارعة إلى فعل من قبل استحقّاق فعله، ويقضي الأفعال بقدر معلوم وبسنن لا متبدلة لا يؤخرها عن آجالها المقدَّرة لها ولا يقدمها على أوقاتها، بل يصرف كل شيء في وقته الموقوت له على الوجه الذي يجب أن يكون فيه وينبغي أن يكون عليه.

فلم يطلب من الله التعجيل بفرجه إلا لما مسه الشيطان بالتعب، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)،

وهذا ليس خروجا عن الصّبر لأن البلاء كان من الله، أما إن كان من الشيطان فلابدّ من الاستعانة بالله.

وأيّوب في بلاء الله له كان صابرا كثير التحمُّل دون استعجال ودون يأس يملؤه الأمل فلا يقنط من الرّحمة بالنجاة من كيد الضعيف: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}173، ولكي يزداد كيدا الشيطان ضعفا فلابدّ من الاستقواء بالله القوي، وذلك لإيمان أيّوب أنّ الله خير الكائدين، فلم يزعزعه كيد الشيطان فأيّوب يوقن أن الله هو المكيد الحقّ وبالصّبر ستكون له الغلبة وكشف الضرّ.

والصّبر قوّة وليس ضعفا لأنّه من صفات أولى العزم من الرّسل مصداقا لقول الله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}174، وقوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}175.

وعليه فالصابر يمتلك القوّة الكامنة في الصّبر، فلا قوّة إلا وصبر يمدها، ولذا فالصّبر صفة وفضيلة من صفات الله، ويفرغ منها على المخلوق الذي آمن به ربا صبورا قويا.

ولهذا كان أيّوب مقتديا في صفاته بصفات خالقه لم يجزع بل صبر على ما ابتلي به. وأيّوب استعان بالله وبالصلاة والصّبر لأنه من المخصوصين بذلك مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصّبر وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}176.

173 النساء 76.

174 الأحقّاف 35.

175 الروم 60.

176 البقرة 153.

ونتيجة الصّبر معية الله ومن يكن في معية الله فلا معية للشيطان معه ولا سلطة له عليه لأنّه مع الله، والشيطان ضعيف وكيده ضعيف فكيف يكون له قدرة على إلحاق الأذى بمن هو في معية الله ولاسيما إن كان موجَدا على الصّبر من قبل الصبور موجد الصّبر والصابرين.

وعليه فالصّبر أصبح مضرب مثلا لصفة النبي أيّوب، الذي استمدّ صفته من الصبور المطلق جلّ جلاله؛ وهو: مصدر لكل صبر، يستمدّ الصّبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه جلّ جلاله، ولذا فالصّبر دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنّه المستمدّ من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

والصّبر في حقّ الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته جلّ جلاله هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، قال تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}177، فصبره دائما على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف والنون ولكنه يُمهل ويصبر بشكل متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك، وكيف يكون ذلك وهو المنزه عن كل نقص أو عيب من شأنهما أن يسببا أي ضعفٍ أو خلل؟

وكل شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدرّه الخالق مسبقا مع التوافق بسرعته في تسيير الأمور، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا

177 البروج 16.

خلل فيها ولا عيب، فمثلا نجد أن الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته، وفي أحيانٍ أخرى يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا، وكأنه عزّ وجلّ يدلنا على أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمده منه جلّ جلاله.

فالصبور تبارك وتعالى يعلّمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هذا العطاء، ويُشعرنا بهيمنته الكاملة على كل شيء في الحياة والكون بصفة عامة، وأن بيده كل الأمور يقلّبها ويدبّرها حسب علمه المطلق وحكمته البالغة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}178، إذن هو الصبور بالرغم من استطاعته وقدرته وقوته على كل شيء مطلقا فهو الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة، وصبره نابع من ذلك الكمال كله، ولو تأملنا جيدا في هذا الاسم لوجدناه الخير كله يجمعه ويوزعه على الخلق بكرمه ورحمته وحكمته، بالرغم من أنه يصبر على العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرى قد ينزّل عقابه سريعا ويرسله كعبرة للبشر وموعظة، قال تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}179، وهنا صفة الصّبر لا تنتفي مع تنزل العقاب والعذاب ليكي يُحدث التوازن في إحقّاق الحقّ والانتقام من الظالمين الذين لن يرتدعوا بأية وسيلة، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم، قال تعالى: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}180، فعلمه المطلق عزّ وجلّ والمسبق أدرك مسبقا أن الخير

---

178 يس 82، 83.

179 هود 67، 68.

180 القمر 42.

والنفع للعباد سيكون على هذا الشكل، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويُظهرون.

الصبور: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكل شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}181.

الصبور جلّ جلاله في صبره إبداع، وفي إبداعه صبر عظيم، فهو الخالق المبدع لكل شيء منذ أمره بنشأة الحياة والكون، فهو سبحانه دائم الخلق والإبداع حيث أنّه الخلاق، قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 182، فكم من أعدادٍ للبشر جاءوا ورحلوا عن هذه الأرض؟ وكم من أنواع للنباتات والدواب والطيور جميعها كانت سواء في الفناء، فنستشعر هنا بالصبور الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، إذ أنه بواحديّته المختص الأوحد في فعل كل ذلك سبحانه الأحد الصمد، الذي لا يشاطره أي شيء آخر في قدرته وخلقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السّماوات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}183، ففي الآية الكريمة السابقة جعل الله تعالى قدرته على الخلق دون تعبٍ أو مشقة درسا ومثلا لتعليمه أنبيائه ورسله الصّبر على صعاب الأمور، وكأنه يقول للبشر ما

---

181 الروم 60.

182 يس 81. 83.

183 ق 38، 39.

هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هذا الكون؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب، فعلى الخليفة الذي استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابرا على أموره وثابتا لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق.

ولله المثل الأعلى: فالإنسان عادةً ما يقوم بعملٍ ما أو يكون مسؤولا عنه نجده في يومٍ من الأيام متذمرا منه ضائقا به، ولابدّ أن تمر عليه لحظة يشعر فيها بالملل والتعب والضجر منه، فيؤثر ذلك على سير عمله بالاختلال أو النقص، فيضطر للاستعانة بغيره لمساعدته على ضبط العمل والعودة إلى سرعة الإنتاج وتجاوز الخلل الذي سبق وأن حدث، لكنّ الخالق عزّ وجلّ منزه عن كل نقصٍ أو عيب أو خلل فلا يكابده التعب أو الضجر لقدرته الكاملة لاستيعاب كل شيء في آن واحد، فهو الصبور بقوته ومتانته وجبروته عزّ وجلّ، فنلاحظ اجتماع أكثر من صفة في حقّ المولى عزّ وجلّ، حيث أنه:

. ذو الجلال والإكرام الصبور المستمر في الخلق والإبداع وإحقّاق الحقّ بعدله المطلق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}184.

. المنتقم من الظالمين على مر الزمان، قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}185.

. الرّحيم بعباده دون انقطاع لهذه الرّحمة، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}186.

184 يونس 44.

185 إبراهيم 47.

186 البقرة 163.

. الودود الذي لا يمل من تقديم الود والحب لعباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}187.

. الغفور لذنوب عباده المذنبين، فلا يتعب من كثرة ذنوبهم ولا يملل من الغفران وقبول التوبة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}188.

. الخالق في استمراره الدائم للخلق ومراقبتهم وتسجيل أعمالهم تجسيد عظيم للصبر، فقد قال عزّ وجلّ: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}189.

إذن فالخالق الصمد هو وحده الصبور في ملكوته على القيام بكل شيء وباستمرار دون انقطاع أو خلل، فكيف لا يلجأ إليه العبد الضعيف الذي لا تنقطع حاجته إليه جلّ جلاله.

فالله هو الصبور وهو الواحد الأحد وهو الملجأ الوحيد لكل عباده، فلا يكون مثله أحد في صمديته وواحديّته، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}190، فقد يسّر الله كل هذا الكون لخدمة خليفته في الأرض، فكان هذا النسق وهذا النظام البديع في الكون بأسره، قال تعالى: {لَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى

---

187 البروج 14.

188 الملك 1، 2.

189 الأنعام 59.

190 الإخلاص 1 . 4.

مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}191، فبهذا يختص سبحانه وتعالى بالوحدانية التي ترتبط بالصّبر لذلك فهو الصبور لقيامه وحده جلّ جلاله بكل ذلك وبالشكل المتقن الدائم المستمر، كلّ عمل يتناسب والوضع والزمان والمكان ومن هنا نستطيع القول أنّه الصبور في أحكامه لأنه يعلم كيف وأين ومتى يفعل وينفذ، ولا شيء ولا أحد يستطيع أن يغيّر شيء قدّره الواحد الأحد.

إنّه الصبور على ما يقولون وعلى ما يفعلون، وصفة الصّبر تنبع منه أساسا جلّ جلاله، حيث أن كل شيء إيجابي وكل ما هو حقّ وكل ما هو جميل، منبعه منه أولا وأخيرا عزّ وجلّ.

وتكمن صفة القوّة في الصّبر، حيث أنّه لا قوّة بلا صبر، ولا صبر إلا عند قوي متين، فالصّبر الحقّيقي يكون متحدا وملازما للقوّة، تلك القوّة التي تحتاج إليها عملية الخلق، فكان حقّ لله على خلقه توحيده وعبادته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}192.

والصبور في حقّ الله له أكثر من دعامة يرتكز عليها منها:

1- صبره عزّ وجلّ عن قوّة وقدرة مطلقين:

فصبر الخالق المطلق على عباده يدعمه القوّة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكل شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ

191 الملك 3، 4.

192 الذاريات 56 . 58.

فَيَكُونُ}193، فمن يملك كل هذه القدرة بالتأكيد هو بغنى عن كل ما خلق وصوّر، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السّماوات وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}194، فبما أنه عزّ وجلّ الغني عنا فهو القوي القادر على كل شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزا أو ضعفا أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته.

ولكن بالرغم من قدرته المطلقة إلا أنه صبورٌ على أخطائهم مفسحا لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها إذ أنّه عزّ وجلّ لا يمكن أن يظلم أحدا بسبب خطيئة غيره، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}195.

2- صبره عن علم لا عن غفلة:

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}196، فالله تعالى ينتفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلاهي عن أيّ أمر، وصبره لا يعني أنه غافلا عما يفعله العباد وطول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة جلّ جلاله وعلمه اللذان يقدّمان ويؤخرّان الأمور حسب مشيئته وإرادته عزّ وجلّ، فالغفلة تتنافى مع علم الله المطلق بكل شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافعٌ وضار بهم.

---

193 النحل 40.

194 لقمان 26.

195 الأنفال 33.

196 إبراهيم 42.

وفي الآية الكريمة السابقة توضيح لعدم غفلة الله بدليل تحضير العقاب المناسب لهم والذي استحقّوه بظلمهم، فمن كان على علم بالعقاب كيف يكون غافلا عن العمل المستحقّ لهذا العقاب؟

الله جلّ جلاله بعلمه المسبق والمطلق على علمٍ بكل شيء لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السّماء، لهذا فقد كان جزاؤه وعقابه حاضرين وهذا يدل على انتباهه لأصغر وأدق الأمور، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السّماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرّحيم الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السّماوات وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}197.

3- صبره عزّ وجلّ على عباده لا يعني إسقاط العقاب:

العقاب قائم بإذنه تعالى على من يستحقّه كما سبق وأخبرنا الله تعالى بذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}198، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}199، إذن

197 سبأ 1، 5.

198 آل عمران.

199 آل عمران 90، 91.

فالعقاب قائم رغم عدم وقوعه عليهم في الدنيا بصبر الله تعالى عليهم، ولكن هذا الصّبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهذه العقوبة.

فقد حذّر الله تعالى عباده من العقاب الشديد الذي ينتظرهم جزاء ما اقترفوه من ذنوبٍ وشرور وفساد، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}200، وهذا تأكيد على أن العقوبة قائمة رغم الصّبر عليهم، فلا يلغي الصّبر على كفر الكافرين العقاب الشديد، الذي يستحقّونه دون نقصٍ أو زيادة.

بذلك لابدّ أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأنّ صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضا لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: {وربّك الْغَنِيُّ ذُو الرّحمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ}201، أما الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعورا يحرّك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدّي به إلى اليأس والإحباط.

من مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالى على عباده، منع الله تعالى للطبيعة عن معاقبة الكافرين، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ

200 البقرة 174، 175.

201 الأنعام 33.

مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}202، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السّماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السّماوات وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}203، فما الذي يمسك عقاب الطبيعة للمجرمين؟

واسم الله الصبور على الخلق جميعا مسلمهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، ثائبهم ومذنبهم، فقد اجتمع البشر مسلمهم وكافرهم، وفقيرهم وغنيهم، وصحيحهم ومريضهم في الابتلاءات لكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصّبر الذي استحقّ الثواب.

2 . مرحوم:

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، فَقَالَ: الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ، مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ لَا يَرْحَمْ، لَا يُرْحَمْ"204

---

202 إبراهيم 46.

203 فاطر 40 . 42.

204 مسند أحمد ط الرسالة، 16، ص 393.

فالذي يرحم متصل بلا شك بالله الرّحيم يستقي منه الرّحمة ويستمدها في كلّ حين فهو مازال يرحم نفسه برحمة الآخرين إلى أن يكتب عند الله الرّحيم مرحوما.

وهكذا، كان أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم في علاقاته مع الآخرين من المستهدفين بالدّعوة يصبر لهم، وعليهم، ولنفسه.

والرّحيم: مبالغة في الرّحمة بفعل دائم لها، فعندما يُمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنّه لا ينقطع، يظهر مدى استمداد الاستمداد الامتدادي الموصول غير المقطوع من الله الرّحيم دائم الرّحمة.

فكل أفعال الله تُحمل في هذه الصّفة (رحيم) ومن يتحلى بها من العباد ممّارسة وسلوكا يكون راحما مرحوما.

والرّحمة عند الرّاحم الرّحيم المرحوم قيمة.

والرّحيم المستمدّ الرّحمة من مصدرها فاعل لهذه القيمة، وخير فاعل لقيم الرّحمة الرّسل جميعا عليهم الصلاة السلام من آدم بدءً ومرورا بأيّوب وانتهاءً بالرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلَّم الذي تجسدت الرّحمة في أقواله وأفعاله، فكان بالمؤمنين رءوفا رحيما، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}205.

رحيما على نفسه وعلى الذين تربطه بهم علاقات رحمة، قال تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

205 التوبة 128.

شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}206.

وهذه الصفات لا شك منسحبة على أيّوب صلّى الله عيه وسلّم الذي رحم بالله ورحم من الله.

وأيّوب مرحوم لأنّه طلب الرّحمة من الرّحيم المطلق(الله) فكان مرحوما وأدخله الله في رحمته مع جمع الأنبياء المرحومين (وكلهم مرحومون) مصداقا لقوله تعالى: {وأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}207.

وهنا تبدوا ملامح استنزال رحمة الرّحيم على المرحوم من خلال ما فعله المرحوم أيّوب صلّى الله عليه وسلّم.

- نادى ربه.

- ذكر ما حدث له (مسني الضرّ).

- تخصيص من تستمد منه الرّحمة (وأنت ارحم الراحمين).

النتيجة:

-الاستجابة له.

206 الفتح 29.

207 الأنبياء 83 – 86.

- رحمته.

- كشف الضّرّ عنه.

- أتاه الله أهله ومثلهم معهم رحمة من الله الرّحيم.

- جعل رحمته لأيّوب ذكرى وعظة للعالمين (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).

- أدخله الله في رحمته مع الأنبياء المرحومين وكلهم مرحومون (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

والمرحوم هو الذي يلين قلبه ويهش وجهه ويعرّف قوله: (قول معروف خير من صدقة تتبعها أذى) وهذا للحقّ وللخير.

والمرحوم الذي يتوجه بكله إلى الرّحيم عندما تستشكل الأمور عليه فيلجأ إلى أرحم الراحمين كما فعل أيّوب (وأنت أرحم الراحمين).

والمرحوم من استقى الرّحمة من مصدرها وتحلى بها فعلا وصفة فتزيّا بالرّحمة ثوبا ليفرغ الله رحمته عليه ثوابا.

- والرّحمة كانت أملا لأيّوب سعى إلى بلوغها باستمدادها من الرّحيم ولم ييأس لما أصابه من نصب وعذاب.

وقهر اليأس الذي يقطع العلائق بين المرحوم والرّحيم لاستمداد الرّحمة منه فنادى ربه أني مسني الضّرّ، مع كون اليأس لم يخالجه في أي وقت كان.

ولما قهر اليأس في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع ترعرعت في نفسه نبتة الأمل التي دفعته للتعلق بمصدر الرّحمة الالتصاق بها والنهل منها.

فلولا أن أمل أيّوب كان بالله ما تحقّقت الرّحمة وما كان مرحوما.

ولولا علم أيّوب بالرّحيم المطلق ما تحقّق الأمل.

ونقول:

إن الله الرّحيم ممد لكل رحمة.

ووراء كل أمل مرحوم.

وبعد كل نداء للرحيم تأتي رحمته سبحانه وتعالى.

3- أوّاب:

الأوّب طاعة الله إخلاصا وعبادةً، والتزاما ومداومة على أدائها دون انفصال لما عهد أن يصله بالمآب إليه في كل وقت وحين وعلى جميع الأحوال، وبأوجه الأفعال التي يفعلها الأواب دوما ليكون موصوفا بالأواب صفة وفعلا وذاتا.

والأوّاب هو الراكع الساجد لله دون غيره، تأوب العبد تعبَّدَ وأخلص الطاعة لربِّه عزّ وجلّ.

والأواب في اللغة على معانٍ منها:

. العائد من الذنب بعد استغفار وتوبة متحقّقة.

. الطائع لله تعالى ركوعا وسجودا دون غيره.

. المسبِّح باسمه تعالى عبادة خالصة.

. كثير الرجوع لله في كل أمرٍ مستوجب الرجوع به.

. كثير الذكر.

والأوّاب هو المؤتمر بما أمر الله والمنتهي عمَّا نهى عنه، والمتجنب لما يجب تجنبه، والدائم الرجوع إلى الله دون أن يبتعد عنه ولو في لحظة واحدة.

والأواب كثير الرجوع إلى الله عزّ وجلّ من دون ارتكاب الذنوب، فهو من يدعو ربه أمام أي ذنب بِنيَّةٍ صادقةٍ وهو يقول: (أعوذ بالله من اقتراف الذنوب) لأجل أن يجنبها الله إياه ويُحفظه من ارتكابها وحتى من الزلات التي تقوده إليها.

ولذا:

فالأواب هو التائب من الذنوب دون فعلها.

المطَهِّر لنفسه من محاولة ارتكابها بتجنب أسبابها.

- الطائع لله تعالى حبا وعرفانا.

- المصلح في الأرض غير المفسد فيها ولا سافك دما بغير حقّ.

- الذاكر لله فعلا وقولا والمسبح بأسمائه تعالى.

وقد وصف الله تعالى سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم بالأواب في قوله تعالى: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

ومن هذا الوصف الإيجادي المفطور عليه أيّوب كان أوابا مُخلصا لله ربّ العالمين راجعا إليه لا عن ابتعاد بل لمزيد قرب لا يشرك به في دعائه وأوبه إليه مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}208.

208 ص 44.

- والأواب المتقرب لله دوما وهذا يتضح من تعلق أيّوب بربِّه جلّ جلاله في جميع الأحوال بإظهار طاعته لله بقوله دائما (رب إني) مقدما ربه على نفسه تأدبا في دعائه.

وأوب أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم غير منفك عن صفات سابقة اتصف بها فهو نعم العبد في:

- أوبه لله.

- طاعته لله.

- صبره.

- إصلاحه.

- ندائه لله.

- وجد الله له منذ البداية أواب له (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب).

فأيّوب صلّى الله عليه وسلَّم قد فطر على هذه الصفات التي منها (الأوب) بالعبادة الدائمة حسب ما تقتضيه في شريعته ورسالته.

وفي صبره على ما هو عليه وما فيه من بلاءات تمحص إيمانه ليظهر منها ما هو منعم به عليه من الله وجدا بالفطرة.

ولنا أن نتساءل:

أليس الأوب رجوع؟

أليس الرجع عن بعد؟

هل أيّوب ابتعد عن الله حتى يرجع إليه؟

نقول:

إنّ الأوّب رجوع وعودة إلى نقطة قد فارقها الأواب بعد أن غادرها لأيّ سبب، وهذا على المستوى البشري العادي للذين هم غير مفطورين على الأوب لله.

أمّا في حال سيدنا أيّوب فهو صلّى الله عليه وسلّم لم يغادر أصلا ما فطره الله عليه إلى غير ما فطره عليه.

وإنّما كلّما زاد أوبا ازداد قربا لربه تعالى عودا إليه ورجوعا إلى نقطة القرب الأخص من الله، وهنا يتحقّق فيه ما أوجده الله عليه من الأوّب ويستحقّ مدحا بأعلى أساليب المدح الرّباني (نعم العبد إنه أواب).

ونقول:

-الأوب قرب.

-وليس بعدا من بعد قرب.

-وليس رجوعا من بعد بعُد.

-وإنما قرب زيادة في قرب.

وذلك مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ}209.

فطوبى الجنّة

وحسن مآب أعلى درجاتها

209 الرعد 28، 29.

والأواب المقترب من الجنّة

وما عند الله خير للذين اتقوا رجوعا عليه في كل أمورهم ودعوه مخلصين له وعبدوه غير مشركين به شيئا وهذا أمر من الله.

ولو كان الأوب رجوع من بعد بُعد لصار تعارضا واختلافا كبيرا بين هذا المعنى وبين نصوص القرآن الكريم التي من مثل قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ}210.

فالأمر من الله:

بعبادته وحده

عدم الإشراك به تعالى

الدعوة إليه

الدعوة له

الأوب إليه

ومآب الله جنته ورضاه للمؤمنين به من رسل وصالحين.

ومصداق قولنا هذا في قوله تعالى: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}211.

وهذه الآيات ملتصقة بقصّة سيدنا أيّوب في سورة ص والتي وصفه الله فيها كما وصف داود وسليمان بأنّه أواب.

---

210 الرعد 36، 37.

211 ص 49 – 54.

فالأواب صفة إيجابية وليس فيها أي جانب سلبي كما كان مفهوما من غنها تعني كثرة الرجوع، وكأنها عودة من بعد ردة.

ولكنها عودة مستمرة في اتجاه رضا الله الذي عنده حسن مآب (طوبى ورضاه)، أما من لم يتصف بهذه الصّفة الحميدة فماذا اعدّ الله له؟

أعدّ له شر مآب لأنّه ليس أوّابا وذلك في قوله تعالى: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ}212.

ربنا اغفر لنا واجعلنا من الأوابين وأدخلنا في حسن مآب وأصلح لنا نفوسنا واجعلنا ممّا انطوت عليهم كلماتك الحسان: {ربّكمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}213.

4 . موهوب:

إنّ هذه الصّفة التي اتصف بها سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم مثيرة للعقل الباحث عن الحقّيقة لذا سنتناول وهب الله لأيّوب بأنّه وهب بلا سبب وبدون دعاء، وان طلب الوهب سنة الأنبياء والصالحين، وتعريف الوهب من الله والفرق بينه وبين التبرع على المستوى الإنساني.

فنقول وعلى الله اعتمادنا:

212 ص 55 – 61.

213 الإسراء 25.

إنّ وهب أيّوب يبدأ من وهبه لله النبوّة والأهل وكل النعم التي تقلب فيها من قبل الابتلاء، دونما سؤال منه بأي منها، ودون عوض لله على وهبها، ووهبه نعما أكثر وأعظم من بعد الصّبر على الضّرّ والمس.

وموهوب اسم مفعول تدل على من وقع عليه الوهب، كما تدل على أنّ هناك واهبا جعل من الموهوب موهوبا بعد هباته له التي لم تكن لولا وهبه هو بداية.

والموهوب في سيرة أيّوب معلوم ذاتا وهبة، والواهب ليس مجهولا لأنّه لا واهب سواه بالمطلق جلّ جلاله وتقدست أسماؤه سبحانه المسئول هبة في كل لمحة ونفس.

والذي وهب لأيّوب وهبان مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}214.

- أهله.

- مثلهم معهم.

فكيف كان ذلك الوهب وهنا تثار تساؤلات منها:

- هل الوهب اشتمل على الموات من أهله؟

- هل هم عادوا أحياءً؟

هل الوهب بالبركة في الباقين؟

ومن أين جاء المثل الثاني؟

214 ص 43.

وللإجابة على هذه التساؤلات نرى ما قيل في كتب التفاسير:

- "قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم"215.

أنّ الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية وأهله الذين ماتوا وهو في البلية، ويرى الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله وعافي المرضى وجمع عليه من تشتت منهم. وقيل وإليه أميل (الآلوسي) وهبه من كان حيا منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى {وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ} فكان له ضعف ما كان216.

ونحن لا نرى رأي الحسن وقتادة رضي الله عنهما لأنه ينافي العقل ولم يثبت بنص ولم يذكره القرآن الكريم.

وكذلك لا نذهب إلى ما ذهب إليه الجمهور لأنّه يرى ما رأى الحسن وقتادة قبل ذلك. ونوافق الألوسي بأنّ الوهب في الأحياء بالبركة والتناسل، مع بقاء احتمال أن الله أحياهم له فهو على كل شيء قدير.

غير أن الوهب في حياة سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لم يقتصر على ذلك بل تعداه فالصّبر وهب والصلاح وهب ونعم العبد وهب.

وطلب الوهب سنة الأنبياء من قبل أيّوب ومن بعده وكذلك دأب الصالحين والمؤمنين.

215 تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 7، ص 75.
216 تفسير الألوسي، ج 17، ص 357.

واختص الله به أيّوب أنّه وهبه ذلك الوهب دون أن يسأله بالتحديد أهله ومثلهم معهم.

ونحن وفي هذا المقام وسيرا على نهج الأنبياء والصالحين لا نقدر على دفع ألسن الضّرّاعة من أن تلهج للواهب الوهاب أن نقول: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}217.

وطلب الهبة من الله سنة الرّسل والصالحين مصداقا لقوله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}218.

فبانعدام الذرية بأسبابها المعلومة لا تنعدم حينئذ أسباب الهبة من الذرية الطيبة الموهوبة إذا دعا الموهوب طالبا الهبة من الوهاب (الله).

ونقول: إن كلّ ذرية هي وهب بأسبابها المعلومة أو الموهوبة لأنّ الأسباب المعلومة للذرية ما هي في حد ذاتها إلا هبة من الله الواهب مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}219.

---

217 آل عمران 8.

218 آل عمران 38 – 40.

219 الشورى 49 – 51.

فالوهب عطاء بلا أسباب، والجعل بقاء على الأسباب وإن لم تتحقّق أسباب الجعل بقي المجعول على أصله لأنّه لا يملك من الأسباب شيئا.

والمتأمل في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}220.

فالمني من الأسباب ولكن السبب لا يخلق لأنه مخلوق، والذي يعلم هذا يعود إلى خالق السبب لا إلى السبب مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}221.

وقول سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: و{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} 222.

ونتساءل:

ما الهبة؟

وهل هناك من فرق بين هبة الخالق وبين هبة المخلوق؟

وهل المخلوق يملك هبة في الأساس؟

وهل من علاقة بين التبرع والهبة؟

---

220 الواقعة 58، 59.

221 الفرقان 74 – 77.

222 الصافات 100، 101.

الهبة لغة وشرعا وتعريفا: "الهبة في اللغة" التبرع وفي الشرع تمليك العين بلا عوض"223.

ونقول:

هذا التعريف اللغوي يتسق والدلالة البشرية، أما في العرف الرّباني فإن الله لا يتبرع بل يهب، لأن التبرع فعل من يخشى على باقي ما تبرَّع به.

أمّا الواهب فهو يعطي بلا حساب لأنه خالق الموهوب والموهوب له وكلاهما هبة منه فهو العزيز الوهاب.

وينتفي في حقّه العوض لأنه الغني بذاته المغني لغيره.

فهل الغني المغني يحتاج إلى عوض أو يأتي في فكر من يعبده العوض ولو على سبيل الفكر دون إظهاره.

فوالله إنّ خزائنه مملوء فلا تنفد مصداقا لقوله تعالى في الحديث القدسي "قال الله: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته عليكم محرما، فلا تظلموا العباد، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، فاستغفروني، فإنّي أغفر لكم الذنوب جميعا ولا أبالي، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، وصغيركم وكبيركم، كانوا على قلب أفجركم، لم ينقص من ملكي شيئا، ولو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، وصغيركم، وكبيركم، سألوني فأعطيت لكل رجل منهم مسألته، لم ينقص ذلك ممّا عندي شيئا، كرأس المخيط يغمس في البحر"224.

---

223 التعريفات، الجرجاني، ج 1، ص 319.

224 المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، ج 11، ص 182.

ووهبه في قوله وقوله لا ينفد قال الله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}225.

الوهب بالمطلق لا يكون إلا من الوهّاب جلّ جلاله ومع أنّ الواهب بالمطلق هو واحد أحد إلا أن الموهوبات منه تتعدد وتتنوع في غير محدودية لأنه على كل شيء قدير.

- الهبة هي عطاء الواهب بطريق الإنعام والتفضل على سبيل التكريم وليس بمعنى العِوض والجزاء الموافق لأعمال الموهوب له لأن ذلك ما يتناسب مع الوهب الإلهي، أمّا ما هو على سبيل العوض فهو يتناسب مع الجانب الإنساني ويتنافى مع قدرة الوهاب جلّ جلاله.

وأمّا الوهب فإنّه لا يتقيد بأجل أو زمان أو مكان ولا يكون جزاء عمل أو فضيلة سبقت من الموهوب له لذلك فالوهب هو: "العطية الخالية عن الأعواض والأغراض فإذا كثرت سمي صاحبها وهابا"226.

وهذه الصّفة وهابا لا تنطبق بأية حال من الأحوال إلا على الله الذي قال في كتابه عن نعمه على جميع خلقه بلا استثناء: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}227.

- فالكل موهوب بشكل عام.

- والأنبياء موهوبون بشكل خاص.

- وسيدنا أيّوب موهوب بشكل أخص.

---

225 النحل 40، 41.

226 لسان العرب، ج 1، ص 803.

227 إبراهيم 34.

- لأنّ أيّوب يتفق مع العام والخاصّ.

فهو من الكل الموهوب هبة عامة، وهو من الخاص الموهوبين هبة خاصة بالنبوّة والرسالة والوحي وغير ذلك ممّا اختص الله به أنبياءه، وهو في مرتبة الخص لأن الله أوجده موهوبا فلم يسأل الله هبة ما أعطاه له من أهله ومثلهم معهم.

كان ذلك الوهب مترتبا على نعمة الإيجاد المثبتة نصا في قوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}228.

والوَهُوبُ: الرّجل كثير الهبات. والهبة: العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبُها وهابا"229.

وفي منهاج الحلمي الوهاب: هو "المتفضل بالعطايا والمنعم بها لا عن استحقّاق عليه"230.

قال ابن سيده: الوهاب هو من "وهب كل شيء وهبه وهبا، ووهوب ووهابة كثير الهبة لأمواله"231.

وقال الإمام الطبري: الوهاب هو معطي عباده التوفيق والسداد للثبات على الدين وتصديق الكتاب والرّسل وهو من يهب لمن يشاء من مُلك وسلطان وغيره232.

---

228 ص 44.

229 لسان العرب المحيط، ج 3، ص 990.

230 المنهاج للحلمي، ج 3، ص 125.

231 ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج 5، ص 231.

232 الطبري، ج امع البيان، ج 3، ص 125.

أمّا الإمام الغزالي فقال: "الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض فإذا كثرت العطايا بهذه الصّفة يسمى صاحبها جوادا وهابا"233.

ويقول الخطابي: الوهاب هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة234.

الوهَّاب كثير العطايا وهو من يعطي ولا ينتظر من وراء ما يُعطي شيئا. ولو كان ينتظر شيئا لاستوقف ما يهبُ حيث لا أحدا لديه ما يعطي للمعطي المطلق، وذلك لأنّه لم يكن من الذين خُلقوا على الحاجة؛ فلو كان لا يعطي إلا بمقابل لاستوقف عطائه عن كل الذين أعطاهم ولم يعطوه شيئا، ولو كان الأمر كذلك لاستوقف عطاءه عن الذين كفروا به وأشركوا؛ فمقابل ماذا يهبُ لهم الرزق والبنين والملك والعلم، هل يُعطِهم هذا لأجل أن يشركوا ويكفروا به؟

ـ أم من أجل أن يعبدوه؟

ـ أم مقابل ماذا؟

نقول:

لم يكن بمقابل. ولكن لأنّهم خلقه وعباده كما جاء في قول عيسى صلّى الله عليه وسلَّم في قوله تعالى: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}235.

---

233 أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص 57.

234 شأن الدعاء للخطابي، ص 53.

235 المائدة، 118.

وهذا لا يعني أنّهم سيتركون هكذا، بل لإعطائهم الفرص فهو يُمهل ولا يُهمل مصداقا لقوله تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}236.

ولذا فإنّ الوهّاب المطلق: هو الغلاّب المطلق، الذي لا يقدر على مغالبته أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه؛ فهو الغالب بهباته ألاّ محدودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا، ورزقه المطلق وكل صفاته الحسنى وأفعاله الحسان. إنه الذي يهب الحِكمة والحكم، والعلم والرزق، وكل شيء لمن يشاء، ومع أنّه يعطي كل ذلك إلا أنَّ البعض يكفر به ويُشرك. قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}237.

في هذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من ربّه لأن يُثبت قلبه على الإيمان ولا يحيده عنه، ومع أنّ هذه الآية سابقة على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان هذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين هذا الدعاء لله الوهّاب الذي يهب الرّحمة على من يشاء دون مِنَّة ولا انتظار مقابل.

وإزاغة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحقّ، فالبعض بعد موت الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولُّو وارتدُّوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكُفر، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلى الطريق المِعوج. ولأنه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح ممّا جعل أبو بكر

236 الطارق، 17.

237 آل عمران 8.

يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمَّه الرّحمة هبة من الله تعالى، وذلك لإيمان الداعي بأنه تعالى هو واسع الرّحمة مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}238.

فهب لنا، تعني: أمنحنا وارزقنا عطاءً من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. ومن (لدنك) تعني: من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إنّك أنت الوهاب) تأكيد على أنّه لا وهَّاب غيره، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة؛ وتدلّ على الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد على عدم قصد الغير (إنك أنت) ولا سواك. فأنت الوهاب: واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانك لا إله إلا أنت الوهاب.

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو يحسن التصرف فيها، ممّا يجعله متميزا على أقرانه أو متميزا في جيله؛ فيدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب، ويعمل بمهاراته المتنوعة على إظهاره من فكرة إلى موضوع ليشغل به حيزا ويملأ به فراغا حتى يستمده الآخرون من بعده.

وبما أنّه موهوب، إذا فمن ورائه وهَّاب، وإلا من أين جاءته المواهب؟ ولذا؛ فالوهاب مصدر الهيبة التي جاءت في اللغة من المصدر

238 غافر 7.

يهب. ولأنّه الوهاب فهو يهب لمن يشاء ما يشاء، ممّا يجعله هو الآخر يهب مما وهب إليه الوهاب الأعظم، ولهذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من الوهَّاب المطلق حتى أصبحت قيمة بين المستخلفين من العباد في دائرة الممكن غير المتوقّع.

قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ ربّك الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ}239، في هاتين الآيتين جاءت (أمّ) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاءا على ما يقوله المشركون من كبائر ويفعلون، فما هي حجّة هؤلاء فيما يقولون على الله ورسوله؟ وأيضا فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أربابا من دون الله تعالى وهي من تراب ولا روح فيها، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب؟

فهل هؤلاء وما يدَّعون يملكون خزائن الرّحمة التي مفاتيحها عند الله العزيز الوهاب حتى يقولوا ما يفترون؟

فهؤلاء وما يعبدون من دون الله لا يستطيعوا أن يخلقوا بعوضة ولو اجتمعوا، ولذا لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم وأريد به لأن يرث الأرض ويُستخلف فيها، ولا يسفك الدماء بغير حقّ، ويتقي الله ربه، أن يتخذ مع الله إلها آخر.

ولذا، فالوهَّاب هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء بدون توقُّع إذا ما استثنينا الأنبياء والرّسل الذين تمتد عقولهم في دائرة الممكن لتمُسَّ المتوقّع وغير المتوقّع اللذين يخترقهما الله بعلم الغيب.

وفيما يتعلق بالأمر المتوقّع لا تحدث المفاجآت إذا ما وقع الأمر أو حدث، بل المفاجآت والاستغرابات تقع إذا وقع ما هو غير متوقّع وفقا

239 ص 9، 10.

لحسابات العباد، ولذا فالعباد المؤمنين برسالة محمّد يتوقعون دائما إعطاء الزكاة وأخذها من قِبل من هو في حاجة، وهكذا الصدقات تعطى في دائرة الممكن المتوقّع لمن هم في حاجة إليها؛ وهكذا يدخل الصوم والصلاة والحج في دائرة المتوقّع في المجتمعات المؤمنة. أما ما يَهِبَهُ الوهَّاب تعالى فهو الذي يحدث في الزمان والمكان غير المتوقّعين ممّا يجعل المفاجآت والاستغرابات مصاحبه له في عقول العباد إلا الحامدين الشاكرين الطائعين المدركين بأنه علَّام الغيوب ومفرّج الكروب من حيث لا يحتسب.

وعليه: فالهبة فعل محض ولا تقع إلا بعلم الوهَّاب الذي يملك الأمر الذي إن أصدره وقال له كن، فيكون، ومع ذلك بما أن الوهاب اسم وصفة، إذن فاستمداد هذه الصّفة لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقّع.

فإذا عُدنا لنميز بين ما يُعطى فيؤخذ، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر (كن) نقول: الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتى يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما ممّا يجعلهما يقعان معا في دائرة الزمن المتوقّع. أما الرّحمة فتوهب ولا تعطى كما هو حال الزكاة والصدقات، ومع أنّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنّها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقّع.

وبالنسبة للوهَّاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضا يهب لمن يشاء ما يشاء بإذن الوهاب الأعظم والسبب لأنّه يستمد صفة من صفاته الحسنى التي خلقه عليها في أحسن تقويم. وأمَّا ما يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حقّ في الزمن غير المتوقّع، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهدا ليبرأ أو يُدينه من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة

أعطيت للعدل ولقول الحقّ، وهكذا الحال مع من ينقذ غارقا أو مظلوما أو يعتق عبدا ويحرره دون انتظار مقابل.

وحظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصّفة الحسنة أن يهب الطاعة مخلصة لله تعالى، وأن يهب الطاعة للوالدين في غير معصية الله، حتى أنه يخفض لهما جناح الذل من الرّحمة، وأن يهب الطاعة للحقّ والعدل وأفعال الخير الحسان، وأن يهب الاحترام للآخر ولا يجادله إلا بالتي هي أحسن.

وحظ الخليفة من أسمه الوهاب أيضا: أن يستمد منه الفضيلة في العطاء غير المحدود جُهدا أو فكرة أو قولا أو مالا، ودون مقابل عائد منتظر، وألا يخلط أمر ما يتصدق به من صدقات وزكاة مع ما يهبه وهبا دون منَّة منه أو انتظار ثواب عاجلا أم أجلا.

فالعبد الوهاب هو المستخلف بالإيمان الذي يُمكّنِه من أن يعطي ولا يمنن، ويعطي ولا ينهر، ويعطي ولا يندم، ويعطي ولا ينتظر ممن أعطى شيئا عاجلا أو أجلا، وأن يستثمر مواهبه التي وهبها إليه الوهاب الأعظم فيما يفيد العباد ويحقّق لهم الأمن والسلام ويجعلهم على الوحدة والمحبَّة والمودة والوئام لا على الفُرقة والشقاق والصدام.

وعليه: فالمواهب التي يهبها الوهاب الحقّ لبعض من عباده لا ينبغي أن تطمس أو تُجحد، بل يجب أن توهب للآخرين وتنقل مع المعارف والعلوم لتنمي قدراتهم واستعداداتهم فيما يفيد وينفع ويترك أثرا طيبا بين النّاس.

ولذا؛ فالوهاب هو الذي وهب لنا الحياة وهو الذي سخّر لنا الفُلك تجري بأمره في البحر بما ينفع النّاس، ووهب لنا الماء فجعل منه كل شيء حيا، ووهبا لنا الرزق وجعلنا المنفقين منه، وهو الذي أرسل

الرياح مبشرات ليذيقنا من رحمته التي وهبنا منها رحمة، وجعل الرياح والسحاب مسخرات بين السّماء والأرض لقوم يفقهون، وأحل لنا ما تشتهيه الأنفس من ثمار وشراب ولحم طير وصيد بر وبحر، ووهب لنا من أنفسنا أزواج ورحمة لنسكن إليها، ووهب لنا ذرية صالحة وفضل كبير.

وعليه فإنّ أيّوب عليه السّلام هو موهوب من الوهاب الأعظم جلّ وعلا؛ وهنا وجب علينا أن نستقرأ المطلقية من اسمه الوهّاب جلّ جلاله، فهو الذي إن وهب بث المطلقية فيه حيث لا يعترضه عارض ولا يحول بينه حائل حتى النهاية، أو أن ينزعه منه نزعا إن دخل الحكم الموهوب منه في دوائر الفساد، ولذلك فهو يؤتي الحكم لمن يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}240.

وقد يتساءل البعض: عن السر الذي من وراء قوله (لا ينبغي لأحدٍ من بعدي)؟ السر إنه يريده مُلكا لا يزول إلا بزواله، أي ربط بقاء الملك ببقائه وزواله بزواله، فإذا ما وهب له الله ملكا فلا يأمل أن ينزعه عنه أو منه نتيجة إيمانه بأنّه قادر على أن يؤتي الملك لمن يشاء وعلى أن ينزعه ممن يشاء مصداقا لقوله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء).

وقوله أنت الوهاب: تعني لا غيرك قادر على أن يستجيب لهذا المطلب أو هذا الترجي والأمل، ولوجود الأمل في قلب سليمان قال أنت الوهاب أي لا شك لي في أنك لا تهب لي مُلكا لا يكون لأحدٍ

240 آل عمران، 26.

من بعدي، وهذا لا يعني أن سليمان يعلم بعلم الغيب، بل يعني وثوق الإيمان في قلب سليمان عليه الصّلاة والسّلام.

ومع أنّ غالبية العباد المراد استخلافهم في الأرض يقصرون تفكيرهم على ما هو متوقّع إلا أنّ القلة والذين منهم سليمان لا يقصرون تفكيرهم في دائرة الممكن المتوقّع فقط، بل يمدونه إلى دائرة الممكن غير المتوقّع. ولهذا كان الإيمان راسخا في قلب سليمان بأن الوهاب الأعظم إنّ دعوته مخلصا له الدين استجاب لك بتوبةٍ أو غفرانٍ أو هدايةٍ أو يُهِبُكَ رحمة ممّا هو أكبر. ولهذا دعاه بما هو أكبر فاستجاب له الوهّاب الأكبر بأنّ وهبه ملكا لم يكن لأحدٍ من بعده.

الوهّاب هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء بدون توقُّع إذا ما استثنينا الأنبياء والرّسل والصالحين الذين تمتد عقولهم في دائرة الممكن لتمُسَّ المتوقّع وغير المتوقّع اللذين يخترقهما الله بعلم الغيب.

وفي ما يتعلق بالأمر المتوقّع لا تحدث المفاجآت إذا ما وقع الأمر أو حدث، بل المفاجآت والاستغرابات تقع إذا وقع ما هو غير متوقّع وفقا لحسابات العباد، ولذا فالعباد المؤمنين برسالة محمّد يتوقعون دائما إعطاء الزكاة وأخذها من قِبل من هو في حاجة، وهكذا الصدقات تعطى في دائرة الممكن المتوقّع لمن هم في حاجة إليها؛ وهكذا يدخل الصوم والصّلاة والحج في دائرة المتوقّع في المجتمعات المؤمنة. أما ما يَهِبَهُ الوهّاب تعالى فهو الذي يحدث في الزمان والمكان غير المتوقّعين ممّا يجعل المفاجآت والاستغرابات مصاحبه له في عقول العباد.

وعليه: فالهبة فعل محض ولا تقع إلا بعلم الوهّاب الذي يملك الأمر الذي إن صدره وقال له كن، فيكون. ومع ذلك بما أن الوهاب

اسم وصفة، إذن فاستمداد هذه الصّفة لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقّع.

فإذا عُدنا لنميز بين ما يُعطى فيؤخذ، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر (كن) نقول الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتى يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما ممّا يجعلهما يقعان معا في دائرة الزمن المتوقّع. أما الرّحمة فتوهب ولا تعطى كما هو حال الزكاة والصدقات، ومع أنّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقّع.

وبالنسبة للوهَّاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضا يهب لمن يشاء ما يشاء بإذن الوهاب الأعظم والسبب لأنه يستمد صفة من صفاته الحسان التي خلقه عليها في أحسن تقويم. وممّا يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حقّ في الزمن غير المتوقّع، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهدا ليبرأ أو يُدينه من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة أعطيت للعدل ولقول الحقّ. وهكذا الحال مع من ينقذ غارقا أو مظلوما أو يعتق عبدا ويحرره دون انتظار مقابل.

يُحكى أن الشبلي سأل بعض أصحاب أبي على الثقفي رحمه الله فقال: "أي اسم من أسمائه يجري على لسان أبي علي أكثر؟ فقال الرّجل: اسم (الوهاب) فقال الشبلي: لذلك كثر ماله"241.

241 مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 467.

قال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}242. أي من كل ما دعوتم وطلبتم وهب لكم وأعطاكم، و(من كل ما سألتموه) تدل على أشياء أربع:

الشيء الأوّل: أنّه يملك أكثر ممّا سألتموه، وهو لم يعطكم إلا ما سألتم،

والشيء الثاني: أنه يملك أشياء أخرى وأنتم لم تسألوه عنها.

الشيء الثالث: ولأن باب العطاء لم يقفل ما دمتم تسألوه، فإن سألتم ومتى ما تسألون سيأتيكم ممّا تسألون سواء بالمزيد ممّا سألتم منه تعالى، أو ممّا لم يسبق لكم أن سألتموه عنه جلّ جلاله.

الشيء الرابع: ولأن سؤالكم محدود بالنسبة لما يملك فإن باب الهبة هو الآخر مفتوح فسيهب لمن يشاء منكم ما يشاء ممّا لا تتوقعون.

أمَّا قوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها) النعمة جاءت مطلقة، غير متناهية بحدود ولذلك مهما ظن العبد بأنه استكثر على ربه العظيم سؤالا فهو لم يسأل إلا القليل فليسأل فباب رحمته لا يُسد ولا ينضب.

ومها ظن الإنسان أنه فكَّر في كل شيء أو قادر على أن يُفكر في كل شيء سيجد نفسه غافلا وقاصرا عما يفاجئه في الدائرتين الآتيتين:

دائرة علم الغيب:

هي الدائرة التي لا يعلمها إلا هو حيث مهما فكَّرنا فلن نفكر فيما لم يكن لنا به علم أو دراية. قال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي

242 إبراهيم، 34.

خَزَائِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ}243. تحتوي هذه الآية على اعتراف المؤمن العالم بعلم الغيب الذي لا يعلمه. أي أنه يعلم بما أعلمه الله به بأن هناك بعث وحساب وثواب وعقاب وغيب، ولكنه لا يعلم بما سيكون حيث ما سيكون من عند الوهاب هو علم غيب مصداقا لقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}244. فنحن نعلم بأن الساعة آتية، ولكننا لا نعلم متى، ولا نعلم الكيفية التي ستكون عليها أو تأتي لنا بها، ولذا لا نعلم بما لا نعلم، فالذي يعلم بما لا نعلم هو العليم الحكيم.

دائرة الممكن:

الممكن هو الذي (لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلما توفرت معطياته أو شروطه).

ولهذا لا يعد الممكن مستحيلا، ولأنّه غير مستحيل فهو سيقع بطبيعة الحال وفقا لما نتوقع أو وفقا لما لا نتوقع. فما يبدوا متوقّعا من شخص ما قد لا يكون كذلك من شخص غيره

فالإنسان مهما توقَّع سيجد نفسه قاصرا على أن يتوقع كل شيء ممّا خلق مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}245. وقوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}246 في اعتقادنا الذين لا يؤمنون بهذا الأمر الذي تحتويه هذه الآية الكريمة لا يعدونه أمرا متوقّعا. أمّا بالنسبة للمؤمنين فيعدونه أمرا متوقّعا في دائرة الممكن،

243 الأنعام، 50.

244 الأنعام، 59.

245 النحل، 17.

246 ياسين، 81.

وذلك لأنّ الوهّاب الأعظم وهب لعباده المؤمنين المعرفة الإعجازية التي جعلتهم يسلِّمون بأمر المقدرة الإلهية المطلقة، ولذا فهم يؤمنون بأنه قادر. أي بما أنّ الله تعالى خلق الأرض والسّماوات العلا إثباتا، إذن بطبيعة الحال من يقدر على خلق الشيء يقدر على خلق مثله عددا، وذلك لأنّ الأمر لا مستحيل بالنسبة له، ولم يعد صعبا بل إن كانت هناك صعوبة أو استحالة وفقا لما نفكر به على مستوى العقل البشري أن تكون في الخلق الأوّل. فقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}247. تدل على أنه قادر على خلق أي شيء، حيث لا شيء أعظم خلقا من خلق السّماوات والأرض التي في عددها تتماثل مع السّماوات السبع مصداقا لقوله (ومن الأرض مثلهنَّ). وعليه الصعوبة والاستحالة أن تخلق الشيء أو تصنعه، ولا صعوبة أو استحالة في أن تضاعفه عددا.

مكونات دائرة الممكن:

دائرة الممكن تتكون من (المتوقّع وغير المتوقّع) وفقا للآتي:

المتوقّع:

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب).

ولهذا معطيات حدوث المتوقّع أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين، ممّا يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه إذا وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب والدهشة.

والمتوقّع يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا.

---

247 الطلاق، 12.

الموجب المتوقّع: كطاعة الوالدين، وإظهار الزكاة في وقتها والتصدق بأنواعه؛ فبالنسبة للمسلمين هذه من المتوقّعات الموجبة مثلها كمثل الإخلاص في العمل، والتمسك بالعبادة والقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية.

السالب المتوقّع: الغش على سبيل المثال وتطفيف الميزان وشهادة الزور وأكل أموال النّاس بالباطل والسرقة بشكل عام، والاغتصاب وغيره من السلوك السالب المتوقّع.

غير المتوقّع:

هو الذي لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاثة ومع ذلك قد يقع، ممّا يجعله في حالة تساوي نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن، ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا، يقع (غير المتوقّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو يقع نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (كما هو) إثباتا.

وعليه، ينبغي أن يتم التعرف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبباته لاحقًا ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق.

فغير المتوقّع يمكن أن يكون موجبا ويمكن أن يكون سالبا، فمن الموجب غير المتوقّع على سبيل المثال: من كنت تعتقد بأنه سيخونك كان أول من حمى ظهرك عندما تعرضت للخطر.

أما السالب غير المتوقّع أن تجد من كنت تعتقد أن يكون حاميا لظهرك أول الخائنين لك.

ولذا فالممكن ليس بمستحيلٍ.

المستحيل: هو الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزّمن. ولذا فإنّ كلّ ما هو غير مستحيل يقع في دائرة الممكن.

وعليه:

. لا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

. لا كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

لذلك على من يراد له أن يكون خليفة في الأرض ألا يغفل عن إظهار مواهبه وفقا للقاعدة (كل ما ليس بمستحيل فهو ممكن).

ولذا فإن المستحيل من اختصاصات الخالق.

أما الممكن من اختصاص المخلوق.

الممكن له معطيات وله مؤشرات، ويقع في الزمان والمكان كلما تهيأت له الظروف المناسبة لظهوره.

إذن الممكن ليس مستحيلا.

وبما أنّ الممكن ليس بمستحيل.

إذن حظ الخليفة من الاسم الوهاب هو:

. أن يُفكّر حتى يكتشف مواهبه، ويخطط ويعمل بلا تردد.

. أن يتأكد قطعا للشك أن كل شيء ممكن.

. لا ييأس إن فشل في المحاولة الأولى لإظهار مواهبه.

. أن يُقيِّم ما يقوم به من جهد حتى لا يستمر في الخطأ وهو لا يدري.

. أن يكرر المحاولة باجتياز ما وقع فيه من أخطأ.

. أن يثق بنفسه أنه قوّة فليقبل بتحدي الصعاب.

. ألا يلحقّه شك في مواهبه التي وهبها له الله تعالى وأن يتمسك بالحقّ قولا وعملا وأن يتحدى الصعاب فهي الهشة التي لا تصمد أمام المتوكلين على الوهاب الأعظم.

. أن يثق بأنّه لا وجود للمستحيل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

ولذا فإنّ القاعدة هي: (كل ما هو متوقّع وغير متوقّع ممكنا).

بما أن كل ما هو متوقّع وغير متوقّع ممكنا. إذن بالنسبة لبني الإنسان فالممكن مؤسس على قاعدة. وغير الممكن مؤسس على استثناء وذلك نتيجة اختصاص الوهاب المطلق به.

ولهذا فالمتوقّع استقراء وفق حسابات أو معطيات أو مؤشرات. أمّا غير المتوقّع فهو المتاح لمن لم يضعه في خانة الاستثناء.

وعليه:

لو لم يكن المتوقّع في دائرة الممكن، ما كان لأحد أن يتوقعه.

وكذلك لا يمكن أن يحدث أو يظهر غير المتوقّع، ما لم يكن في دائرة الممكن.

وبما أنّ كل شيء ممكن، إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب: لحدوث أو ظهور غير المتوقّع، بدلا ممّا هو متوقّع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان.

لذا: فالعبد الذي يفكر في المتوقّع فقط، في معالجة الظواهر أو المشاكل، قد يواجهه غير المتوقّع فعليه أن يفكر مرتين قبل أن يقرر.

فعلى سبيل المثال: قيل لأحد الأصدقاء أنّ الشيخ الفلاني أو العلامة الفلاني أو عالم علوم الفقه والدين الذي تعرف عنه كل خير قد قَدِمَ على أفعال لا أخلاقية مع أحد أقاربه قبل خمس سنوات من هذا العام، فأجاب على الفور وبكل سرعة. هذا ليس ممكنا. أنا لا أصدق. وطلب الدليل والبرهان.

مع أنّ الأمر قد وقع قبل خمس سنوات من هذا التاريخ إلا أنّ صديقنا لا زال لم يُصدِّق، وبالنسبة له وكأن الأمر لم يقع بعد. وعندما أثبت له دليلا وبرهانا قاطعا دخل في دائرة الاستغراب وكأنه لم يُصدِّق.

وعليه:

. فكِّر في المتوقّع.

. فكِّر في غير المتوقّع.

. خطط في دائرة الممكن.

. لا تستغرب.

. تطلّع فإن كل شيء ممكن.

ولذا فالوهَّاب بالإضافة مهما امتلك من المواهب فهو على المستوى البشري يؤمن بالقاعدة التي تقول: (لا تتاح الأشياء للمخلوق

إن لم تكن ممكنة) وفي مقابل ذلك يؤمن بالقاعدة التي تنص على أنه (لا مستحيل على الوهّاب المطلق) فكل شيء بالنسبة له ممكن.

هذا صحيح. ذلك لأنّ المخلوق هو محدود المقدرة.

أمّا الوهاب المطلق فهو القادر على كل مطلق. ونحن بني الإنسان لا نخلق مستحيلا، ولكننا نؤمن بأنه لا يخرج عن دائرة الممكن بالنسبة للوهاب تعالى، ويخرج عنها بالنسبة للوهاب بالإضافة.

وعليه فالمستحيل يُخلق عن الخالق الأعظم، والنظر إليه والتفكير فيه وبلوغه يحدث في دائرة الممكن من قبل المخلوق الأفضل. ولهذا يقول الله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}248

ولذا فإنَّ الموهوب لا يغفل عن دائرة الممكن والتفكير فيها، والعمل وفقا للقواعد التي تحتويها أو تتضمنها أو تشير إليها، حيث لا مستحيل في كل أمرٍ ممكن.

وعليه يعمل الموهوب على الآتي:

. إظهار الممكن.

. إنجاز الممكن.

. بلوغ الممكن.

. التخطيط وفق الممكن.

. التطلُّع وفق الممكن.

---

248 الغاشية، 20.

وبما أن كل شيء ممكن.

إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب هو حدوث غير المتوقّع في الزمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان، وعليه يجب على المؤمن أن يضع في حسبانه كل ما هو ممكن حتى لا يفاجأ. فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل لو لم يكن ممكنا، ما كان البحث عنه. ولهذا البحث عن العمل ممكنا، والحصول عليه ممكنا. وأيضا عدم الحصول عليه ممكنا. هذا الأمر هو المتوقّع؛ لكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل، فهذا الأمر بالنسبة لك غير متوقّع.

أمَّا في دائرة المستحيل على المستوى البشري فإنه من غير الممكن أن:

. نأتي بالشمس من المغرب.

. ندمج الشمس في القمر.

. يطير الإنسان من غير جناحين.

. نفكر إن فقدنا عقولنا.

. ومن غير الممكن أن نحيي الموتى.

وقد يتساءل البعض: ما الفرق بين الممكن والمستحيل؟

– الممكن، قابل للإثبات والاكتشاف، أي أنه في حاجة لمن يثبته ويبرهن على معطياته ومبرراته. ولذا فهو قابل للإثبات والنفي والرفض،

والظهور والكمون والشك والمقارنة والثبات والاهتزاز، وقابل للدراسة والبحث والتقويم.

أما المستحيل فمثبت. وهو الذي نعلم به ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم بيوم الحساب ولكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر يعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنّه موجود إلا أنّه لا ينفي.

. عندما يكون اليوم السبت فإن الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا ولكن قد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه إذا صدر له الأمر كن من عالم الغيب.

إذن المستحيل: هو الذي لا يمتلك العباد أمره حيث خروجه عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا.

إذن المتوقّع وغير المتوقّع هما اللذان يقعان من قِبل المخلوق أو من طرفه. والمستحيل هو الذي يقع من قبل الخالق.

ولذا فكلاهما يحدث، وفقا لتوقعاتنا. إلا أنّ الممكن يتحقّق بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا على فعله.

وعليه المستحيل نتوقعه ولكن وقوعه من خارجنا أمّا الممكن نتوقعه ويحدث من داخلنا.

بناء على ما تقدم هل يمكن لنا أن نفرق بين الصّعب والمستحيل؟

الصّعب فعل يُنفي ويُثبت، ولهذا فهو ممكنا، وبالرغم من أنه ممكنا إلا أنه ليس سهلا. ولذا فهو في حاجه لبذل الجهد، مع إعطاء الزمن الكافي والإمكانات الكافية. والمستحيل هو الذي لا يتحقّق وذلك لانعدام مقومات وجوده أو إثباته.

وعليه: من المستحيل أن يكون الإنسان إلها. ومن الصّعب أن يصبح الإنسان عالما.

وبما أنّه من الصّعب أن يصبح الإنسان عالما، إذن فمن الممكن أن يكون.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[249]. أي كيف يمكن له الولد وامرأته عاقر لو لم يهبه الله إياه؟ ولذا قال: (وهبنا له إسحاق) للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء، للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولد له من بعده هو يعقوب عليه الصّلاة والسّلام. (وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب) تدل هذه الآية الكريمة على أن النبوّة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاءها من بيت واحد، إلا من بعده حيث أصبحت النبوّة والرسالات في ذريته عليهم جميعا الصّلاة والسّلام. وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبيا مثلما إبراهيم نبيا وكذلك جعل من يعقوب حفيدا لإسحاق ونبيا. إذن الفرع

249 العنكبوت، 27.

الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصَّهم الله باصطفاء الأنبياء منهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}250. فآل إبراهيم هم الذين يؤولون إليه في حالتين:

الحالة الأوّلى: أنّهم من صلبه.

والحالة الثانية: أنهم من دينه مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}251 وقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}252.

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آلا بيته وهم:

آل عمران وآل ياسين، وآل موسى وهارون، وآل داود، ومحمّد. قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}253 وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح وآل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل موسى وآل هارون وآل داود ثم ذكر أهل البيت في هذه الآية فكان المقصود به نساء الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وكذلك لم يبق له ولد ذكر حتى يَنجب ممّا يدل على انقطاع الاصطفاء من بعد محمّد الذي يعود كما يعود الأنبياء من قبله إلى آل بيت إبراهيم. وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم وهم الذين أسلموا لله ربِّ العالمين.

250 آل عمران، 33.

251 آل عمران، 95.

252 آل عمران، 67.

253 الأحزاب، 33.

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت ينبغي أن يتوفر فيه شرطان:

الشرط الأول: أنّه من الذين يؤولون إلى إبراهيم دما.

الشرط الثاني: أنّه من الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام حيث إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما. ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهم الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}254، والسر من وراء بناء البيت هو طمأنة قلوب المؤمنين وتأمينهم من كل خوف وذلك لأنه بيت توحيد لا بيت شرك، ولهذا فالتوحيد يؤدّي إلى الاطمئنان ويحقّق الأمن والشرك لا يحقّق إلا الخوف قال عزّ وجلّ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}255 وقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}256.

ولأنّ ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لا ينقطع فقد أضاف (وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة من الصالحين) أي أنه كسب الدنيا بما عمل دعاءا متصلا مع الأنبياء والصالحين والذين هم يؤمنون بقوله جلا جلاله: (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما).

---

254 البقرة، 127.

255 البقرة، 125.

256 قريش، 3، 4.

قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}257 فلما هاجر إبراهيم من أجل دينه وحيدا وهب الله تعالى له ولدا هو إسحاق، ووهب له ولد ولدٍ هو يعقوب عليهما الصّلاة والسّلام حتى لا يكون وحيدا وبقيت النبوّة فيهم إلى الرسالة الخاتمة التي وهبها الله تعالى رحمة لمحمّد عليه الصّلاة والسّلام، وبقيت الرسالة هداية للعالمين وبقي البيت لله وحده مثابة وآمنا.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}258 وذلك استجابة لسؤال موسى عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}259 لذا كانت الاستجابة هبة من رحمته على موسى عليه الصّلاة والسّلام.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}260. فالوهّاب المطلق مثلما وهب هارون لموسى عليهما الصّلاة والسّلام وهب سليمان لداود عليهما الصّلاة والسّلام، وبالتالي بما أن باب الوهب مفتوح لمن يصدر الأمر له رحمة من الرّحمن الرّحيم فلا يستطيع أحد من العباد غلقه. وبهذا الوهب سينتصر الإسلام حتى يعم المعمورة وحينها يثق الإنسان بأنه في الأرض خليفة.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا

---

257 مريم، 49، 50.

258 مريم، 53.

259 طه، 29.

260 ص، 30.

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}261.
أي أن يحيى عليه الصّلاة والسّلام كان استجابة لدعاء زكريا عليه الصّلاة والسّلام وهِبة من الله تعالى عليه بالرغم من أن زوجه عاقر ولهذا قال (أصلحنا له زوجه) حتى أنجبت يحيى الذي وهبه الله تعالى لزكريا، حتى لا يتركه منفردا لا ولد له ليرثه من بعده، ولأن الوارث المطلق هو الله قال زكريا: (وأنت خير الوارثين) ببقائك الدائم الذي لا يماثلك فيه أحد من خلقك سبحانك أتوب إليك، لا إله إلا أنت الحي الدائم.

وحظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصّفة الحسنة أن يهب الطاعة مخلصة لله تعالى، وأن يهب الطاعة للوالدين في غير معصية الله، حتى أنّه يخفض لهما جناح الذل من الرّحمة، وأن يهب الطاعة للحقّ والعدل وأفعال الخير الحسان، وأن يهب الاحترام للآخر ولا يجادله إلا بالتي هي أحسن.

وحظ الخليفة من أسمه الوهاب أيضا: أن يستمد منه الفضيلة في العطاء غير المحدود جُهدا أو فكرة أو قولا أو مالا، ودون مقابل عائد منتظر. وألا يخلط أمر ما يتصدق به من صدقات وزكاة مع ما يهبه وهبا دون منَّة منه أو انتظار ثواب عاجلا أم أجلا.

فالعبد الوهاب هو المستخلف بالإيمان الذي يُمكِّنه من أن يعطي ولا يمنن، ويعطي ولا ينهر، ويعطي ولا يندم، ويعطي ولا ينتظر ممن أعطى شيئا عاجلا أو أجلا. وأن يستثمر مواهبه التي وهبها إليه الوهاب الأعظم فيما يفيد العباد ويحقّق لهم الأمن والسلام ويجعلهم على الوحدة والمحبة والوئام لا على الفُرقة والشقاق والصدام.

261 الأنبياء، 90.

إن المواهب التي يهبها الوهاب الحقّ لبعض من عباده لا ينبغي أن تطمس أو تُجحد، بل يجب أن توهب للآخرين وتنقل مع المعارف والعلوم لتنمي قدراتهم واستعداداتهم فيما يفيد وينفع ويترك أثرا طيبا بين النّاس.

وعليه فالوهاب هو الذي وهب لنا الحياة وهو الذي سخّر لنا الفلك تجري بأمره في البحر بما ينفع النّاس، ووهب لنا الماء فجعل منه كل شيء حيا، ووهبا لنا الرزق وجعلنا النافقين منه، وهو الذي أرسل الرياح مبشرات ليذيقنا من رحمته التي وهبنا منها رحمة، وجعل الرياح والسحاب مسخرات بين السّماء والأرض لقوم يفقهون، وأحل لنا ما تشتهيه الأنفس من ثمار وشراب ولحم طير وصيد بر وبحر، ووهب لنا من أنفسنا أزواج ورحمة لنسكن إليها، ووهب لنا ذرية صالحة وفضل كبير.

وعليه، يوضع اسم الله تعالى (الوهاب) ضمن الصفات التي تتحقّق فيها صفة الهبة والعطاء وهي (البر، الكريم، الواسع). هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرّب، بالرّحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر، والحظ التام، إذ يقول تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}262

262 - الأعراف 156

(الوهاب) هو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقّاق عليه، فلا يستحقّ أن يسمى وهابا إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا ورزقا، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ولا ولدا لعقيم ولا هدى لضال ولا عافية لذي بلاء، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده ومنها "المعطي والمانع"263.

واسم الله تعالى (الوهاب) هو مصدر كل هيبة، والهبة هي العطية الخالية من العوض والغرض، فالهبة أن تجعل من ملكك لغيرك بغير عوض، يقال وهبته هبة وموهبة وموهبا، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[264] وقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}265 أما قوله تعالى:{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّك لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا}266 فنسب الملك إلى نفسه الهبة لما كان سببا في إيصاله إليها، ويوصف الله تعالى بالواهب والوهاب بمعنى أنه يعطى كلا على استحقّاقه267، ولا تكون الهبة حقّيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، إذ لا مالك بالمطلق سواه، والمالك هو القاعدة الأساسية لكل هبه أو عطية فلا يكون هناك هبة أو عطاء من لا يملك، إذ يقول تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ

263 – الأسماء والصفات، ج 1، ص 138

[264] الأنعام 84.

265 – إبراهيم 39

266 – مريم 19

267 المفردات في غريب القرآن، ج 1، ص 533

تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}268 هذه الآيات الكريمة بسياقاتها المتعددة الدالة على ملك الله تعالى، تعظم في أنفسنا عظم ملك الله تعالى، وتحيل إلينا كل الصور التي وردت من المادة اللغوية (وهب) في القرآن الكريم والتي تمثل بمجموعها تشكلا معرفيا يحيل لنا دلالات متعددة ومتنوعة أو مختلفة، ابرز ما يسم هذه الدلالات إنها تمركزت على ملك الله تعالى وقدرته في الهبة والعطاء، وفي قضايا مهمة جدا، ومن هذه القضايا هي قضية الذرية، التي تشغل حيزا كبيرا في الفكر البشري، فهي أصل الاستمرار وبقاء النوع، فضلا عن ذلك تعد أحد الثمار المتبقية في الدنيا، يقول رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: "إِذَا مَاتَ الإنسان انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"269. هنا تتضح صورة الذرية المطلوبة والمرجعيات التي تحيل عليها، وهذه الصورة تبقى ملازمة للخليفة يطلبها حثيثا ممّا يؤصل فيه فكرة الذرية التي تخرج من نطاق استمرار النوع إلى تشكل من تشكلات المغفرة التي يسعى لها، لكن هذا لا يتحقّق للجميع، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}270 النص القرآني هنا يحيل إلى تشكيلات مختلفة من الهبة، فكلها تختلف وترسم صورة سعة ملك الله تعالى ونفوذ تصرفه في الملك والخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، والهبة المتحقّقة هنا تجري وفق مشيئة الله

---

268 - أل عمران 26 - 27

269 - صحيح مسلم، ج 8، ص 405

270 - الشورى 49 - 50

تعالى وحكمته، فالثنائية التي يرتكز عليها استمرار النوع هي الذكر والأنثى وعدم الاستمرار العقم، والأمور هنا تعود إلى قاعدة واحدة وهي الزواج، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}271 ومن هذه القاعدة ينطلق الاستمرار وعدمه، فمن الخلق من يهب له الله تعالى إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له. وفي كل هذه الأحوال الثلاث يترتب الأمر وفق علم الله تعالى، فانه عالم بما يصلح لكل واحد منهم وهم لا يعلمون سبحانه جلّ جلاله إنه ربي، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته. وتتضح صورة علم الله تعالى في رزق الأزواج بالذرية الصالحة وعدمها بقوله: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}272، وهنا قتل الغلام رغم انه إحدى الهبات الثلاث، إذ يتجلى الأمر ليحيل لنا علم الله تعالى بما يصلح للخلق، إذ يقول تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}273 هنا ترتسم لنا ملامح صيغة (يهب) التي تمثل الارتكاز في النص القرآني لقوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} إلا أن دلالتها هنا موجودة وان لم ترد في النص القرآني، إذ أن الهبة تحقّقت هنا بالذكر، لكن هذه الهبة لم تستمر بل قل تغيرت ورسمت من جديد ضمن إطار الرّحمة المتحقّقة للأبويين، ممّا يعزز هنا فكرة الرّحمة المصاحبة للهبة. وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

---

271 - الروم 21

272 - الكهف 74

273 - الكهف 80، 81

إِمَامًا}274 هنا تتجسد صفة المؤمن الباحث عن الجنّة، وبطريق هو يختاره دون باقي الطرق، فضلا عن ذلك أن هذه الصّفة تعنى بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدْعُون الله أن يرزقهم أزواجا وذرّيّات تقَرُّ بهم أعينُهم، فالأزواج يُطعنهم بإتباع الإسلام وشرائعه؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذّريات إذا نَشَأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة {قرة أعين}. فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقَرّ عيون المؤمنين إلاّ بأزواج وأبناء مؤمنين275. هنا نجد الترابط المعرفي المتزامن مع الفعل (هب) الذي يرسم أطر تشكليه متعددة تسير ضمن تيارين كل واحد منهم يتكئ على الآخر من أجل الوصول إلى نهاية يتمناها المؤمن منذ أن عرف الشهادتين وتخيل الجنّة كما صورت له في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}276 وطلب الهبة جزء من السعي الموصل إلى مرضاة الله تبارك وتعالى.

نلتمس من السياقات المتعددة التي وردت فيها لفظة (وهبنا) أن الهبة فيها كانت ذرية للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، يقول تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}277 وقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}278 إلا لموسى عليه الصّلاة والسّلام فان الهبة كانت أن وهب

274 - الفرقان 74

275 - التحرير والتنوير، ج 10، ص 126

276 - الإسراء 19

277 - الأنعام 84

278 - ص 30

الله تعالى له أخاه هارون عليه الصّلاة والسّلام، يقول تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}279 والهبة المتحقّقة هنا سبقها سؤال من موسى عليه الصّلاة والسّلام لله تعالى تضمن أن يكون هارون وزيرا له، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}280، والهبتان المتحقّقتان تدلان على حكمة الله تعالى في تيسير دعوته، فكل الهبات عدا هبة موسى عليه الصّلاة والسّلام جرت ضمن تشكل عمودي مستمر لا ينقطع يسير تترى وختاما، قال تعالى: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}281.

قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}282 فهنا يحدث تشكلا ملازما ومستمرا للرسل عليهم الصّلاة والسّلام، وهو العقوبة المتحقّقة المستمرة التي لا تنقطع، فكلما بعث رسول إلى القوم الذين أُرسل إليهم، كذبوه ووقفوا بوجه دعوته بكل الوسائل، فأهلكهم الله تعالى والحقّهم بمن تقدمهم من المهلكين، وجعلهم أخبارا وأحاديث يتحدث بها النّاس، فهنا يحصل التزامن بين إرسال الرّسل وبين العذاب المتحقّق، وكلا الأمرين في حالة استمرار إلى أن تتحقّق الدعوة التي

279 - مريم 51 - 53

280 - طه 25 - 36

281 الفرقان، 74.

282 - المؤمنون 44

يريدها الله تبارك وتعالى كما يشاء لها أن تكون عليه سبحانه إنه القادر جلّ جلاله.

أمّا هبة موسى عليه الصّلاة والسّلام، فتختلف عن باقي الهبات باستثناء هبة زكريا عليه الصّلاة والسّلام، فهي تشبهها إذ سبقت بطلب، وطلب موسى عليه الصّلاة والسّلام اشتمل على أمور كثيرة ذكرها وكلها تتعلق بهارون عليه الصّلاة والسّلام، البداية كانت موحية بأمر عظيم الجلل وهو المواجهة التي يجب أن تتحقّق مع فرعون بوصفه رأس الكفر والجبروت، وهنا نعود إلى سؤال موسى عليه الصّلاة والسّلام، فهو في مجمله يصب في صالح دعوته المرتقبة لفرعون الذي تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الرّبوبية والألوهية، فقد أحس أنه يحتاج إلى أمور تعينه وتكون سببا في إصلاح المرسل إليهم، فكانت البداية بشرح الصدر، لأن في سعته تحمل للأذى الذي قد يتعرض له، وقد يكون أذى قولي أو فعلي، لأن الصدر إذ ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم. وهنا نتذكر قول الله تعالى لنبيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}283.

أمّا قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}284 فهنا صورة التيسير غير محدده فهي مطلقة يريد موسى عليه الصّلاة والسّلام كل الطرق الموصلة لتحقّيق الهدف المنشود أو المأمول، ثم بعد ذلك يعرض عيبا فيه (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه

283 - أل عمران 159

284 طه 26.

الكلام، واللسان بطبيعة الحال هو أداة مهما في التواصل والتفاهم والحوار والجدل، إذ أن مهمته تتطلب هذه الأداة فلابدّ أن تكون مهيأة كي تؤدّي عملها المرتقب، ففيه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ثم يأتي بعد ذلك السؤال الأخير والمهم: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) وهنا تكمن نقطة مهمة في الاختيار فضلا عن المؤازرة والمساعدة وهي أنّ الاختيار أراده لأخيه هارون عليه الصّلاة والسّلام فذلك من باب البر وأحقّ بالبر القرابة، (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) ولم يكتفي موسى عليه الصّلاة والسّلام بالمشاركة لهارون معه بالأمر بل الإشراك بالنبوّة، بأن يجعله الله تعالى نبيا رسولا مثله. فكانت الإجابة من الله تعالى: (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) أي أعطيت جميع ما سألت، فكل ما سأله موسى عليه الصّلاة والسّلام يصب في صلب دعوة الله تعالى، فهو على معرفة تامة بالأمر الذي يريد القيام به وما يتطلّبه.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}285 هذه الآية تمثل صورة من صور الدعاء، والدعاء هو العبادة، وهنا ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدعاء وأسباب الاستجابة، فلنتعرف على آداب الدعاء وأسباب الإجابة:

1- النية الخالصة في طاعة الله تعالى.

2. الإخلاص في طاعة الله قولا وعملا.

3- الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة.

---

285 - الأنبياء 89 - 90

4- الإلحاح في الدعاء وعدم الاستعجال.

5 - الدعاء في الرخاء والشدة.

6- لا يسأل إلا الله وحده.

7 - الاعتراف بالذنب والاستغفار منه والاعتراف بالنعمة وشكر الله عليها.

8 - التضرع والخشوع والرغبة والرهبة.

9 . التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وعليك بمعرفة أنّ لكل صفة من صفات الله وأسمائه التي لا تحصى استجابة فادعوه بالصّفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه.

10 - أن يكون الداعي طعامه ومشربه وملبسه حلال.

11 - أن يكون مصلحا في الأرض.

12 - أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

13 - الابتعاد عن جميع المعاصي286.

فبعد التعرف على آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلى دعاء زكريا عليه الصّلاة والسّلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة، نجد أن النص القرآني علل سبب الاستجابة بقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[287] هنا أثنى الله تعالى عليهم، فقد كانوا يبادرون إلى الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون

286 - الدعاء ويليه العلاج بالرقى الكتاب والسنة، ج 1، ص 4

[287] الأنبياء 90.

فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، وكان سؤالهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويرهبون غضب الله تعالى، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالى.

أمّا علاقة الأسماء الحسنى بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصّلاة والسّلام، فقد أختار اسما من أسماء الله الحسنى يتعلق بمضمون دعائه، وهو اسم (الوارث) وقوله تعالى: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) وجملة (وأنت خير الوارثين) ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحقّ فاقض عليّ من صفتك العلية شيئا288 فزكريا عليه الصّلاة والسّلام فكّر في أمر الدعوة ومن يقم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو الله تعالى، فالدعوة تحتاج إلى استمرار، وهذا الاستمرار يتضمن البقاء، فقوله: (وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) أي: خير الباقين، فذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، وهذا الأمر تحقّق أيضا للنبي أيّوب عليه الصّلاة والسّلام بعد أن مسه الضّرّ، يقول تعالى: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}289. وهذا الأمر لا يقتصر على الأنبياء بل يشمل كل الخلق، يعنى أن أسماء الله الحسنى تتردد بين ثنيات دعاء الخلق فيقع الاختيار عليها وفق النقص الحاصل لديهم، فالمحتاج للرأفة والرّحمة يكون في دعائه (الرّحمن – الرّحيم – الفتاح – اللطيف – الرءوف – الودود) والمحتاج للهبة والعطاء يكون في دعائه (الوهاب – البر – الكريم – الواسع) وكذلك بقية أسماء الله الحسنى.

---

288 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 201

289 - الأنبياء 83، 84

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير ممّا يرى فيه تحقّيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادّية أو المعنوية، العاجلة أو الآجلة، بوصفه نفسا إنسانية، إذ يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}290 ولما كان تحقّيق ما ترجوه هذه النفس مرتبطا بالواقع بقضاء الله تعالى وقدرته ومرهونا بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، فهنا لابدّ من التوجه إلى الله تعالى، فهو الرّب المتفضل على عباده بالعطاء، وهو الذي يحقّق ما يريدون، قال تعالى: {وَقَالَ ربّكمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشْكُرُونَ}291.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الوهاب) أن يتخلق بشيء ممّا يدل عليه قدر استطاعته، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهابا كريما، واسع العطاء ممّا تفضل الله تعالى عليه من مال أو جاه، وذلك بالبذل السخي في أبواب البر التي حضّته على البذل فيها شريعة الله تعالى.

5 . عبد الله:

العبد هو الطائع المهتدي للتي هي أحسن، ولأنه عبد فله معبود يعبده واحد أحد دون أن يشرك به أحدا.

وعلى المستوى الإيماني فالإنسان لا يعبد إلا الله عزّ وجلّ، وعلى المستوى غير الإيماني البعض يشرك بالله المعبود الواحد الأحد، والبعض

290 - الكهف 46

291 - غافر 60، 61

الآخر يكفر به، وفي كلا الحالتين لا ربَّ بالمطلق إلا الخالق المطلق الذي يستوجب العبادة وإن أشرك وكفر من أشرك وكفر، فهو الله جلّ جلاله.

ولأنّ المتيقّنين يدركونه واحد أحدا؛ فهم لا يلتجئون في دعائهم وسؤالهم وطلبهم مباشرة إلا إليه، ولذا فمن آمن بأنه عبد الله كما آمن أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم الذي أخصه الله بأنه عبده الكريم فلابدّ وان تكون له المقامات العظام، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}292.

ولأنّ أيّوب عبد الله فهو الرافض لأيّ ربٍّ من دونه، وهكذا حال الأنبياء والرّسل؛ فهم جميعهم عبيد الله أي أنهم الذين يؤمنون بربوبيته فلا يرشدون لربٍّ غيره، ولا يرتضون للعباد أن يتخذوا من دونه أربابا، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}293.

ولأنّ أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم مؤتي النبوّة؛ فهو يعلم علم اليقين أنّه لا عبودية لأحدٍ على أحد، بل العبودية لله وحده، قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنبوّة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا

---

292 ص 41، 42.

293 آل عمران 64.

كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}294.

ولذلك، من يقول للآخرين كونوا عبادا لي من دون الله فقد كفر، ومن يؤلِّه ربًّا غير الرّب الأعظم فقد كفر، مصداقا لقول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}295.

6. منادي:

المنادي: هو من هو في حاجة ومشبعاتها بيد المنادى أو المستغاث بالسؤال ورفع الطلب إليه، ولذا فالمنادي هو السائل والمستغيث.

النداء: سؤال يُرفع لدعوة من بيده الإجابة لتكون بين أيدي المنادي آية دالة على قدرة المجيب على الإجابة.

المنادىَ: هو من بيده الإجابة وهو السميع لدعاء المنادي عند الحاجة، وهو المقدِّر للكيفية التي ينبغي أن تكون عليها الاستجابة، ولذا فالمنادى لا يُجبر على أن يجيب ولكنه يُسأل الإجابة، وهو المغيث لمن يستغاث به وفقا لمشيئته.

والمنادي على المستوى البشري يمكن أن يكون منادى من غيره وفقا للحاجة المتبادلة عند كل ظرف وضرورة.

---

294 آل عمران 79، 80.

295 التوبة 30، 31.

وليس دائما المنادي هو من هو في حاجة، بل المنادى هو الذي قد يكون على الحاجة وهو في حاجة لمن يُذكِّره بها أو يُذكِّره إليها، كما هو حال الآذان الذي يُرفع لدعوة المصلين الذين هم في حاجة لأن يقوموا لأداء الصلاة فرادى أم جماعة.

ولأنّ أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم نبيا كريما عندما كان في حاجة رفع سؤاله إلى المجيب المطلق الذي لا يشك أيّوب في أنه لا يجيب، فقال كما جاء في الكتاب الحكيم: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}296.

ولأنّ رفع الدعاء كان من الداعي في وقته كانت الاستجابة مع السؤال في وقتها، (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).

7 . مستجاب له:

المستجاب له هو الذي يدعو المجيب المطلق بالمطلق على ما هو نسبي كأن يدعو العبد ربّه بأن يشفيه من المرض فيكون المجيب هو الذي يملك أمر المطلق الذي منه الشفاء المطلق لمن هو في حاجة لشيء منه، كما دعا سيدنا أيّوب ربُّه فاستجاب له، {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}297.

---

296 الأنبياء 83، 84.

297 الأنبياء 83، 84.

ولأنّ أيّوب نبيا كريم فهو على الإيمان التام الذي من خلاله يعلم أنّ الشافي هو الله وعلى العبد المؤمن دعاء ربّه طاعة وإيمانا لا استكبار فيه مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ ربّكمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}298.

ولهذا، دعا أيّوب ربَّه فاستجاب له، وهكذا يفعل الرّسل والأنبياء والصالحين والصدّيقين والمؤمنين إيمانا تاما لا إله يدعى إلا الله السميع القدير العليم المجيب، قال تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يضرّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّماء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ}299.

ولأنّ أيّوب نبيا فلا يدعو مع الله أحدا، ولا من دونه أحدا، كما يفعل المشركون وضعاف الإيمان والذين هم على الضلال لا على الهداية الحقّ؛ فمن سيستجيب للغافلين في دعائهم! قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}300.

---

298 غافر 60.

299 الحج 11 . 15.

300 الأحقّاف 5.

8. صالح:

الصالح من يعمل صالحا في مرضاة الله تعالى، وهو القادر على أعمال وأفعال الإصلاح ما استطاع إليه سبيلا.

والصالح هو من خُلق صالحا ليكون على البيّنة هاديا للتي هي أحسن وأقوم وانفع وأفيد وأصلح.

ولذا؛ فإنّ جميع الرّسل الكرام هم صالحون من عند الله تعالى فهم الصالحون للرسالات التي بُعثوا بها رُسُل عظام، وهم الصالحون للنبأ العظيم الذي أنبئوا به من الله عزّ وجلّ، والصالحون هم رفيعو الدرجات، كما هو حال أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم الذي كما اتصف بالصّبر وُصِفَ بأنه من الصالحين الذين هم في مرضاة الله عزّ وجلّ من أنبياء ورُسُل عظام، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 301.

ولأنّ أيّوب من الصالحين كان على الهداية والطاعة لا يرجو رحمة إلا من الرّحمن الرّحيم الذي شفاه من كل ألم وداء فأصبح على القوّة من المعافين المكرّمين.

ولأنّ أيّوب من الصالحين كانت له الاستجابة بما نوى أن يدعو الله دعاء الصالحين الأبرار مصداقا لقوله تعالى: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ

301 الأنعام 83 . 85.

ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}302.

وعليه فالصلاح لا يكون إلا للمخلصين ولا يكون إلا منهم في دائرة النسبية.

9. موحى إليه:

الوَحْيُ عند اللغويين هو: "الإِشارة والكتابة والرِّسالة والإِلْهام والكلام الخَفِيُّ وكلُّ ما أَلقيته إِلى غيرك يقال وحَيْتُ إِليه الكلامَ، وأَوْحَيْتُ ووَحَى وَحْيا وأَوْحَى أَيضا أَي كتب، وأَوْحى إِليه بَعَثَه، وأَوْحى إِليه أَلْهَمَه، وأَوْحَى كلَّمه بكلام يُخفِيه من غيره، وأَوْحى أَيضا إِذا كَلَّم عبدَه بلا رسول وأَوْحى، والوَحْيُ ما يُوحِيه اللهُ إِلى أَنْبيائه، وأَصل الوحي في اللغة كلها إِعلام في خَفاء"303.

إذا الوحي هو غير المعلن للعامة، إنه الأمر المتعلق بالخاصة الذين يتعلق أمر الوحي بهم، وهو ما يُلهم المصطفين به إلهاما من عند الله، ممّا جعل أمر الوحي يُنزَّل على الأرض تنزيلا من العزيز الحكيم، وهو الميَسَّر للإدراك والفهم مرة واحدة هو كما هو مُنزَّل حيث لا مجال مع الوحي للتشويش، فيكون هو اليقين الحقّ والبيِّنة الحقّ المستوجب الإتباع مع وافر الطاعة.

وهكذا أوحى الله عزّ وجلّ لأنبيائه ورُسُله الذين من بينهم أيّوب العبد الصابر على الابتلاءات التي اجتازها بتفوق ونجاح عاليين، وهكذا حال الأنبياء والرّسل جميعا على البيّنة وحيا في العقول أو رسالات خالدة بين أيدي النّاس، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى

302 الأنبياء 83، 84.

303 لسان العرب، ج 15، ص 375.

نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيّوب وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}304.

والوحي على المستوى البشري لا يكون إلا في العقول ولأنّ الوحي المطلق من الله تعالى فهو غير مقتصرا على البشر، بل يكون الوحي على علاقة مباشر بكل ما خلق جلّ جلاله، فقد أوحى للنحل كما أوحى للإنسان، قال تعالى: {وَأَوْحَى ربّك إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَممّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}305.

أي لو لم يوحي الله إلى النحل ما عرف النحل من أين يبني له بيوتا ولا أين يتخذها فجاءه الوحي موجها إلى أين تكون؛ فكانت الجبال والشجر وما يعرشون، ثم وجهه إلى ما يأكل ليُخرجَ عسلا فيه شفاء للناس، ولهذا فالوحي إن لم يُتَّبع يعم المخلوقات الضلال. ولأن الوحي يُتبع قال تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ ربّك لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}306.

وعلى المستوى البشر يكون الوحي ما فيه خير وقد يكون بما فيه من مفاسد وشر، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ

304 النساء 163 . 165.

305 النحل 68، 69.

306 الأنعام 106.

ربّك مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ ربّك بِالحقّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربّك صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ ربّك هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}307.

وعليه لقد أوحى الله جلّ جلاله لأيّوب كما أوحى لغيره من الأنبياء والرّسل فنعم العبد أنه أواب مصداقا لقوله تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}308.

10 . مهدي:

المهدي هو من كان على الهداية والطاعة التامة لأداء ما يجب والابتعاد عمَّا لا يجب إتباعه، فهو من لا يضل السبيل، وهو المهدي من الهادي المطلق جلّ جلاله في القول والفعل والعمل والسلوك، وهو من تمت هدايته وفقا للمشيئة التي خُلق عليها والرسالة التي سيؤدّيها بنبأ عظيم كما هو حال شعيب صلّى الله عليه وسلَّم الذي هداه الله كغيره من الأنبياء والرّسل إلى ما هداهم إليه بالنبأ العظيم والرسالات الخالدة، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا

---

307 الأنعام 112 . 117.

308 ص 44.

هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}309.

والهداية: هي تبيُّن وإرشاد إلى السبيل الحقّ حيث لا وجود فيه للضلال.

والهداية تكون على معنيين:

أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه.

والآخر بمعنى التوفيق قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}310، أي أنّك لا تستطيع أن توفِّق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء ولا يجوز أن يريد به هاهنا الإرشاد والإيضاح؛ لأنه لا خلاف بين المسلمين أن النبي صلّى الله عليه وسلَّم أرشد وبيَّن وأوضح وبلَّغ، فبيَّن بذلك هدي الرسالات السماوية التي قبله، والرسالة التي جاء بها صلّى الله عليه وسلَّم، إذ لا خلاف أن الدين عند الله الإسلام، وجميع الرسالات السماوية كلها مصدرها الهادي جلّ جلاله وهنا نستطيع أن نقول أن هدي النبي صلّى الله عليه وسلَّم هدي تكليف، وأما بالنسبة للمبلِّغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة، فالرّسول صلّى الله عليه وسلَّم هو الخليفة وهو الهادي بالإضافة، ولأن الهادي هادي الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدّي إلى النجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلى نجاتهم وفوزهم، وأما الفتنة فمعناها

309 الأنعام 83، 84.

310 القصص 56.

الامتحان والاختبار إلا أنّها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتن فلان إذا أخذل وضل.

والهادي: هو من يهدي المهدي إلى ما يُهدى إليه، وهو الذي بيده الأمر وهو مالك الملك الذي به يَهدي ويُهدى به إليه، وهو علّام الغيوب، إنه الهادي إلى ما يجب اتباعه، إنه مبين الرشد من الغي"311.

ولذا؛ فالهادي مالك الحقّ، والمرشد إليه، ومالك القوّة والمرشد بها، ومالك القدرة والتسيير بها؛ ولأنّه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم.

ولأنّه الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ بالقوّة والقدرة الحقّ.

إذا الهادي هو مغيّر الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}312.

ولأنّ الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب.

وجاء في كتب اللغة إن الهادي سبحانه هو الذي بَصَّرَ عِبادَه وعرَّفَهم طَرِيقَ معرفته حتى أَقَرُّوا برُبُوبيَّته وهَدى كل مخلوق إِلى ما لابدّ له منه في بَقائه ودَوام وجُوده.

---

311 التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوى، ج 1، ص 679.

312 الإسراء 97.

وعليه: فإنّ الهادي سبحانه وتعالى تكرَّم وتفضَّل فهدانا إلى الصراط المستقيم، وهو سبحانه وتعالى فعل ذلك جودا وكرما منه، ومن استجاب لهدايته فقد عرف طريق البقاء الأبدي، وضمن لنفسه دوام الوجود في جنة الخلد هداية من الله الهادي جلّ جلاله.

والله خلق خلقا من خلقه جبلهم على الطاعة، فهداية هؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}313، فيسبّح لله كلّ ما في السّماوات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعًا وكرهًا، فهو (الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ) الذي له ملك الدنيا والآخرة، النافذ أمره في السّماوات والأرض وما فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به ويصفونه به ممّا ليس من صفاته (الْعَزِيزِ) الشديد في انتقامه من أعدائه (الْحَكِيم) في تدبيره لأمور خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

وعليه: فالهادي هو الذي أرسل الرّسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}314، وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

---

313 الجمعة 1.

314 فصلت 17.

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة:

3-هداية تسديد:

4- هداية تأييد:

1-هداية الدلالة: بمعنى أنّ الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2- هداية المعونة بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

3- هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدي الصحيح ويدخل في ذلك النوع الخليفة.

4- هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

فالأدوات الداخلية التي تهدي إلى الهادي ممّا يمتلكه الإنسان هي التي تعرِّفه الطريق، وبها يأخذ في سبيل الرشاد ويستنير عقله ويستوعب قلبه الدلائل الهادية، وأول هذه الدلائل هي السمع الذي نراه أرفع درجة من البصر، ذلك أن السمع يرسم صورة المعاني ويحللها ويقارن بينها عن طريق العقل، وهذه الخاصية لا يمتلكها البصر وإن كان ينقل صورة ذات أبعاد ثلاثية، إلا أن الصورة المعنوية أشد تأثيرا وأعظم وقعا على العقل الذي يصور المعاني ويستطيع أن يستنتج منها صورا مركَّبة غير تلك التي ينقلها البصر، فالصورة المعنوية التي تأتي عن طريق السمع هي مدعاة للتأمل أضعاف ما ترسمه صورة البصر، لذلك يكون الوصول

إلى الهداية عن طريق السمع أسرع والتمسك بها أوثق والحجّة بالسمع أشد إقناعا لذلك قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}315، فإنما يجيب دعوة الحقّ مقبلين عليه، الذين يسمعون سماع فهم وتدبُّر وتحليل وتأمل، وأما الذين لا ينتفعون بسمعهم فهم في حكم الأموات، والذين يسمعون سماع وعي وتدبير وتأمل، فإنما أطاعوا في ما دُعوا إليه واستجابوا للهدى، والاستجابة من الله يعبِّر بها عن الأمور التي تقع في المستقبل، ودليلنا أيضا على أن السمع أدعى إلى الهدى من البصر قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}316.

فمعرفة الحقّ والهدى الذي عن طريقه يتوصل الإنسان إلى الهادي، إنما تأتي عن طريق سمعه ووعيه لما يسمع، ولهذا كان النبأ عظيم في عقل أيّوب وسمعه الذي ألهمه الله به وحيا موحى، ولكن الذين لا يذعنون فهم غير سامعين عن طريق المجاز لا عن حقّيقة السمع، أي أنهم سمعوا كلاما ولم يدركوا المعاني والصور التي يحملها هذا الكلام، فمثل هؤلاء أنهم أشد شرا من الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع، وبالبكم فلا تتكلم، فهم صمُّوا عن الحقّ، الذي لم يصمَّ عنه أيّوب وجميع الأنبياء والرّسل ممّا جعلهم دعاة إلى الحقّ وبه مبشرين ومنذرين ومحرّضين.

إمَّا أولئك الذين صمُّوا عن الهداية فلم يقربوا إليها، فهم لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلون دلائل الهدى، لذلك سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم عن طريق ما يسمعون.

---

315 الأنعام 36.

316 الأنفال 21، 22.

وتتجلى الهداية عن طريق السمع أكثر دقة في المشاهد التي أصل الاعتبار فيها إنما هو بصري الرؤية والهدى فيه عن طريق السمع بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}317 إن سياق الآية يندرج تحت المشاهدة البصرية التي هي من مهام العين المبصرة في مشاهدة الليل والنهار والآيات الأخرى التي وردت في الآية، غير أن طريق الهداية مرهون بالسمع الذي ينقل صورة غير الصورة المادّية الحسية ممّا ينتاب الإنسان من شعور عميق يؤدّي به إلى تحسس الهدى في داخل نفسه لا عن طريق المشاهدة الحسية، وإنما بطريق الشعور والإدراك الذي يولده السمع في النفس الإنسانية، فذكر السّماوات والأرض وخلق الليل والنهار بما في ذلك من منافع للسعي والعمل في النهار، وبعد ذلك الهدوء والراحة والسكينة في الليل، وهذا مضيء وذاك مظلم، إنما هي دلائل لمن يسمع ما يقال في ذلك من الآيات من أجل العظة والاعتبار الذي يؤدّي إلى الهدى وهو بيّنة لمن يسمعون ويتدبرون ويعتبرون بذلك.

وأمّا مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}318؛ فإنّك إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنك لتراهم كأنما ينظرون إليك، وهم في الحقّيقة لا يرون شيئا، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، ونعني أن

317 يونس 67.

318 الأعراف 198.

قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح، فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره ويسيرها العقل المدرك، والمخلوقات الأخرى وإن امتلكت هذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلى العقل المدبر للاختيار، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر على هذه الأعضاء؛ لأنّ الرّجل الماشية أفضل من الرّجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه المخلوقات بكثير، ومن هنا تأتي أهمية البصر في اختيار طريق الهدى.

ولهذا، الهادي أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله، وبيَّن لهم الطرق ووضَّح لهم السُبل حتى يتبيَّن الخلق الرشد من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميز الصديق الصالح من قرين السوء فقد قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحقّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحقّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}319، فالله سبحانه وتعالى ينصُّ في هذه الآية على أنه هو الهادي، لا عن طريق المباشرة، وإنما من خلال الدلائل التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، والهداية هنا هداية التوحيد والانصياع لأوامر الله تعالى فيما أوجب على الخلق من العبادة؛ فهل القادر على الهداية إلى الحقّ أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي في نفسه، وهو لا يهدى غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه صلاح أمرهم، الله يهدى من يشاء للحقّ دون غيره بنصب الأدلة

319 يونس 35.

وإرسال الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبُّر الصائب؛ فالعقول مضطربة والأفكار مختلطة وتعيين الحقّ صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فالاهتداء لإدراك الحقّائق لا يكون إلا بإعانة الهادي وهدايته وإرشاده، فالذي يهدي إلى الحقّ بإعطاء العقل واصطفاءه الأنبياء وبعثة الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبُّر بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فبيَّن سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتباع ممن لا يهدي، إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهتدي إلا بغيره.

وإذا كان لابدّ من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحقّ أن يتبع، ولما كان تمام العبد في كونه عالما بالهدى متبعا للحقّ ومعلما لغيره، فهو من الهداة المهتدين، فالهادي من الخلق بالضّرّورة أن يكون مهتديا كما هو حال هداية أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع النّاس في الضلال من حيث لا يشعر، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه اكسب صفة الهدى، فلذلك وجب عليه أن يبصّر عباد الله ويعرفهم طريق معرفته حتى يقروا بالهادي وصولا إلى الهدى، ذلك أن الهادي بالإضافة هو الدليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطاعات، كما أرشد أيّوب إليها إحقّاق للحقّ.

إنّ مسألة الهداية والعصمة والتوفيق والإرشاد إلى الهادي جل شأنه أخذت اتجاهات شتى في كلام أهل الجدل وأصحاب التفسير وأقوال المتكلمين، وإن لم يشر البعض إلى اللفظة صراحة، وإنما في قضية الجبر والاختيار بالنسبة للمخلوقين من أصحاب العقول من الجنّة والإنس.

ونحن نقول:

أنّ الهداية هي حقّ وجب لكل مخلوق ممن ذكرنا، فمن منع ذلك فقد ظلم وأساء، وإن كانت الهداية والإرشاد والعصمة والتوفيق هي حقّ من حقّوق الله تعالى فإنّه يختص برحمته من يشاء، وهنا يجدر القول أن الله سبحانه وتعالى كتب الهداية لمن علم أنه سوف يأخذ بأسبابها ويتوصل بتلك الأسباب إلى الهادي، كما كُتبت إلى سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم الذي جعله مهديا من المهتدين المكرَّمين.

وأمّا الذين اتخذوا طريق الغي سبيلا، فينسحب عليهم ما انسحب على أصحاب الهدى من علم الله المسبق بما سوف يعملون قبل أن يعملوه فكتبهم من الضالين البعيدين عن طرق الهدى وسبل الرشاد، وعلى هذا فيكون خلق فعل الضلال من الله تعالى، كما أن خلق فعل الهدى منه سبحانه، وعلى هذا فإن خلق الفعلين من الله تعالى، وأما اختيار أحد الفعلين والسير في طريق أحدهما دون الآخر فهو اختيار المخلوقين؛ لأن الله تعالى ما كان ظلاما للعبيد.

والآنّ نستطيع أن نفهم قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}320، فالله تعالى أركسهم ولكن بما كسبوا، وهنا لا يسوغ الاختلاف في شأن هؤلاء أهم مهتدون أم ضالون، وهم قابلون لأن يكونوا مهتدين أم لا ترجى منهم هداية، فهؤلاء من قُلِبت مداركهم بما اكتسبوا من أعمال، جعلت الشر يتحكَّم فيهم وما كان لك أن تتوقّع هداية من قَدَّر الله في علمه الأزلي أنه لن يهتدي، وبهذا المفهوم على ما نعتقد أن الله تعالى بعلمه الأزلي حكم على مجريات الأبد بما كان وبما سيكون، ومن هنا لا أحد يستطيع أن يفعل حيال نفسه شيئا ممّا قُدِّر عليه بفعل نفسه وتم به القضاء ولا أحد أيضا يضل نفسه ولا

320 النساء 88.

يضله غيره من المخلوقين، قال تعالى: {قَالَ فإنا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}321، فقد قال تعالى وأضلهم السامري، حيث كان هو المدبر في الفتنة والداعي إلى الضلال بعبادة العجل الذي أبعدهم في هذا الفعل عن طريق الهدى الذي كانوا عليه، فأضاف الإضلال إلى السامري لأنه كان حصل بتقريره ودعوته، وأضاف الفتنة إلى نفسه عزّ وجلّ لحصولها بفعله وقدرته وإرادته وخلقه، وعلى هذا يكون إضافة الأشياء إلى أسبابها ومسبباتها، فلا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الضلال وأبعدهم عن الهدى، لأن الدلائل العقلية والمنطق السليم يعارض ذلك، فلا يجوز من الله هذا الفعل من الجانب العقلي، ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله: (وَأَضَلَّهُمُ السامري) وأيضا فلأن موسى صلّى الله عليه وسلَّم لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة فقال: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن ربّكمْ}322، فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ما ذكرت، فكان يبطل تقسيم موسى، فقال (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن ربّكمْ)، ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له، ولذلك قال فتنّا قومك وأضلهم السامري، وذلك لأن الفتنة هنا بمعنى الامتحان، فهنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لأنّ السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا على الهداية بأنفسهم بما امتلكوا من أسباب تلك الهداية وقد كانوا عليها قبل الفتنة، إذ أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها المؤثرة فيها في الظاهر، ومثل هذا أيضا ما جاء في قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

---

321 طه 85.

322 طه 86.

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يضرّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}323، وهنا تتجلى هداية التأييد من الهادي التي تمثلت بالفضل، فلولا أنّ الله تفضل على نبيِّه بالوحي ورحمه بالإدراك النافذ، لأرادت طائفة منهم السعي إلى الإضلال، ولكنهم لا يضلون إلا أنفسهم، لأن الله أطلع نبيِّه صلّى الله عليه وسلَّم على تدبيرهم، وجعل بصيرته نافذة إلى الحقّ، فلا ضرر عليه من تدبيرهم وتضليلهم، وقد أيده الله تعالى بنور الهداية بما أوحى إليه من القرآن الكريم الذي هو ميزان الحقّ ومصباح الهدى وسبيل الرشاد، وأودع قلبه الحكمة وعلمه من الشرائع والأحكام ما لم يعلمه إلا بوحي منه، حيث كان ضمان الهداية من الله تعالى مخاطبا نبيَّه: إنّ فضل الله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدى في توخي طريق العدل، وأن وبال ذلك الإضلال يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم، ومردُّ ذلك إلى هداية الله تعالى وحكمته في أنه يعصم المؤيدين بالهدى ممن يحاول إضلالهم، فمن تولاه الله بفضله وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أراده بسوء فلا سبيل إلى فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له.

وعليه: فإنّ أوّل خلق الهادي جلّ جلاله من الإنس من اهتدى هو آدم صلّى الله عليه وسلَّم حيث قال تعالى: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}324؛ فعندما أحس آدم هو وزوجه بخطئهما وظلمهما لأنفسهما، طلب آدم التوبة ليهتدي إلى الصراط الحقّ الذي يرضى به الله تعالى عنه وعن زوجه، فألهم الله تعالى آدم كلمات يقولها للتوبة والاستغفار، فقالها: فتقبَّل الله منه وغفر له

323 النساء 113.

324 البقرة 37.

وهذه الهداية من اسم التواب، وبصرف النظر عما قال العلماء والفقهاء والمفسرون ممّا جاء في الأحاديث النبوية الشريفة في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، فإنما هي العهود الإنسانية والمواثيق الآدمية والمناجاة الرّبانية من الخليفة إلى الحقّ تعالى جلّ جلاله، فهي كلمات هداية أوصلته إلى الرشد ليتوب الله تعالى عليه ويهديه سبيل الرشاد، فتاب آدم إلى الله بالرجوع عن المعصية والاعتراف بذنبه والاعتذار عن خطئه وسهوه، فتاب الله تعالى عليه بالرّحمة وقبول التوبة، وبذلك عاد إلى الهدى، لأن أصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به الله سبحانه أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة لفتح باب الهداية، وتمام التوبة من العبد بالندم على ما كان، وبترك الذنب الذي هو فيه، وبالعزم على أن لا يعود إليه في مستأنف الزمان، وبردّ مظالم العباد وبإرضاء الخصم بإيصال حقّه إليه باليد والاعتذار منه باللسان، وهذا كله من باب العودة إلى ما كان عليه من الهدى، وربَّ سائل يسأل:

لماذا اكتفي بذكر آدم صلّى الله عليه وسلَّم بالتوبة والهداية، دون حواء؟

نقول:

إنّ الأمر من عدة جوانب:

أولها: أنها كانت تابعة له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر المواطن في القرآن الكريم وذلك لباب القيام حيث قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}325.

325 النساء 34.

والثاني: أن الرّجل هو الأصل في الخلق والاصطفاء فآدم اصطفاه الله على الأنواع كلها وكذلك على جنسه، أي اصطفاه على الأنواع (الملائكة والجن)، واصطفاه من داخل نوعه على حواء، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس اتَّقُوا ربّكمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}326،فالله سبحانه الذي أوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، وخلق منهما رجالا كثيرا ونساء أي قدّر خلقكم حالا بعد حال على اختلاف صوركم وألوانكم من نفس واحدة، أي من أصل واحد وهي النفس الآدمية الواحدة (الإنسان) أي أنّ النفس من حيث الخلق واحدة ومن حيث التعدد ثنائية مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}327.

والثالث: أنّ اللغة تخاطب المؤنث على التغليب أي تغليب المذكر على المؤنث الذي هو داخل ضمنها وذلك مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ ربّكمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}328، فالخطاب للناس شمل الذكر والأنثى، وكذلك قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}329، فالتوكل على الله تعالى يكون من المؤمنين رجالا ونساء، وهذا يعني أن حواء دخلت في التوبة والعودة إلى الهدى ضمنا وإن لم تذكر، ولذلك كان الحوار مع آدم صلّى الله عليه وسلَّم، والعتاب موجه إليه دون حواء ولم تذكر أيضا إلا في حال إضافتها لزوجها (أنت وزوجك). ومن باب الهداية في اسم التواب أيضا قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

326 النساء 1.

327 الذاريات 49.

328 النساء 174.

329 آل عمران 11.

بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}330، حيث أنّ خطاب موسى يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم عجل السامري معبودا لكم دون خالقكم فهو الضلال بعينه والابتعاد عن طريق الهدى والرشاد، فهذا الخطاب يحمل وجهين من المعاني:

الأوّل: دور الهادي بالإضافة وهو الخليفة الذي يقوّم اعوجاج البشر في الأخذ بيدهم إلى طريق الهدى.

الثاني: أنّ التوبة هي رجوع عن الباطل والغي والضلال إلى طريق الحقّ الذي هو منارة الهدى، لذلك أمرهم أن يتوبوا إلى ربهم وخالقهم، وهذه التوبة سوف تكون طريق العون إلى الله الذي يهدي الضالين ويتوب عليهم، فإن هم اتبعوا الخليفة وامتثلوا لأمره فقد ترتب على ذلك التوفيق إلى الهدى بترك الضلال عن طريق التوبة، وبقبول التوبة من الله تعالى بإرشاد الخليفة يتم العفو الموصل إلى الهدى.

وعليه: فإنّ اقتراف الذنوب هو مخالف لسنة الله تعالى في خلقه بدليل ذكر(بارئكم) والبرء في جملة ما يعنيه أنه برأكم خَلقا في الصورة وخُلُوقا في التقويم والعدل والاستقامة وهي فطرة الله الذي فطر عليها عباده بأنهم مهتدون إلى الخالق قبل اقتراف الذنوب؛ فالإنسان خلقه الله تعالى بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت، ولكنه ميَّز بعض خلقه من بعض بصور وهيئات مختلفة، فهؤلاء الذين تركوا فطرة الله في هدايته لهم وعصوا أمر الخليفة؛ فقد بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغباوة منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي هو لا يريد بعباده إلا الهدى والرشاد حيث قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ

330 البقرة 54.

إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}331، فالله تعالى على صراط مستقيم، والصراط المستقيم هو طريق الهدى وسبيل الرشاد، الذي يوصل إلى الهادي، وهو الذي آخذٌ بكل ناصية إلى صراطه، وعلى هذا يكون الله تعالى آخذ بنواصي خلقه إلى هدايتهم إلا من أبى، أي رفض وامتنع واتخذ غير سبيل الله أو عصى ما أمره به الخليفة حيث جاء في الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم قال: "كل أمتي يدخلون الجنّة إلا من أبى قالوا: يا رسول الله ومن يأبى قال: من أطاعني دخل الجنّة ومن عصاني فقد أبى"332، وكما أن الله سبحانه وتعالى هو هادٍ في أسمائه، فهو أيضا هادٍ في خلقه، وأول هداية الخلق بالخلق، ما أرسل الله الهادي رُسُله بالبيّنات كما هو اصطفاءه لسيدنا أيّوب ليبيّنوا للناس سبيل الرشاد والهداية بالتي هي أحسن وأقوم قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}333. وهنا تتضح هداية الهادي في خلقه وهي دعوة لاتباع المرسلين من الله إلى النّاس، فهم لا يطلبون أجرا على نصحهم وإرشادهم، وإنما غاية الدعوة هي إيصالهم إلى ما أمر الله به من الهدى، وهنا يتجلى دور الخليفة الهادي بالإضافة، فهو يعلم من الهادي المطلق ما لا يعلمه الآخرون، لأن الله تعالى يختار ويختص من عباده من يشاء، لأنهم مهتدون وينتفع الخلق بهديهم في سلوك طريق الخير والفلاح، وتكون الدعوة إلى الهادي المطلق من الهادي بالإضافة إلى خير الدين والدنيا، لأنّه المهتدي إلى طريق الحقّ الموصل إلى هذا الخير، فإذا كان الذي يدعوك إلى الخير والهدى وطريق الحقّ ويأخذ بيدك إلى الخيرات وينأى بك عن الزلات هو من هو إنسان عادي

331 هود 56.

332 صحيح البخاري، ج 22، ص 248.

333 يس 20، 21.

فوجب عليك اتباعه، وان لم يكن رسولا ويكفي أنه يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر، فكيف إذا كانوا رُسُلا ومهتدين، فإذا هم الخلفاء الذين وجب إتباعهم، لأن الرّسول مهتد لا محالة، وكونهم مهتدين فالعقل يسلم بصلاح ومنطقية ما يقوله الهادي بالإضافة، ذلك أنّهم يرغبون في اتباعهم لا من أجل عرض الحياة الدنيا ولا يريدون أجرا على ذلك، ومع ذلك فترى بعض النّاس يعرضون تكبرا.

ونحن نقول لمثل هؤلاء:

إن كانت الهداية لا تقدم لكم منفعة آنية في الوقت الحاضر، ولا تؤمنون أنّها تقدم لكم منفعة مستقبلا أو في الحياة الآخرة؛ فإن الدعوة إلى مكارم الأخلاق أيضا لا تضركم، ومن هذا الباب وجب اتباعها لأنّها تتنزَّه عن الغرض الدنيوي وتدعو إلى الاهتداء إلى الخير، وعلى هذا فالذين يتبعون هدى الهادي في خلقه لا يخسرون معه شيئا من دنياهم ويكسبون صحة دينهم فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة، فالدعوة إلى مكارم الأخلاق هداية من مخلوق لمخلوق وهي في غاية الاستقامة والحسن وذلك من حيث الشعور النفسي والارتياح، ولا شك أنّ الخلق في الدنيا على فطرتهم سالكون طريق الخير في داخلهم وطالبون للاستقامة بدليل أنّ الإنسان السيئ إذا مدحته وذكرته بخير فإنّه يهتزَّ رضا وتنفرج أساريره عن الطمأنينة والارتياح، وإذا ذكرته بما فيه من السوء الذي يعلمه بنفسه ويمارسه فإنه سوف ينكر عليك ذلك ولا يقبله منك إلا الراشدون بالحقّ للحقّ فهم يؤمنون لا كمال إلا لله تعالى، فطبيعة النفس الإنسانية تميل إلى الخير رغما عن العقل لأنّها تعلم الدليل إلى الطريق بالفطرة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل وجوب اتباعه، والامتناع من الإتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين، إمّا مغالاة الدليل في طلب الأجر، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته

بالطريق، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرا وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحقّ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين، لذلك وجب اتباعهم.

ومثلما أنّ الله تعالى هو الهادي في أسمائه، والهادي في خلقه كذلك هو هادٍ في الخصوصية التي اختص بها بعض مخلوقاته دون البعض مثل الأنبياء والمرسلين والأولياء والخلفاء، وهذا هدي اختصاص من الله تعالى بالنسبة للبشر، أمّا المخلوقات غير العاقلة فقد هداها إلى ما هي مخلوقة له بشكل عام، وكذلك جعل لبعضها خصوصية لحكمة أرادها الهادي لقضاء أمر أو لتعريف الإنسان قدر نفسه من خلال مخلوقات ضعيفة تفعل ما لا يستطيع الإنسان فعله فقد جاء في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}334، فالله الهادي هدى هذه النملة لتخاطب قومها خوفا عليهم من الهلاك، وبذلك أرادت هدايتهم إلى ما فيه نجاتهم من الموت الذي قد يسبّبه جنود سليمان صلّى الله عليه وسلّم من تحطيم جماعة النمل، فقالت لهم بطريق الهداية: يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم لكيلا تميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم يا معشر النمل، ادخلوا مساكنكم لا يهلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فسمعها سليمان فتبسم ضاحكا متعجبا من قولها، وسأل الله تعالى أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه وعلى والديه من عِلم وملك، وأن يوفقه للعمل الصالح الذي يرضاه وأن يدخله في رحمته وكرمه وفضله ويجعله من جملة

334 النمل 18، 19.

عباده الصالحين مصداقا لقوله تعالى: (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)، ومن البديهي أن سليمان صلّى الله عليه وسلّم من المهتدين الذين يهدون إلى الهادي، ومع ذلك فإن هدي النملة لجماعتها جعله يتشبث بهداه أكثر ويدعو الله أن يثبته عليه، وهدي النمل لم يقتصر على هذه الحادثة، ولكن الله هداه أيضا إلى أمور يعجز عنا الإنسان وقد كتب كثير من الكتاب والباحثين عن معيشة النمل ونظامها الدقيق في حياتها، وما لها من عجائب في معيشتها وتدبير شئونها، ومثابرتها على العمل، وأنها تتخذ القرى في باطن الأرض، وتخزن قوتها لأيام الشتاء.

وكما هدى النمل كذلك فقد هدى النحل لما هو مكلف به وحيا ليس بمعنى أنّه أرسل إلى النحل رسلا من الملائكة تهديها إلى ما يجب عليها فعله، وإنّما هو هدي برمجة وإلهام بما أودع الله فيها من تصريف الأمور لتصنع شرابا يهتدي البشر إلى الشفاء الذي أودعه الله فيه بما هدى النحل إلى استخلاصه من أنواع شتى من الزهور والورود والنباتات على اختلاف أنواعها قال تعالى: {وَأَوْحَى ربّك إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}335، فقد ألهم الله تعالى النحل أسباب حياتها بما أودع فيها، ووسائل معيشتها بما بثّ لها من أسباب الرزق وهداها إليه، وكذلك هداها إلهاما بأن تتخذ من الجبال بيوتا في الكهوف، ومن فجوات الشجر وبين الصخور، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا كذلك، فهذا التنوع في الهداية إلى اتخاذ بيوت

---

335 النحل 68.

النحل في مناطق مختلفة من البيئة والطبيعة، إنّما هو هداية من أجل الهداية، فلماذا هذا التفاوت؟ إن الله تعالى هدى النحل إلى اتخاذ المساكن في أنحاء مختلفة في الطبيعة ليس فقط من أجل امتصاص رحيق الأزهار وتحويله إلى شراب فيه شفاء للناس، وإن كان يبدو أن هذا هو عملها الأساسي، إلا أنّ هناك أمرا أكثر أهمية من العسل، خاصة إذا علمنا أن النحل يسقط على أزهار لا يأخذ منها رحيقا على الإطلاق، فلماذا يقف على أزهار لا ينال منها فائدة؟ وهنا تكمن الهداية الأهم بالنسبة لهذه الحشرة، وهي أنها تنقل حبوب الطلع من الذكر للأنثى ممّا بث الله تعالى من نباتات في هذه الأرض، وهنا نقف على الحكمة من هداية النحل في اختلاف مساكنها، وأما الجانب الآخر فلكي يكون الشراب الذي يخرج من بطونها في متناول الجميع؛ لأنّ الله تعالى لم يجعله للخواص وإنما هو عام لكل البشر حيث قال تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}336؛ فقد هداها الله تعالى للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهَّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها ربها مذللة سهلة وهداها إليها، كي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس جميعا دون استثناء.

إنّ في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم هادٍ، يهتدي النّاس للانتفاع به من أجل الغذاء أو الدواء، فهذا الغذاء النّافع والشراب الشافي، الذي هدى الله تعالى النحل أن تأكل الأجزاء اللطيفة الطيبة الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمتص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة ثم تخرجه من بطونها، وتدّخره في بيوتها للشتاء فينعقد عسلا بإذن الله تعالى، فأي هدى وأي

336 النحل 69.

هادٍ أوحى إلى النحل كل هذا، فسبحان الهادي وسبحان الخلاق العظيم، حيث إنه سخرها لما خلقها له وهداها لما فيه خير الإنسان، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وهنا نذكر هداية دقيقة من الله تعالى لهذا المخلوق العجيب وإن كنا ذكرناه سابقا في مواطن من هذا البحث، إلا أنّنا نرى وجه الهداية دقيق جدا في عملية بناء بيوت النحل، وذلك أن النحل تبني بيوتا على شكل سداسي من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى وهداها، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية ضائعة، وهداها الله سبحانه وتعالى أيضا إلى أنها تخرج من بيوتها، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها، ولا تضل عنها، ولما امتازت هذه الحشرة الضعيفة بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الهدي الإلهي فكان ذلك شبيها بالوحي، من هاديتها إلى الطرق التي ألهمها الله أن تسلكها والنبتات والأزهار التي تأكل منها وما تلقح من أشجار لولا وقوع النحل عليها ما كان لها ثمار. فالهدي الإلهي في مخلوقات الله تعالى عدا الإنسان إنّما هو قائم على طبيعة الخلق المؤثر في السلوك وحيا وإلهاما وتوجيها لما يهدي الله تعالى هذه المخلوقات من تصرفات وأعمال كونها أمم من أمم الخلق مكلفة أيضا بغير ما كلف به الإنسان من العبادة.

وعليه: لا مهدي إلا ومن وراءه هاديا له يرشده للتي هي أحسن إن شاء أن يوصف بما هو أحسن كما شاء الله تعالى لأيّوب وجميع الأنبياء الكرام صلّى الله عليهم وسلَّم، وكما شاء لخلقه من غير البشر ليكونوا في مسالكهم ودروبهم على الهداية التي تبقيهم آمنين ولله مدركين

مسبّحين ورفيعو الدرجات، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِين}337.

ذرّية بعضها من بعض:

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}338.

إنّ أيّوب صلّى الله عليه وسلّم نبي من ذرية النبوّة التي بدأها الله تعالى بنبوة آدم صلّى الله عليه وسلّم، وختمها بنبوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ورسالته الكافة التي جاء بها للناس جميعا، وقد ميزهم الله سبحانه وتعالى بخصوصية الاصطفاء حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}339.

337 الأنعام 83. 90.

338 ص 41، 42.

339 آل عمران 33، 34.

وجاء معنى الذرية في اللسان قوله: "وذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا خلقهم وفي حديث الدعاء أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ وكأن الذرء مختص بخلق الذرية وفي قوله تعالى يذرؤكم فيه معناه يكثركم فيه أي في الخلق، قال والذرية منه وهي نسل الثقلين وكان ينبغي أن تكون مهموزة فكثرت فأسقط الهمز وتركت العرب همزها وجمعها ذراري والذرء عدد الذرية تقول أنمى الله ذرأك وذروك أي ذريتك.

والذرية أصلها ذريئة بالهمز فخففت همزتها وألزمت التخفيف قال ووزن الذرية على ما ذكره فعيلة من ذرأ الله الخلق والجوهري يجعل الذرية فعلية من الذريء، فيكون الأصل ذرورة ثم قلبت الراء الأخيرة ياء لتقارب الأمثال ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبل الياء فصار ذرية والزرع أول ما تزرعه يسمى الذريء وذرأنا الأرض بذرناها وزرع ذريء على فعيل وأنشد لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

شققت القلب ثم ذرأت فيه...هواك فليم فالتأم الفطور"340.

ولكن المقصود هنا في الآية الكريمة من معناه هو بيان شدّة الاتصال والترابط بين هذه الذرية التي بعضها من بعض، حيث جاءت (من) لتوضيح هذا الاتصال وبيان هذا الترابط بين أبعاض هذه الذرية، لأنّ معنى (من} في هذا السياق للاتصال لا للتبعيض، أي بين هذه الذرية اتّصال القرابة، فكل بعض فيها هو متّصل بالبعض الآخر، ذلك أنّ هذه الذرية هي بعض خاص من ذرية آدم صلّى الله عليه وسلَّم، وهذا البعض الخاص من الذرية العامة اصطفاهم الله تعالى على العالمين، وهم مصطفون في علم الله تعالى قبل خلقهم، ولكن من أجل توضيح الفكرة وبيان معنى الآية نقول:

340 لسان العرب، ج 1، ص 79.

. إنّ الله تعالى اصطفي آدم في علمه وخلقه.

. خلق نوح من ذرية آدم وهو مصطفي فكان نوح بعضا من الذرية.

. خلق الله إبراهيم وآله من بعده وهم مصطفون، فهم بعض من بعض إبراهيم من بعض نوح ومن بعض آدم.

. خلق الله تعالى عمران وآله من بعده وهم مصطفون، فهم بعض من عمران، وبعض من إبراهيم، وبعض من نوح، وبعض من آدم.

فهذا البعض من البعض هي سلسلة خاصة في التواصل والترابط الذي لا تكون فيه رابطة الدم مقياسا لهذا الترابط والنسب والقرابة، وسيأتي بيانه في موضعه، والتسلسل التنازلي من آدم صلّى الله عليه وسلَّم إلى النبي الخاتم صلّى الله عليه وسلَّم، يحصر هذا البعض المخصوص في ذرية البعض الاسمية بالتواصل، وليست الجزئية بالتبعيض.

اصطفاء أيّوب:

إنّ الله سبحانه وتعالى خص بالاصطفاء آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران فأين أيّوب من هذا الاصطفاء؟

فالله تعالى ذكر آدم ونوحا، ثُمّ اتبعهم بآل إبراهيم وآل عمران، فمن الآلين:

. منهم من نعلمه.

. ومنهم من لا نعلمه.

ولذا، وجب البحث عن آل إبراهيم وآل عمران حتى نقف على علاقة أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم بأحد الآلين ودخوله في جملة المصطفين من هذه الذرية التي بعضها من بعض.

إنّ الله تعالى ذكر أنه اصطفي آل إبراهيم، ولما أضاف إبراهيم إلى الآل، كان إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم رأس المصطفين من هذا الآل وأولهم في الاصطفاء، وهذا الآل ذرية بعضها من بعض، فإبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم رأس سلسلة المصطفين من ذريته الذين يؤولون إليه، مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 341.

لقد ذكر الله تعالى أبناء إبراهيم الأدنين إسحاق ويعقوب عليهما الصّلاة والسّلام، ثُمّ أردف بعد ذلك بقية ذريته المصطفاة، ومن ضمن هذه الذرية أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم وعليه:

ـ الله تعالى اصطفي آل إبراهيم.

ـ إبراهيم رأس الآل المصطفين.

ـ هذا الآل ذرية بعضها من بعض.

ـ أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم دخل في هذه الذرية.

ـ الذرية المصطفاة ذُكرت وهي منصوص عليها.

ـ أيّوب جاء نصا في هذه الذرية.

341 الأنعام 83، 84.

ـ أيّوب من المصطفين من هذه الذرية.

فالله سبحانه وتعالى يقول: {إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين}. فذكر آل إبراهيم في سورة آل عمران ولم ينص على أيّوب، غير أننا في آيات من سورة الأنعام نقف على ذكر إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم وذكر ذريته المصطفين من آله في قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيّوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

فذكر أيّوب الذي هو من ذرية إبراهيم، ولما كان الآل في الذكورة تصاعديا، وأيّوب من ذرية إبراهيم، وكان إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم مصطفي هو وآله، فدخل أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم في ذرية المصطفين من آل إبراهيم.

ولما كان كل نبي مصطفي من الله تعالى، فلا يخرج عن آل من الآلين المصطفين:

ـ آل إبراهيم.

ـ آل عمران.

ولما كانت نبوة أيّوب ثابتة بالإجماع، وورد النص على أنه من ذرية إبراهيم فقد دخل في جملة المصطفين ممن اصطفي الله تعالى، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}342.

فقد وصفه الله تعالى بخمس صفات في موضع واحد ما اجتمعت لنبي غيره وهي:

. أنّه عبد لله وهي من أرفع الدرجات.

. أنّه مرحوم من الله حيث آتاه أهله ومثلهم ومعهم رحمة.

. أنّ الله تعالى وجده صابرا.

. وصفه بأنه نعم العبد لله تعالى.

. أنّه مستمر في الرجوع إلى الله تعالى في أمره كله.

وهذه الصفات لا تجتمع إلا في الذرية المصطفاة التي بعضها من بعض.

بين الاصطفاء والاختيار:

إنّ اصطفاء الله تعالى كان بعلمه جلّ جلاله قبل الخلق والإيجاد والتكوين، وأن الاصطفاء ليس اختيارا، وبون شاسع بين الاختيار والاصطفاء، ذلك أن الاختيار يكون من متعدد متفاوت ومختلف، ولا مجال للمختار إلا أن يختار من هذه المتفاوتات المختلفة على ما تحمل من تناقض أحيانا وتصادم أحيانا أخرى، ذلك أن تكوينها وخلقها وإيجادها ما كان للمختار فيها من خيار، وإنّما خياره في الانتقاء منها. والمختار عادة ما يختار الأفضل والأصلح لأنه يدرك أن ذلك الاختيار

342 ص 41- 44.

سيعود عليه بالنفع والفائدة، والله سبحانه وتعالى غني عن ذلك ومنزّه عنه.

وأمّا خطاب الله تعالى لنبيّه موسى صلّى الله عليه وسلَّم في قوله تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}343.

فهنا ليس اختيار مفاضلة بين موسى وغيره من أجل النفع والفائدة التي تعود على المختار عادة، ومن أجلها يتم أي اختيار من متعدد، أمّا أن موسى صلّى الله عليه وسلَّم اختاره الله تعالى وقد اصطفاه في ذرية من اصطفي، فهنا يكون الاختيار واقع على:

ـ الزمان الذي بعث فيه.

ـ المكان الذي ينشر فيه دعوته.

ـ القوم الذين أرسل إليهم.

وإنّ الفائدة والنفع من هذا الاختيار تعود على المخلوقين الذين من أجلهم تمّ اختيار موسى صلّى الله عليه وسلَّم في الزمان والمكان والقوم الذين اختير لهم، فكان الاختيار من أجل الفائدة والنفع اللذين يعودان على المختار لهم وليس على المختار نفسه.

ولذا، كانت ذرية الأنبياء اصطفاءً من الله تعالى، وهي بعضها من بعض، فالله سبحانه وتعالى اصطفاهم في الخلق والتكوين والتركيب والإيجاد:

ـ نبوة.

ـ ورسالة.

---

343 طه 13.

. وطاعة.

. وتبليغا.

فكان ذلك اصطفاءً لهم على العالمين، لأن الاصطفاء يدل على:

. مزيد الكرامة.

. علو الدرجة.

. ارتفاع المكانة.

الاصطفاء على العالمين والمفاضلة:

هنا تستوقفنا مسألتان لابدّ من توضيح كل واحدة منهما:

الأولى: اصطفاؤهم على العالمين، أدخل اللفظ زمرة الملائكة لأنهم من العالمين، ولذا نقول:

لما بيّن الله تعالى أنّه اصطفي آدم وذريته من الأنبياء على جميع العالمين أوجب ذلك أن يكونوا أفضل من الملائكة كون الملائكة من العالمين، والعالمون أجمعون هم من خلق الله، وبذا كانوا أفضل من الملائكة بصريح النص.

الثانية: عندما اصطفاهم على العالمين، وهذا يعني:

. أن كل واحد منهم مصطفي على العالمين.

. دخل في زمرة العالمين غير كل واحد منهم.

بمعنى إذا قلنا هذا النبي مصطفي على العالمين، فسيذهب المعنى إلى أنّه مصطفي على العالمين، وبقية ذرية النبوّة من العالمين أيضا، وهنا يكون التناقض بأن البقية لم تصطفي، لأن هذا النبي مصطفي على

العالمين وبقية الأنبياء من العالمين، فهو مصطفي عليهم أيضا! وهذا يوقع التفضيل!

. أي بعضهم أفضل من بعض، ولما كان الأنبياء من العالمين ووقع تفضيلهم جميعا، فقد وقع تفضيل كل واحد منهم، وتفضيل كل واحد منهم على انفراد يوقع البقية في المفاضلة مع هذا الواحد كونهم جميعا من العالمين.

ولبيان ذلك ودرء هذا التعارض الذي قد يتبادر إلى ذهن البعض ويبدد هذا الإشكال الذي يوهم التناقض، فهنا جوانب كثيرة تدفع هذا الوهم منها:

الأوّل: تفضيل الخصوصية بعد الاصطفاء كما قال تعالى: {تِلْكَ الرّسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}344.

فالله سبحانه وتعالى ذكر أنه فضل بعضهم على بعض، ولكن عندما ذكر قبل ذلك (تلك الرّسل) دلّ على أنه بعد الاصطفاء، ثمّ أنّ هذا التفضيل خصيصة معجزة لنبي دون غيره، لأن غيره له خصيصة أخرى في التفضيل بالإعجاز، ولبيان خصائص التفضيل بعدم الاشتراك بين نبي وآخر نورد بعض ما فضل الله به بعضهم على بعض فنقول:

. آدم صلّى الله عليه وسلّم علّمه الأسماء كلها. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}345.

---

344 البقرة 253.

345 البقرة 32.

وهذه خصيصة لآدم لا يشترك معه أحد من الأنبياء أو الرّسل فكانت فضيلته في هذه الخصيصة عن بقية الأنبياء.

. نوح صلّى الله عليه وسلَّم صنع الفلك بأعين الله تعالى. قال تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}346.

وهذا جانب من تفضيل نوح صلّى الله عليه وسلَّم في الهندسة البحرية وصناعة السفن وقيادتها والإبحار بها في موج كالجبال وهذا لن يتأتى لأحد من العالمين.

. إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم كانت النار عليه بردا وسلاما. قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}347.

فمن أجل إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم تمّ تعطيل القوانين الطبيعية التي انتزعت من النار تلك الخواص التي وجدت من أجلها، مثل الحرارة والدفء والإحراق.

. موسى صلّى الله عليه وسلَّم آتاه تسع آيات لم يؤتها لأحد من الأنبياء. قال تعالى: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}348.

إنّ آيات موسى صلّى الله عليه وسلَّم والتي أفضنا فيها في بحثنا عن موسى، هذه الآيات على تعددها، لا يشترك معه بها أي نبي آخر، وهنا مكمن تفضيله وخصوصيته.

---

346 هود 37.

347 الأنبياء 69.

348 النمل 12.

. سليمان صلّى الله عليه وسلَّم حشر له من الجنود ما لم يحشر لأحد من العالمين، قال تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}349.

ويكفي سليمان تفضيلا بخصوصيته أنه أوتي ملكا ما انبغى لأحد من بعد من الأنبياء ناهيك عن البشر.

. عيسى صلّى الله عليه وسلَّم خلقه آية مختصة بعيسى. قال تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}350.

فعيسى صلّى الله عليه وسلَّم ألا يكون أفضل العالمين بطريقة خلقه وكلامه في المهد وتعليمه الكتاب والحكمة، وإخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

. محمّد صلّى الله عليه وسلَّم نبي الكافة وخاتم الأنبياء والمرسلين أرسله الله تعالى للناس كافة. قال تعالى: {مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}351.

ويكفي محمّد تفضيلا أنه صلّى الله عليه وسلَّم خاتم الأنبياء والرّسل، ويحمل الرسالة الكافة للأمة الكافة.

---

349 النمل 17.

350 مريم 20، 21.

351 الأحزاب 40.

والذي ذكرناه من الفضائل لكل واحد منهم صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين، هي فضيلة للنبي ذاته اختصه الله بها، كما اختص غيره بغيرها، وليست من باب المفاضلة في شيء.

الثاني: تفضيل زماني بعد الاصطفاء، وهو أن كل نبي من الأنبياء في عصره، هو أفضل العالمين الموجودين في ذلك العصر وعليه يكون:

. آدم صلّى الله عليه وسلَّم أفضل العالمين في عصره.

. نوح صلّى الله عليه وسلَّم أفضل العالمين في عصره

. إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم أفضل العالمين في عصره.

. أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم أفضل العالمين في عصره.

. محمّد صلّى الله عليه وسلَّم أفضل العالمين في عصره.

ولذا، نهى محمّد صلّى الله عليه وسلَّم عن المفاضلة بين الأنبياء والمرسلين، لأنّ ذلك يوقع في كثير من المتاهات العقدية وربما ينزلق المفاضلون إلى القدح بعد ذلك بالاصطفاء ولذا قال صلّى الله عليه وسلَّم: "لا تخيروني على موسى، فإن النّاس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله"352.

وقوله صلّى الله عليه وسلَّم: "لا تفضِّلوني على يونس ابن متى"353.

352 شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، ج 1، ص 160.
353 شرح صحيح البخاري، ج 8، ص 59.

ذلك أنّ الرسالة والنبوّة التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين لا تحمل إلا معنى واحدا، لأنهم جميعا يدعون إلى الله تعالى ويدعون إلى التوحيد، وجميعهم قام بما أمره الله تعالى به على الوجه الأكمل بما هو مكلف به، وعلى هذا ينتفي التفاضل بين الأنبياء والمرسلين وإن كان ثَمّ تفاضل فإنه في تفضيل الله بعضهم على بعض بتلك الخصائص المميزة لكل نبي عن نبي بما أشرنا إليه ممّا أوتي من آيات معجزة اختص بها دون غيره من الأنبياء.

فإن كان نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم عن المفاضلة بينه وبين موسى ويونس عليهما الصّلاة والسّلام، فإن هذا النهي من باب أولى أن يكون مع غيرهم كنوح وإبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام وهما أبواه اللذان جعل الله تعالى في ذريتهما النبوّة والكتاب، أو كموسى ويونس وأيّوب وهم إخوته صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين.

وبهذا النهي منع صلّى الله عليه وسلَّم مواضع الفتنة من أوهام بعض من يسبق إليها وهمه في هذا، لأن المفاضلة مدعاة إلى:

. الجرح في النبوّة.

. الإخلال في الرسالة.

. الحط من الرتبة.

. التطاول على العصمة.

. القدح في اصطفاء الله تعالى لأنبيائه.

ولقائل أن يقول إذا كان التفضيل على هذين الوجهين:

. تفضيل خصوصية لكل نبي.

. تفضيل عصر على العالمين.

ولكن عندما يجتمع أكثر من نبي في عصر واحد كيف يكون كل واحد منهم أفضل العالمين ومصطفي عليهم مع وجود نظيره؟

نقول: لقد اجتمع إبراهيم ولوط عليهما الصّلاة والسّلام في فترة، وكذلك موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام في فترة، فهل نقول أن إبراهيم أفضل من لوط أو أن موسى أفضل من هارون، والذي يذهب هذا المذهب يمكن أن يقدح في اصطفاء الله تعالى، ودليل عدم التفاضل بين الأنبياء قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}354.

إنّ الرّسل من الملائكة الكرام الذين حملوا البشرى لإبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم، هم أنفسهم مكلفون بإهلاك أهل القرية الظالمين، فأشفق إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم على لوط خوف الهلاك:

. فقال: (إن فيها لوطا).

. قالوا: (نحن أعلم بمن فيها).

إنّ جواب الملائكة لإبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم يتضمن معانٍ كثيرة منها:

. عدم التفاهم لما قاله لهم صلّى الله عليه وسلَّم.

. الإجابة تحمل معنى طلب الكفّ عن الكلام.

. الإجابة تحمل معنى الخصوصية لكل نبي.

---

354 العنكبوت 31، 32.

ـ جاؤوا إبراهيم بالبشرى وبلغوه بها.

ـ يجيئون لوطا من أجل إهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين.

ثُمّ استطرت الملائكة لتأكيد علمهم بمن فيها، وما يعمل من فيها من عمل صالح ومن يعمل عملا غير صالح، ففصّلوا ذلك لإبراهيم بالنتيجة المترتبة على العمل الذي يعمله أهل هذه القرية وعلم الملائكة به ممّا أعلمهم الله تعالى فأردفوا القول: لننجينه وأهله، ثم استثنوا امرأته من النجاة.

وعندما نمعن النظر في إجابة الملائكة على إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم، نجدها لا تحمل أي معنى يدل على المفاضلة بين إبراهيم ولوط عليهما الصّلاة والسّلام، فلو كان للتفاضل مجال ههنا لكانت كفة إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم هي الراجحة كونه أبا الأنبياء وفي ذريته النبوّة والكتاب.

وأمّا موسى صلّى الله عليه وسلَّم فهو نبي مرسل قبل هارون، وإن كان كلٌّ منهما مصطفي قبل النبوّة والرسالة، وعلى هذا يكون موسى أفضل العالمين في عصره قبل نبوة هارون، لأنّ هارون هو دعوة موسى عليهما الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى على لسان موسى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}355.

فالمفاضلة بين موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام ممتنعة، كما امتنعت بين إبراهيم ولوط عليهما الصّلاة والسّلام، ولننظر في قوله تعالى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ

355 29- 36.

أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}356.

فالذي دفع موسى صلّى الله عليه وسلَّم أن يأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه، هو تقدم سنّ في الأخوة، وليس تقدم مكانة في النبوّة.

ذلك أن موسى صلّى الله عليه وسلَّم باستفهامه الإنكاري (أفعصيت أمري) يعلم أن هارون لا يعصي له أمرا، ولكن أراد من خلال السؤال التوصل إلى السبب الذي لا يعلمه من عدم تركهم واتباع أخيه.

وعندما قال له خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل. فما كان من موسى إلا أن قال: ما خطبك يا سامري. وهذا دليل على أن هارون على حقّ في موقفه.

ولذا؛ فإنّ الذي نقوله في اجتماع أكثر من نبي في فترة واحدة، إمّا من متممّات الدعوة التي تحملها الرسالة، وإمّا من جزئياتها، فلما كان إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم، يجوب الأرض متنقلا من مصرٍ إلى مصرٍ يثبّت أسس الدعوة ويرفع القواعد من البيت، كان لوط صلّى الله عليه وسلَّم متممّا لجزء من رسالة إبراهيم في مهمة أخرى، كما أن إبراهيم متمم لجزء من رسالة لوط صلّى الله عليه وسلَّم، وهنا تنتفي المفاضلة ولا يمكن أن تكون مفاضلة بين الأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم.

إنّ المفاضلة بين شخص وآخر تقوم عندما نكلف اثنين بعمل متطابق في الزمان والمكان والشروط والإنجاز، وبعد ذلك تكون مقايسة النجاح والإخفاق في النتائج ضمن الجدول الزمني مقارنة بين ما أنجز كل منهما، وعلى ضوء ذلك نستطيع القول إنّ الأول أفضل من

356 طه 92 -94.

الثاني، أو الثاني أفضل من الأول، وأمّا مسألة النبوّة فلا مفاضلة بينها لما بيّناه، إذ أنّ إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم أنجز ما كُلّف به على الوجه الأكمل وفق ما أمره به ربّه، ولوط صلّى الله عليه وسلَّم، أنجز ما كُلّف به على الوجه الأكمل وفق ما أمره به ربه.

فلو أنّ مشيئة الله تعالى، أخرت أجل إهلاك قوم لوط إلى غير الوقت الذي أهلكهم فيه، فهل أن لوطا صلّى الله عليه وسلَّم سيتوقف عن نهيهم عن الفاحشة عند الأجل الأول؟

هذا السؤال لا يحتاج منا إلى إجابة ولذا لا يمكن المفاضلة بين الأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى ذرية بعضها من بعض.

فإن كان ثمة تفضيل، فإنه تفضيل تسلسل وترتيب لا يخل بدرجة الاصطفاء، لأنّ الاصطفاء كان بعلم الله تعالى في ذرية النبوّة على العالمين قبل البدء والإيجاد، وتفضيل كل نبي بذاته، كان تفضيل تسلسل وترتيب على التعاقب وليس على التنافس فيما أنيط به من رسالة، بعلم الله تعالى قبل البدء والإيجاد أيضا.

ولذا، عندما نمعن النظر في رسالة كل نبي على حدة من هذه الذرية التي هي بعضها من بعض، ونعمل العقل بالتأمل والتفكر والتدبر في هذه الرسالة لهذا النبي، لا نملك أن نقول سوى أنه هذا هو النبي المرسل إلينا صلّى الله عليه وسلَّم مصداقا لقوله تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}357.

ذلك لأنّهم ذرية بعضها من بعض، لا يختلف خلفهم عن سلفهم بشيء في الاصطفاء.

357 البقرة 285.

وهؤلاء الأصفياء، على تباعد الزمان فيما بينهم، فهم بعضهم من بعض تربط بينهم أنساب كثيرة منها:

. نسب الاصطفاء من الله تعالى.

. نسب الدم كونهم ذرية بعضها من بعض.

. نسب التكليف في حمل الرسالة.

. نسب العقيدة ودين الإسلام الذي ارتضاه الله لهم منذ أبيهم آدم صلّى الله عليه وسلَّم.

وعندما قال تعالى: (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ) يجب أول ما ينصرف إليه المعنى المقصود هو نسب الدين والعقيدة مع وجود نسب الدم والصلب ثانيا.

ولذا، وجب توخي الحذر في هذه المسألة حتى لا تكون جميع الذرية على الاصطفاء عموما، لاسيما أن الله تعالى أوضح هذه المسألة بشكل جلي لا لبس فيه ولا غموض، ولا اجتهاد لمجتهد في أن يُدخل جميع الذرية في هذا الاصطفاء، فإن كانت عقيدة الذرية على ما كان عليه آدم ونوح وإبراهيم صلّى الله عليهم وسلَّم، فقد دخلت الذرية في هذا الاصطفاء، وإلا لا اعتبار لأنساب الدم واللحم عند الأنبياء ما لم توافق عقيدة ذريتهم ما كان عليه رأس الآل من العقيدة حيث تتضح لنا هذه القضية في قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}358.

358 البقرة 124.

وعليه: فالظالمون وإن كانوا من نسل الأنبياء فإنهم يخرجون من الذرية بدلالة ظلمهم، وعندما يمارسون الظلم فإنهم خارج الذرية التي بعضها من بعض، وبالتالي فإنّهم خارج الاصطفاء.

ولذا، لما قال نوح صلّى الله عليه وسلَّم مناديا ربه أن ابنه من أهل، لم يقرّه الله تعالى على ذلك، لأن أهل النبوّة هم أهل العقيدة والعمل الصالح قبل أن يكون من النسل والذرية، قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}359.

ثم إنّ المنظور الإلهي لا يقيّم الذرية على أصلها العرقي وانتسابها الآلي، وإنّما يكون اصطفاء الذرية التي بعضها من بعض قائم على أساس المبدأ في العقيدة وهي ذرية في التزامها لما جاء به الآل من الفضائل والقيم.

ولذا نرى قواسم القيم المتدنية تربط جماعات المنافقين بهذا الرابط على الرغم من انقطاع النسب بينهم، وبها أصبحوا ذرية بعضها من بعض، جمع بينهم إجماعهم على أمور توافقوا عليها، لم يقرّها الله تعالى ولم يرضها لعباده حيث قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}360.

359 هود 45، 46.

360 التوبة 67.

الذرية التناسلية والتباعضية:

قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}361.

فإبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم بعد أن أقره الله تعالى على إتمام الكلمات اللاتي ابتلاه بهنّ، كانت إمامته مكافأة على ذلك الإتمام، فأراد إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم أن تستمر هذه الإمامة في ذريته دون قيد، وجاءه الرد من الله تعالى الذي اصطفاه وابتلاه وكافأه، بتقرير أسس قاعدة الإمامة، بأن أخرج منها الظالمين وإن كانوا من ذرية النسب، لأن الإمامة لها مقاييسها وأسسها ومبادئها مثل:

. العقيدة.

. الإيمان.

. التقوى.

. الصلاح.

وليست وراثة أصلاب وأنساب فحسب، فالقربى هنا ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة أولا في هذا البعض.

لأنّ دعوى القرابة والدم والعرق والقوم يتساوى فيها جميع البشر التي تربط بينهم هذه العلاقات، فإن لم تكن من هذه الذرية المتباعضة التي اصطفها الله تعالى، سوف تصطدم اصطداما مباشرا بالأسس الإيمانية للعقيدة التي أقرها الناموس الإلهي رابطة للذرية المتباعضة،

---

361 البقرة 124.

وذلك عندما قال إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم: (ومن ذريتي) أجاب الله تعالى إبراهيم على دعوته بقوله: (لا ينال عهدي الظالمين).

والظلم أنواع كثيرة أعظمها:

. ظلم النفس بالكفر والشرك بالله تعالى.

. ظلم النّاس بالبغي عليهم.

. ظلم هضم حقّوق الآخرين.

ولذا؛ فالإمامة ممنوعة على الظالمين التي تشمل معانٍ كثيرة منها:

. إمامة الرسالة.

. إمامة الخلافة.

. إمامة الصلاة.

وكل معنى من معاني الكثيرة للإمامة التي أسبغها الله تعالى على إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم.

ذلك أن إبراهيم نال تلك الإمامة بما وفّى من عهد لله تعالى، {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}362.

فمن وفي بما وفي به إبراهيم فهو من هذه الذرية المتباعضة، ومن لم يوفّ فقد خرج منها وإن كان من نسلها.

ولقائل أن يقول كيف يخرج منها وهو من نسلها ذرية؟

362 النجم 37.

هنا وجب العود إلى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}363.

إنّ نوحا صلّى الله عليه وسلّم من هذه الذرية المتباعضة التي اصطفاها الله على العالمين، ونوح صلّى الله عليه وسلّم أنجب ذرية بدلالة النصوص القرآنية، قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}364.

فقول نوح صلّى الله عليه وسلّم: (إن ابني من أهلي) دليل على أنّه من ذريته، ولكن خرج من الذرية المتباعضة كونه عملا غير صالح، لأنّ مقياس الاصطفاء للذرية المتباعضة قائم على العمل الصالح بما يحمل من خير على تعدد وجوه الخير من التوحيد والبر والإيمان والتقوى وما ينضوي تحت ذلك من جزئيات أمر بها الله تعالى وصولا إلى العمل الصالح، أو أن يكون الإنسان نفسه من الصالحين لأنه مصطفي، حيث وصف الله تعالى بالصلاح خيرة عباده المصطفين من خلقه بهذه الصّفة مصداقا لقوله تعالى:

{أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}365.

وقوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ}366.

---

363 آل عمران 33، 34.

364 هود 45، 46.

365 آل عمران 39.

وقوله تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}367.

ولذا فإن ابن نوح ليس من أهله ولن يرقى إلى أهلية نوح صلّى الله عليه وسلَّم حتى يكون من أهله، وإن كان من نسله بدليل نصي آخر هو قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}368.

فابن نوح هذا برفضه الأمر الهيّن اللين السهل البسيط، على ما يحمل من دعة وأمنية رجاء الركوب مع أبيه، إلا أنه أبى، فكان عملا غير صالح أخرجه من الذرية التباعضية ولم يخرجه من الذرية التناسلية، فهو ابن نوح ولكنّه ليس من بعضه لأن الذرية التباعضية هي سلسلة اختصها الله تعالى بالاصطفاء بعضها من بعض وسنأتي عليها في (ذرية الاصطفاء سلسلة).

وعلى العكس من ابن نوح، فإن الذرية التباعضية هي عمل صالح تمام الصلاح في:

ـ التوحيد.

ـ البر.

ـ الإيمان.

ـ التقوى.

---

366 الأنعام 85.

367 الصافات 112.

368 هود 42، 43.

حيث قال تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}369.

إنّ إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم من جملة المصطفين، فبشره الله تعالى بغلام أيّ غلام! لقد بشره الله تعالى بغلام حليم على كبر سنه، وكانت رؤيا إبراهيم أنه يذبح هذا الغلام الحليم الذي بُشر به على كبر، ولما كانت رؤيا الأنبياء وحيا فهي أمر واجب النفاذ، وكانت هذه الرؤية عندما بلغ إسماعيل الصبا الذي يستطيع فيه السعي مع أبيه (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك} فقد أدرك الغلام من القوّة ما يستطيع أن يسعى مع والده في الصفا والمروة، وسياق الآية الكريمة في أسلوبها التي جاءت به كأنما هو استفتاء لإسماعيل صلّى الله عليه وسلَّم (فانظر ماذا ترى).

ولأنّ إسماعيل صلّى الله عليه وسلَّم من الذرية التباعضية ما زاد أن قال: (افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين). كما وصفه الله تعالى بقوله: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ}370.

ولأنّه من الذرية المصطفاة فقد امتثل للكرب الشديد والأمر العظيم، وصدّق قول ربه فيه بأنه غلام حليم.

إنّ الله تعالى لما وعد إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم في البشرى بغلام حليم، فكان حلم ذلك الغلام على قدر الاصطفاء في الذرية التي بعضها من بعض، فكان موقفه من رؤيا أبيه ما يدل على ذلك الحلم

369 الصافات 101، 102.

370 الصافات 85.

من الصّبر والتحمل، وحسن الإجابة التي تنطوي على أدب وخُلُق، لا كالذي قال: (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء).

إنّ الذرية التي بعضها من بعض كانت على منهج واحد:

. في العقيدة والدعوة.

. في الملة والدين.

. في الإيمان والتقوى.

. في الإخلاص والصلاح.

. في السلوك والتصرف.

ولذا، نجد يوسف صلّى الله عليه وسلَّم الذي ينحدر متواصلا من الذرية التباعضية يصرح بذلك لصاحبي السجن في قوله تعالى: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشْكُرُونَ}371.

وهنا لابدّ من وقفة عند قوله: (تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) لأنّ كثيرا من المثقفين يظن أن الترك يكون بعد الأخذ! وهذا المعنى أبعد ما يكون عن الصواب، ذلك أن الترك هو عدم الأخذ أصلا إمّا بهجره مفارقة، وإمّا بالابتعاد عنه تعاطيا إن لم يستطع هجره، وأمّا ما ذهب إليه البعض في قوله: "جوابه من وجوه: الأول: أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضا فيه. والثاني:

371 يوسف 37، 38.

وهو الأصح أن يقال إنّه صلّى الله عليه وسلَّم كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفا منهم على سبيل التقية، ثم إنّه أظهره في هذا الوقت، فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر"372.

فإنّ هذا الرأي قريب من الصواب في التماس العذر ليوسف صلّى الله عليه وسلَّم في التبرير والتعليل، ولكنه لا يصيب كبد الحقّيقة وإن أصاب منها، لأن الترك هو هجر الشيء وعدم الأخذ به.

فيوسف صلّى الله عليه وسلَّم هو ابن يعقوب الذي ابيضت عيناه على يوسف من الحزن، ومع ذلك فقد ذهب إلى أبيه الأعلى إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم ليس من باب المفاضلة، ولكن كون إبراهيم هو رأس الآل في هذه الذرية المصطفاة بعضها من بعض، وجب أن يكون ذكر الآباء تنازليا لأسباب كثيرة منها:

. أنّ الله تعالى ذكرها من آدم إلى آل إبراهيم تنازليا.

. أنّ إبراهيم هو الذي جاء بالملة التي اتبعها إسحاق ويعقوب ويوسف.

. ذكرها تصاعديا من الأدنى إلى الأعلى يجعل يعقوب رأس الملة.

. إفراد الملة وتعداد الآباء وحّد العقيدة من يوسف إلى إبراهيم.

ولذا فإن الله تعالى لما اصطفي هذه الذرية التباعضية، وميّزها عن الذرية التناسلية كما بيّناه، فقد اصطفي لها دينها الذي ارتضاه لها حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

372 تفسير الرازي، ج 9، ص 42.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}373.

فبدأت التوصية من إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم، ثمّ ثنّى بيعقوب صلّى الله عليه وسلَّم، وذلك لبيان تشعّب الذرية إلى فرعين، هما إسماعيل وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام وعن إسحاق وصّى يعقوب بنيه، وعن إسماعيل وصلت الوصية لمحمّد صلّى الله عليه وسلَّم وهو النبي الخاتم ورسول الكافة، فكان قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}374. مصدقا لقوله تعالى فيما أوصى به إبراهيم أن يوصي به بنيه الذين هم ذرية بعضها من بعض.

مس أيّوب:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}375.

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم بيده، واصطفاه على العالمين، ثم اصطفي من ذرية آدم نوحا صلّى الله عليه وسلَّم، ثم اصطفي من ذرية نوح آل إبراهيم وآل عمران، وقد نوهنا أن هذا الاصطفاء لم يكن في الذرية على تسلسل خلقهم الزماني، وإنما هم مصطفون في علم الله تعالى قبل الخلق والخليقة وقبل الإيجاد والتكوين.

ولكن إيجاد المصطفي من هذه الذرية وخلقه يكون في زمن الرسالة التي قررته المشيئة الإلهية للنبي المصطفي، ولما اصطفي الله تعالى نوحا من

373 البقرة 131، 132.

374 المائدة 3.

375 آل عمران 33 – 34.

ذرية آدم عليهما الصّلاة والسّلام، وجب أن يكون هناك سلسلة مصطفاة تربط بين عصر آدم وعصر نوح عليهما الصّلاة والسّلام وصولا إلى إبراهيم الذي انبثق منه الآل، إذ لا ينبغي للمصطفي أن يتقلب في ظهور وأرحام الفجار والمشركين لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}376، والمشركون أقل جرما من الكفار، ولذا فقد امتنع أن يكون أحد من هؤلاء المصطفين أن يتقلب في ظهور وأرحام المشركين أو الكفار، وهنا لابدّ أن تكون دائرة هذه الذرية التي بعضها من بعض أوسع ممّا ذكر بالاسم من المصطفين الأطهار، إلا أن الأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلَّم لما كانوا مكلفين بدعوات ورسالات، ذكرت أسماؤهم تنصيصا مرتبطة بما كلفوا به ولم تذكر بقة الذرية المصطفاة إلا ما كان منها له علاقة بأحد المصطفين كامرأة عمران ومريم أم عيسى.

ولقد ذكر الله تعالى في سياق الآية الكريمة آدم ونوحا فردين؛ وذكر إبراهيم وعمران آلين، ولما لم يذكر بين آدم ونوح أحدا غيرهما ونصّ عليهما، وجب أن يكون ليس بينهما نبي أو رسول، وهذه إشارة تفسح المجال في البحث عن عصر إدريس صلّى الله عليه وسلَّم ومكانه من الذرية التباعضية وسنأتي عليها في موضعها إن شاء الله.

إنّ ذكر نوح من بعد آدم دون آل يعطينا إشارة إلى أنّ آدم بشخصه ونوحا بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء ولم يكن بينهما نبي أو رسول، وإشارة أخرى أنه أي نبي أو رسول ذكر بعد آدم ونوح لا يخرج عن الآلين اللذين ذكرهما الله تعالى اصطفاءً للذرية التي بعضها من بعض ممّا قصه الله تعالى على نبيه صلّى الله عليه وسلَّم

376 التوبة 28.

مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ}377.

إنّ السلسلة من الذرية التي تحمل الأصفياء وتقلبهم في الظهور والأرحام هي مصطفاة عقلا ومنطقا لما قدمنا من أدلة، ولكن من العقل والمنطق أيضا أن لا تذكر أسماء هذه السلسلة لأنها تؤدّي الدور الذي اختصها الله به دون وحي، وهي أمانة التواصل بين الذرية المتباعضة إلى الحين الذي قرره الله تعالى ببعث نبي أو رسول، فيكون مصطفي من الذرية التي تحملها السلسلة المصطفاة وخير دليل على ذلك قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}378.

فامرأة عمران كانت تحمل من يحمل من اصطفاه الله تعالى وهو عيسى ابن مريم وعليه فالله تعالى:

. اصطفي امرأة عمران لتحمل مريم.

. اصطفي مريم لتحمل عيسى

. عيسى مصطفي من الله تعالى.

---

377 غافر 37.

378 آل عمران 35- 37.

ولا حاجة للخوض في أنّ عيسى من آل عمران بدليل أنّ أمّه من آل عمران وهي لم يمسسها بشر، فبقي عيسى صلّى الله عليه وسلَّم مصطفي في الذرية المتباعضة.

فقول الله تبارك وتعالى: (إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)، دليل على أنّه لا تكون الذرية هاهنا إلا من نسل القوم وأصلابهم ضمن الاصطفاء.

ولما أراد الله تعالى أن يذكر قصّة مريم مهّد لها بهذا الرّبط العظيم بمن اصطفاهم الله على العالمين ومنهم آل عمران آباء مريم ليبيّن بهذا الرّبط أنّ مريم من الذرية المتباعضة، وأنها من ذرية الأنبياء المصطفين، وأنّ أمها امرأة صالحة ومن صلاحها أنها نذرت ما في بطنها محررا لله، وكانت تأمل أن يكون ذكرا فإذا بالمولود أنثى، فأرجعت أمرها إلى الله معتذرة إليه معوذة ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب دعاءها فتقبلها ربها قبولا حسنا وأنبتها نباتا حسنا وكفلها نبي كريم رحيم هو زكريا صلّى الله عليه وسلَّم فكانت ذرية بعضها من بعض.

هذا أحد طرفي سلسلة الآل اللذان انبثقا من إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم الذي يعو إلى إسحاق وصولا إلى إبراهيم صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين.

وأمّا الفرع الثاني لهذه السلسلة الذي انبثق من إبراهيم أيضا إلى إسماعيل وصولا إلى محمّد صلّى الله عليه وسلَّم، لابدّ أنه موازٍ لفرع إسحاق، وما ذكرنا في حقّ آل عمران من غير الأنبياء، ينسحب على الذرية التي بعضها من بعض في فرع إسماعيل صلّى الله عليه وسلَّم، فإن كان في فرع إسحاق أحداث أوجبت ذكر البعض من الذرية التي

بعضها من بعض، كامرأة عمران ومريم، إلا أنّه في فرع إسماعيل لم يكن هناك حدث يوجب ذكر بعض بعضهم، غير أنّ الذي ذكر في حقّ هذه السلسلة من فرع إسماعيل أن آباء محمّد صلّى الله عليه وسلَّم وصفوا بأنهم من الساجدين في قوله تعالى: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}379. في ظهور وأرحام الآباء والأمهات إلى أن بعثه الله تعالى.

ودليل آخر أنّ هذه الذرية بعضها من بعض أن أبرهة الحبشي عندما أراد هدم الكعبة: "قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هم إنّ العبد يمنع... رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم.. ومحالهم غدوا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا.. فأمر ما بدا لك"380.

فقيام عبد المطلب على باب الكعبة يدعو الله ربه بأن يحمي القبلة التي رفع قواعدها أبواه إبراهيم وإسماعيل صلّى الله عليهم وسلَّم، لهو ذات الموقف الذي قالت امرأة عمران (ربّ إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني) ذلك أنهم ذرية بعضها من بعض.

وهذا دليل على أنّ عبد المطلب كان على دين التوحيد وملّة إبراهيم؛ فهو من الذرية التي بعضها من بعض، ولم يكن عبد المطلب جدّ رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم، لوحده على التوحيد عصرئذٍ، وإنّما

379 الشعراء 219.

380 سيرة ابن هشام، ج 1، ص 50.

كان هناك كثير من العرب من قريش وغيرها على ملة إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم، مثل زيد بن عمرو بن نُفيل جدّ عمر بن الخطاب، وأمية بن أبي الصلت الشاعر المعروف وورقة بن نوفل وغيرهم.

إدريس من ذرية الاصطفاء:

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}381.

إنّ إدريس بالنص القرآني كان صديقا نبيا، فأين اصطفاء إدريس من الذرية التي بعضها من بعض؟

. إنّ النصوص القرآنية لم تنصُّ على أنّه قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. ليس هناك نص يدل على أنّه بعد نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. ليس هناك دليل يدل على أنه قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. هناك أكثر من دليل يدل على أنه بعد نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. إدريس ثبتت نبوته بالنص القرآني.

. طالما أنّه نبي وجب أن يكون من الذرية التي بعضها من بعض في الاصطفاء.

. لم يذكر أنه اصطفي مفردا كما ذكر آدم ونوح صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين.

381 مريم 56.

. إذا لم يذكر في الاصطفاء مفردا، لابدّ أن يكون مصطفي ضمن الآل.

. هو للآل إبراهيم أقرب منه للآل عمران.

. ذكر مرتين يتقدمه فيهما إسماعيل.

. مرة جاء مع إسماعيل كل منهما مفردا في آية.

. مرة جاء بعد إسماعيل وقبل ذي الكفل في الآية نفسها.

. ذكر الأنبياء في القرآن الكريم متسلسل في الزمن إمّا تصاعديا وإمّا تنازليا.

. في الآية التي ذكر فيها مع إسماعيل وذو الكفل، جاء ذكره بينهما.

. إن كان الذكر تصاعديا فهو بعد ذي الكفل وقبل إسماعيل.

. إن كان الذكر تنازليا فإسماعيل قبله.

. معلوم أن ذا الكفل من أنبياء بني إسرائيل وإن اختلف في اسمه.

وعلى ما تقدم: فإن إدريس صلّى الله عليه وسلَّم على احتمالين:

إمّا أن يكون قبل نوح وإمّا أن يكون بعده، فإن كان قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام، وجب ذكره تنصيصا في الاصطفاء كما نص الاصطفاء على آدم ونوح أي أن يقال: إنّ الله اصطفي آدم وإدريس ونوحا، وهنا يكون القول الفصل وتنتهي القضية.

ولما لم يذكر إدريس نصا في الاصطفاء، فقد دخل الآل المصطفين كونه نبي، ولما كانت الآية على ما هي عليه، (إنّ الله اصطفي آدم

ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، دخل اصطفاؤه في جملة الآل وهذا يعني أنه بعد نوح صلّى الله عليهم وسلَّم.

ففي سورة مريم عند ذكر الأنبياء التي وردت، يبدأ الذكر برأس الآل بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}382، وبعد ذلك في الآيات التالية يذكر الله تعالى الوهب الذي وهبه لإبراهيم وهو: إسحاق ثم تلاه يعقوب فموسى فهارون وهذا الفرع الأول من الذرية التي بعضها من بعض التي يدخل بها آل عمران ومريم وعيسى صلّى الله عليهم وسلَّم.

فيتوقف عن ذكر ذرية هذه السلسلة عند هارون، ثم ينتقل إلى إسماعيل بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}383. ومعلوم أنّ إسماعيل صلّى الله عليه وسلَّم هو الفرع الموازي للآل عمران من إسحاق، وهو الابن الأكبر لإبراهيم صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين، وبعد أن يورد الله تعالى بعض صفات إسماعيل، يأتي على ذكر إدريس بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}384، وهذا الذكر في السلسلة الثانية هو الآل المنحدر من إبراهيم إلى إسماعيل إلى محمّد صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين.

وهنا أكثر من تساؤل مثل:

. ذكر إدريس بعد إسماعيل كما ذُكر يعقوب بعد إسحاق.

. ذكر إدريس مع إسماعيل يجب أن يكون له ما يبرره.

382 مريم 41.

383 مريم 54.

384 مريم 56.

وعليه: يمكن أن نقول بداية مع التحفظ ريثما نسوق الأدلة، أن إسماعيل أسبق من إدريس، كما أن إسحاق أسبق من يعقوب.

ففي سورة الأنبياء أيضا نجد أن إسماعيل مقدما على إدريس يليه ذو الكفل بقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ}385، وهذا له أهميته من حيث ذكر الأنبياء في القرآن الكريم على التسلسل الزماني الذي نقف عليه من خلال الآيات تصاعديا أم تنازليا عندما يجتمع اسمين أو أكثر للأنبياء في آية واحدة أو آيات متواليات، ففي خطاب الله تعالى لنبيه محمّد صلّى الله عليه وسلَّم: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوب وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}386.

لقد بدأ بآخر من أوحى إليه محمّد صلّى الله عليه وسلَّم، ثم أردفه بأول من أوحى إليه وهو نوح صلّى الله عليه وسلَّم، ثم النبيين من بعده:

. تنازليا: إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

. تصاعديا: وعيسى أيّوب ويونس.

. تنازليا: هارون وسليمان وداوود.

ثُم إنّ موسى بالآية التالية معلوم بدلالة هارون.

ثُم في هذه الآية عند قوله تعالى: (إنّا أوحينا إليك كما أو حينا إلى نوح والنبيين من بعده)، ومعلوم أن أوّل الموحى إليهم هو نوح وآخرهم

---

385 الأنبياء 85.

386 النساء 163 – 164.

محمّد عليهم صلاة والله وسلامه أجمعين، وجب أن يكون إدريس موحى إليه من بعد نوح، والله تعالى لم يوح إلى آدم، لأنّ الله علّمه تعليما.

هذه الأدلة ترجح أن إدريس ليس بعد نوح فحسب، وإنما بعد إبراهيم صلّى الله عليهم وسلَّم أجمعين.

ثُمّ أنّه من الأدلة على تسلسل الزماني وفق ما بيناه، إذا ذُكر المتقدم متأخرا، والمتأخر متقدما، يشير القرآن إلى ذلك دفعا للغموض ومنعا للبس كما في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ}387.

نخلص ممّا تقدم أنّ إدريس صلّى الله عليه وسلَّم، إن لم ينص القرآن على اصطفائه مفردا فهو ليس نبي، وهذا محال لثبوت نبوته.

وطالما أنه ثبتت نبوته بالنص فهو من المصطفين، ولما كان نبيا ولم يُذكر اصطفاؤه لا بعد آدم ولا قبل نوح، فإنه لا يخرج عن أحد الآلين:

. آل إسماعيل.

. آل إسحاق.

ولما اقترن ذكره مع إسماعيل في الموضعين وإسماعيل من آل إبراهيم، عليه يكون إدريس من آل إبراهيم سواء اقترب من إبراهيم أم تراخى عنه والله أعلم.

387 الأنعام 84.

وهناك مسألة مهمة يغفل عنها الكثيرون في قضية القبل أو البَعد، والقُرب أو البُعد بالنسبة للأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم، وهو جانب نفسي نتأثر به كثيرا.

إذا نظرنا نظرة عقلية إلى إبراهيم صلّى الله عليه وسلَّم فإننا نجده موغل في القدم، غير أن علاقة الأديان السماوية بإبراهيم عامة والمسلمين خاصة تجعل له حضور دائم يختصر كل هذه المسافات الزمنية، ولذا من الجانب النفسي دون تفكر يتهيأ للبعض أن سليمان وداوود أقدم من إبراهيم لعدم التواصل معهما كما هو الحال مع إبراهيم.

ومن جانب آخر على هذا المقياس تبدو المسافة الزمنية في آل إسحاق أطول منها في آل إسماعيل وذلك بسبب كثرة أنبياء بني إسرائيل بسبب كثرة عصياهم حيث نجد من السلسلة:

إبراهيم

إسحاق

يعقوب

يوسف

موسى

هارون

داوود

سليمان

أيّوب

يونس

زكريا

يحيى

عيسى

بينما لا نجد مثل هذه السلسلة في آل إسماعيل وإن دخل فيها إدريس وهود وصالح ومحمّد صلّى الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين.

إلا أنّ المسافة الزمنية من محمّد صلّى الله عليه وسلَّم إلى إسماعيل هي أطول منها، من آخر نبي من آل إسحاق إلى إسحاق، بحوالي ستمائة سنة على الأقل ما بين عيسى ومحمّد صلّى الله عليهم وسلَّم.

ولهذا، التواصل اليومي بيننا وبين أبينا إبراهيم جعل المسافات تتلاشى الأمر الذي قرب إلينا إبراهيم زمنا وأبعد إدريس للسبب نفسه والله أعلم.

ثُم إنّ القول الفصل الذي يقطع قول كل خطيب في أن إدريس صلّى الله عليه وسلَّم هو من ذرية إبراهيم آيتين في كتاب الله تعالى إحداهما جمعت بين نوح وإبراهيم قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوّة وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}388.

388 الحديد 26

والثانية أفردت إبراهيم بقوله تعالى: {ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}389.

مس أيّوب:

أيّوب صلّى الله عليه وسلّم نبي الله عزّ وجلّ المبتلى بأنواع من البلاء التي قدرها الله لتكون عبرة للمعتبر في مسيرة الإنسانية، ومن المهم قبل البحث في موضوع مس أيّوب أن تعيد على ذهن القارئ أنّ أيّوب موصوف من الله عزّ وجلّ بأحسن الصفات ومن أحسنها شرف بالعبودية مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب}390، ومنزه تمام التنزيه منه عزّ وجلّ لوله تعالى عنه {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}391، وهو بعد ذلك من الصالحين الذين اصطفاهم الله للنبوة مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأيّوب وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}392.

لذا؛ فإنّ الحديث عن مس الشيطان لأيّوب ليس حديثا نقصد به تنزيه أيّوب المنزه من الله عزّ وجلّ، ولكنه بحث في الكيفية والحدود التي يمكن لها أن تبين نوع هذا المس وأثره.

ومن المهم أن نبدأ بالتساؤلات المثيرة للبحث ومنها:

ما المس؟

---

389 العنكبوت 27

390 ص 41.

391 ص 44.

392 النساء 163.

وهل كله من الشيطان؟

هل يمكن للشيطان أن يمس الإنسان بمس؟

هل للشيطان تأثير على الأنبياء؟

من الذي له السلطان، الشيطان الطالح أم النبي الصالح؟

متى يتمكن الشيطان من الإنسان؟

نبدأ بالدلالة اللغوية للمس، مس، قال الفراء: المِسُّ: الجنون. والعرب تقول: رجل ممسوس. والمِسّ يكون في الخير والشر393.

المس أوّل ما يحس كقوله ولم نجد مَسّا من النَّصَب هو أَوّل ما يُحَسُّ به من التَّعب، وللجُنون كأَن الجن مَسَّتْه يقال به مَسٌّ من جنون394.

الفرق بين اللمس والمس: أنّ اللمس يكون باليد خاصة ليعرف اللين من الخشونة والحرارة من البرودة، والمس يكون باليد وبالحجر وغير ذلك ولا يقتضي أن يكون باليد ولهذا قال تعالى: "مستهم البأساء"، وقال: "وإن يمسسك الله بضر".

المس: لصوق فقط.

المس: إيصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة395.

المس الجنون الناشئ عن أذى الشيطان للإنسان، لا من عاهة396.

393 تهذيب اللغة، ج 4، ص 251.

394 لسان العرب، ج 6، ص 217.

395 الفروق اللغوية، ج 1، ص 320.

المس ملاقاة ظاهر الشيء ظاهر غيره، وهو اجتماع التقاء بزمن من غير نقصان، وقال الراغب المس كاللمس لكن قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، والمس يقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس وكني به عن النكاح.

وكني بالمس عن الجنون والمس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى بخلاف اللمس397.

فالمس على ما جاء من تعريفات أثر لشيء في شيء، ماديا كان أم معنوي ولكنه أثر ظاهر ولا شك، بمعنى أن يظهر أثر لمس الأوّل في الثاني بوجه من الوجوه.

هنا نتساءل:

هل للشيطان أثر على الإنسان؟

تقوم فرضية أن للشيطان أثر من نوع ما على الإنسان على نصوص القرآن الكريم الذي أخبرنا بما كان من إبليس (الشيطان الأكبر) في مشاهد الحوار بين يدي الله عزّ وجلّ، وتتمثل على وجه التحديد بقوله تعالى الذي يخبر عن طلب إبليس متحديا: {فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}398.

---

396 معجم لغة الفقهاء ج 1، ص 424.

397 التعاريف، 655.

398 الحجر 36-42.

هنا التحدي كان من إبليس بالغواية الجماعية واستثنى من التحدي (العباد المخلصين). ولكن هذا التحدي لم يكن بما يمتلك من قدرات بل بما مُنح من إذن من الله تعالى لأفعال يصيب بها من يريد أن يصاب بفعل الشيطان مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفي بِربّك وَكِيلًا} 399.

وعليه: فإنّ من المؤكد أن للشيطان أثر على بعض بني آدم، ومن هذه الآثار:

1 . الإغواء:

الإغواء هو محاولة استمالة الإنسان باستهداف شيء فيه، مادي أو معنوي لغرض استمالته نحو مراد الغاوي. ولما أصر إبليس على المعصية برفضه الامتثال لأمر الله تعالى وخاصم ربه فيما ينبغي التسليم لحكمه، أيقن أنه قانط من رحمة الله، لذلك كان سعيه وجهده وعمله ينصب على إغواء آدم وزوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، قال تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}400.

وكذلك لما أيقن إبليس أنه يائس من رحمة الله تعالى طلب النِظرة كما أسلفنا ليغوي من ذرية آدم من يستطيع أن يغويه، فكان إمهاله في

399 الإسراء 62-65.

400 طه 120 - 121.

الدنيا، ليزداد إثمًا فوق إثمه الذي ارتكبه بعصيان أمر ربه، ليستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون بذلك رأس أهل الشر في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر، لذلك أقسم بعزة الله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}401.

لكن الله سبحانه وتعالى أتم نعمته على آدم فحذره من الخطر الذي يحيق به وبزوجه وذريته من بعد وعلى وجهين:

الأوّل: أشهده بالرؤية المباشرة والسمع المحض ما كان من كره إبليس لأدم وحقّده عليه وتكبره، ثم التصريح بالتوعد الإغواء لأدم وذريته، وهي عبرة كان الأولى لأدم أن يعتبر بها.

الثاني: أنه لما كان الله يعلم بنسيان آدم وقلة اعتباره بالآيات كان تحذير الله له من وساوس الشيطان التي يقصد بها إغواء آدم وزوجه ليتبين فيما بعد عدم أحقّيته بالسجود له، والى جانب التحذير كانت عوامل الطمأنينة على المعاش، فلا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى وهذه هي أهم حاجات آدم وزجه التي أغناه الله بها عن الحاجة إلى من سواه مصداقا لقوله تعالى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى}402.

2 . الوسوسة:

ومن هذه اللحظة بدأ التخطيط للانتقام من آدم وذريته حيث كانت الوسوسة هي المفتاح الموصل إلى الغرض، إذ أن الوسوسة تعني

401 ص 82 -83.

402 طه 117-119.

تكرار حديث معين أو ترديد الفكرة بصوت خافت على المتلقي ممّا يوحي بأهمية الأمر المراد إيصاله للمتلقي من عدة جوانب:

الأوّل: إعادة الفكرة وتكرارها مرة بعد مرة من أجل الإقناع بها وترسيخها.

الثاني: أن التكلم بهمس يشعر المتلقي بأهمية الأمر وفائدته، واقتصار هذه الفائدة على المتلقي محبة به.

الثالث: الكلام همسا يكون بمثابة كشف سرّ لمن يحبه وهو أدعى للتصديق.

الرابع: طبيعة النفس الإنسانية تصغي بجوارحها للحديث الخافت شعورا بأهميته.

الخامس: القَسَمُ الكاذب لإبليس وضع نهاية لصدق الوسوسة.

3 . القعود:

إنّ الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وقبول توبته بها، لم تكن لتلقى رضا إبليس، بل زادته حنقا وحسدا مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}403. فقد عاهد نفسه أن يقعد للإنسان بكل سبيل يزين له المعصية ويصده عن الطاعة، فقد زين الشيطان للإنسان الكفر والقتل والزنا وشرب الخمر ولم يكتفِ بذلك، بل تعهد أن يتخذ منهم نصيبا مفروضا وكأن ذلك إرثٌ له وذلك لسببين:

الأول: الثقة المفرطة في النفس وهي من صفات إبليس ومن تبعه.

---

403 الأعراف 16- 17.

الثاني: علمه بأن سيكون له أتباع لا يعصونه فيما يأمرهم به.

4 . الإضلال:

لذلك قال تعالى على لسانه: {وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ}404.

إن المتتبع لما صدر من بعض بني آدم سابقا وهو مستمر إلى الآن بشكل أعظم دليل على تحقّق صدق إبليس (وهو كذوب):

1 . إضلال بعض بني آدم وهذا لا يخفي على عاقل.

2 . قطع آذان بعض الأنعام على أنها نذر تترك سائمة لا تُردّ ولا يؤكل لحمها ولا يشدّ عليها رحل.

3 . تغيير خلق الله بعمليات جراحية لغير استشفاء أو علة مرض.

ولعلم الله تعالى بالقدرات التي منحها لإبليس، والطاقات الكبيرة التي يستطيع أن يصل بها إلى غرضه، فقد حذر الله تعالى عباده منه كي يقيم عليهم الحجّة حيث قال تعالى: {يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}405.

قبل الدخول في تفصيلات هذا التأثير نعتقد أن من المهم فهم حقّيقة غواية إبليس، وذلك لان إبليس نسب غوايته إلى فعل الله سبحانه وتعالى كما أخبر المولى عزّ وجلّ (فَبِما أَغْوَيْتَنِي)" يدل على أنّه

---

404 النساء 118 -119.

405 الأعراف 27.

أضاف إغواءه إلى الله تعالى، وقوله في آية أخرى: {فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}406، يدل على أنه أضاف إغواء العباد إلى نفسه.

والإغواء إيقاع الغي في القلب، والغي هو الاعتقاد الباطل وذلك يدل على أنّه كان يعتقد أن الحقّ والباطل إنما يقع في القلب من الله تعالى407.

بقي الآن أن نقف على طبيعة هذا الإغواء لكي يتلمس المؤمن طريقه بعيدا عن مسالك الإغواء. ولن نجد أدل من حوار إبليس نفسه- كما أخبر عنه المولى عزّ وجلّ- دليلا يجلي الغموض عن مسالك الإغواء وعلى النحو الآتي:

أ- (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أي بقدرتك على ونفاذ سلطانك في لأقعدن لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنّة، بأن أزين لهم الباطل، وما يكسبهم المآثم، وفيه أبحاث:

البحث الأول: المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها، ولهذا المعنى، ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

والبحث الثاني: إنّ هذه الآية تدل على أنه كان عالما بالدين الحقّ والمنهج الصحيح، لأنه قال: (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم) وصراط الله المستقيم هو دينه الحقّ.

---

406 ص 82.

407 تفسير الرازي، ج 7، ص 53.

البحث الثالث: الآية تدل على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من المذهب والاعتقاد هو محض الغواية والضلال، لأنه لو لم يكن كذلك لما قال: (فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى) وأيضا كان عالما بالدين الحقّ،"408، ولولا ذلك لما قال: (لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم).

ب – التزيين: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}409.

والتزيين: التحسين، أي جعل الشيء زينا، أي حسنا. وحذف مفعول لأُزَيَنَنّ لظهوره من المقام، أي لأزينن لهم الشر والسيئات فيروها حسنة، وأزيّن لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات410، وتزيين إبليس هو في حقّيقته تزييف وذلك بطمس الحقّيقة أو جزءا منها فيخفي الشائن ويظهر المحاسن، وهو يخالف مبدأ التزيين الإلهي الذي تنص عليه الآية الكريمة، {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}411.

ج – بالاحتناك، {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}412.

لأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم: حنك الدابة واحتنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به. وقال البعض لأستأصلنهم وأهلكنهم بالإغواء من قولهم: احتنك الجراد الأرض إذا أهلك نباتها

408 تفسير الرازي، ج 7، ص 55.
409 الحجر 39.
410 تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 480.
411 الحجرات 7.
412 الإسراء 62.

وجرد ما عليها واحتنك فلان مال فلان إذا أخذه وأكله[413]، ويلاحظ أن في هذا اللفظ إذلال كبير لآدم وبنية حيث يدعي إبليس لعنه الله أن قادر على قيادتهم كما تُقاد البهائم إلى غير هدى؛ فالاحتناك هنا جاء على المعنى المجازي ويقصد به الحقّيقة، "ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية. عن حالته التي يكون فيها متصلا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقا واحدا تسلكه بلا إرادة. فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب[414].

د- بالاستفزاز: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ}[415]، "والاسْتِفْزازُ: الاستخفاف، واستفزَّني فلانٌ: استخفَّني حتى خدعني لما يريده"[416].

هـ - بالأقران: (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ).

و - بالمشاركة: (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ).

أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقّه أو وضعه في غير حقّه ويدخل فيه الرّبا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة، وأما

413 تفسير الالوسي، ج 11، ص 8.

414 تفسير الظلال، ج 5، ص 32.

415 الإسراء 64.

416 تفسير اللباب، ج 10، ص 340.

المشاركة في الأولاد فذكروا فيه وجوها عديدة من أبرزها الدعوة إلى الزنا417.

ز- بالوعود الكاذبة: {وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}418.

تتعدد وعود إبليس ونعتقد أن وعوده غالبا ما تلاحقّ الحاجات المفقودة عند الإنسان فيدخل من خلالها إلى قلبه شيئا فشيئا حتى يجد له نقطة ضعف يستمكن له فيها موقعا ينطلق فيه إلى جر هذا الإنسان إلى المعصية. "ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة؛ وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة.

فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرّحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة"419.

أفعال الشيطان:

بين الله عزّ وجلّ أن للشيطان أفعال يجب على المؤمنين تجنبها، لأنهم بالانصياع إلى وسوستها يكونوا من أولياء الشيطان وهي:

1 . خطوات الشيطان، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا مِمّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}420. الوعد الكاذب، {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ

417 تفسير الرازي، ج 10، ص 86.

418

419 تفسير الضلال، ج 5، ص 33.

420 البقرة 168.

بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}421.

الاستزلال، {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}422.

التخويف، {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}423.

الاقتران، {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النّاس وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}424، {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرّحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}425.

الضلال، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}426.

المولاة، {الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}427.

الأماني، {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}428.

---

421 البقرة 268.

422 آل عمران 155.

423 آل عمران 175.

424 النساء 38.

425 الزخرف 36

426 النساء 60

427 النساء 76.

428 النساء 120.

التزيين، {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}429.

الإنساء، {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}430.

النزغ، {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}431.

المس، {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}432.

. الرجز، {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماء مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ}433.

. الإلقاء، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}434.

. الصد، {وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}435.

---

429 الأنعام 43.

430 الإنعام 68.

431 الأعرف 200.

432 الأعراف 201.

433 الأنفال 11.

434 الحج 52.

435 الزخرف 62.

. التسويل والإملاء، {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}436.

. النجوى، {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}437.

. الاستحواذ، {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}438.

القول، {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}439.

. الإيحاء، {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}440.

المؤازّة، {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}441.

تعرض الشيطان للأنبياء:

ورد تعرض الشيطان لبعض الأنبياء في أجسامهم ببعض الأذى، وعلى خاطرهم بالوسوسة، مع حفظ الله عزّ وجلّ لهم بعدم تمكن الشيطان من إغوائهم، أو إلحاق ضرر بهم يضرّ بالدين، وبدأ التعرض

436 محمد 2526.

437 المجادلة 10.

438 المجادلة 19.

439 الحشر 16

440 الأنعام 121.

441 مريم 83.

كما عرضنا من قبل مع آدم صلّى الله عليه وسلَّم، مصداقا لقوله تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه).

ثم مع موسى صلّى الله عليه وسلَّم، {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}442.

وعن يوسف صلّى الله عليه وسلَّم مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}443.

وخاطب الله عزّ وجلّ نبيه محذرا من نزغ الشيطان: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}444.

وهذه كلها تؤكد أن الشيطان يتعرض للإنسان بعوارض يصيبه فيها ببعض الضّرّ وممّا يستهدف إصابتهم بالضّرر الأنبياء والرّسل، لاسيما في أمور لا تخص العقيدة بل تخص شخوص الأنبياء والرّسل.

ولكن الله عزّ وجلّ ذكر أمرا بين لنا فيه قدرة الشيطان على التداخل مع الأنبياء والرّسل في أكثر ممّا ذكرنا فقال عز من قائل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ

---

442 القصص 15.

443 يوسف 100-101.

444 الأعراف 200-201.

فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}445، وتفسير هذا الأثر يحتاج إلى تفصيل الحديث.

فقوله: من رسول ولا نبي نص في العموم، فأفاد أنّ ذلك لم يعدُ أحدا من الأنبياء والرّسل. وعطف (نبي) على (رسول) دالّ على أنّ للنبي مَعنى غيرُ معنى الرّسول:

فالرّسول: هو الرّجل المبعوث من الله إلى النّاس بشريعة. والنبي: مَن أوحَى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقةٍ أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشّرائع كلها فالنبي أعمّ من الرّسول، وهو التحقّيق.

والتمنّي: كلمة مشهورة، وحقّيقتها: طلب الشيء العسير حصولُه. والأمنية: الشيء المتمنّي. وإنما يتمنى الرّسل والأنبياء أن يكون قومهم كلُّهم صالحين مهتدين، والاستثناءُ من عمومهمِ أحوال تابعة لعموم أصحابها وهو {من رسول ولا نبيي}، أي ما أرسلناهم في حال من الأحوال إلاّ في حالِ إذا تمنّى أحدُهم أمنية ألقى الشيطان فيها الخ، أي في حال حصول الإلقاء عند حصول التمني لأنّ أماني الأنبياء خيرٌ محض والشيطان دأبُه الإفساد وتعطيل الخير.

والإلقاء حقّيقته: رمي الشيء من اليد. واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد تشبيها للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين النّاس. ومفعول (ألقى) محذوف دلّ عليه المقام لأنّ الشيطان إنما يلقي الشر والفساد، فإسناد التمني إلى الأنبياء دل على أنه تمنّي الهدى والصلاح، وإسناد الإلقاء إلى الشيطان دلّ على أنه إلقاء الضلال والفساد.

445 الحج 52.

فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد.

ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرّسول إلقاء ما يضادُّها، كمن يمكر فيلقى السمّ في الدّسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر النّاس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أيمّة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البُرهان، والله تعالى يُعيد الإرشاد ويكرّر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوءَ فعله بالبيان الواضح، فالله بهديهِ وبيانه ينسخ ما يُلقِي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانا، وذلك هو إحكام آياته، أي تحقّيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رِين على قلبه 446.

هنا أثر الشيطان ليس في العقيدة ولكن في المعتقدين بها، لان الشيطان ليس له سلطان على المخلصين وكذلك ليس له سلطان على عقيدتهم الصحيحة ولكن الذي يمكن أن يلقي عليه الشيطان شيء من وساوسه هم عموم النّاس وقبل الوصول إلى درجة الإخلاص في العباد فإذا وصل أحد العموم إلى درجة الإخلاص لم يعد للشيطان أثر عليه أو على عقيدته.

وقال تعالى عن أيّوب: (واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب).

وأيّوب تعرض للمس من أمرين هما:

446 التحرير والتنوير، ج 9، ص 293.

الشيطان مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}447.

حدد أيّوب مس الشيطان في هذا الدعاء بأمرين هما:

مس بنصب

مس بعذاب

أمّا النصب فهو الداءُ، والعذاب هو شعور أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم بأنواع المعاناة الجسدية والنفسية.

هنا نتساءل:

لماذا نسب أيّوب ما نسب إلى مس الشيطان؟

ألم يكن ذلك ابتلاءً من الله؟

لماذا لم ينسب ما أصابه إلى الله؟

نقول: إن أيّوب لم بنسب النصب والعذاب إلى الله عزّ وجلّ لأمرين هما:

أ – إنّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم إذا مسهم ضر نسبوه إلى الشيطان على جهة الأدب مع الحقّ سبحانه لئلا ينسبوا له فعلا يُكره.

447 ص 41- 44.

ب- النبي المكلف لا ينسب العذاب لله لغير المستحقّ، لأنه بذلك يكون أساء الظن بالله، فأيّوب ومن عقيدته الصادقة، ويقينه القوي يعلم أنه غير مستحقّ للعذاب كما يعلم أنّ الله ليس بظلام للعبيد لذلك وجب لعلى أيّوب أن ينسب عذابه إلى غير الله عزّ وجلّ.

الضّرّ مصداقا لقوله تعالى: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}448.

أمّا عن مس الضّرّ فهو يحتاج إلى قراءة متنوعة، تبدأ من القراءة الدلالية وتنهي عن مفهوم مس الضّرّ.

وتعطينا القراءة الدلالة أمور منها:

الخطاب كان على المجاز ولم يكن على الحقّيقة، بمعنى أنّ مسني الضّرّ استعارة والاستعارة مجاز، لان الضّرّ معنوي يشار به إلى دلالة أخرى على المجاز، فليس للضر ما يمس به أيّوب على الحقّيقة بل على المجاز.

الدعاء كان بصيغة التقليل من الأثر مع أنّه كبير، فأيّوب يقول مسني ولم يقل أصابني فهو يصف ما أصابه وصفا يشير إلى نوع من البساطة في الأثر والخفة فيه، مع أنّ الضّرر الواقع به كبير.

أختصر ما أصابه بكلمة واحدة هي (الضّرّ) ولم يفصل فيه.

وهنا يأتي التساؤل:

لماذا كان الخطاب على المجاز والتقليل؟

448 الأنبياء 83-84.

الإجابة يبنها سلوك نعم العبد، فقد كان صابرا، والصابر لا شك أنّه بين صبره إما:

بعدم الاشتكاء.

أو بموجز عرض الحال.

ولو أطال أيّوب في عرض شكواه وأفصح عنها على الحقّيقة وتفاصيلها لكان ذلك ينقص بشكل من الأشكال من صورة الصّبر للصابر أيّوب الذي وصفه العليم الخبير بأنه صابرا ونعم العبد، وهكذا فالقراءة الدلالة كشفت عن ارتقاء مميز في ظن أيّوب بربه جلّ وعلا قابله نعت مطلق في دلالة التنزيه من الله عزّ وجلّ فقد نعته الله بعد نعوت ومنها نعتين لو اكتفي بهما أي مخلوق لكانا حسبة، هما:

عبدنا

نعم العبد

لأنّه ليس بعد هذين النعتين فضل يمكن أن يكسبه إنسان في الدنيا والآخرة على حد سواء.

فما هو نوع الضّرّ الذي مس أيّوب؟

نقول: إنّ أيّوب لم يفصح عن نوع المس الذي أصابه بالضّرّ صبرا عليه، ولكن الله عزّ وجلّ بين ما أصاب أيّوب من أوجه الضّرّ ليبين للناس نوع الصّبر الذي تحلى به أيّوب مستمدا ذلك من عقيدة راسخة بالله عزّ وجلّ وتعلقا بأسباب الرّحمة منه وحده، والضّرّ الذي ذكره الله عزّ وجلّ هو:

العجز ودلالته كشفه بالركض (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ).

أسقام الجسد الظاهرة ودلالته (هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ).

الحرمان من الأهل ودلالته (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ).

اليمين المضر ودلالته (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ).

ولعل سائل يسأل كيف أمكن لنا تحديد مس الضّرّ؟

نقول: إنّ التحديد جاء بناءً على الكشف الإلهي للضر، يقول المولى عزّ وجلّ عن كشف مس الضّرّ: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}449.

ونستعرض أوجه الضّرّ التي أوحى بها الله عزّ وجلّ، وأولها العجز، لقد بين الكشف أن الله رحم أيّوب بأن وهبه الركض برجليه وهو إشارة إلى طبيعة الضّرّ السابق، فالركض يمثل أقصى حركة يمكن أن يؤدّيها الإنسان وعليه فلابدّ أن يقابلها أن أيّوب كان مضرورا بالحرمان من أدنى حركة، لذا فدلالة العجز واضحة من حيث كونه لم يستطع أن يؤدّي ولو حركة من الحركات التي تعينه على أمور دنياه، هنا نتساءل:

كيف يفعل أيّوب وهو عاجز مع العبادات؟

لا شك أنّ العبادة من أوليات الصالحين عموما والأنبياء والرّسل خصوصا، والغريب الذي رأيناه في كتب التفسير وغيرها أنها تحدثت في أمور كثيرة وصل بعضها إلى اتهام أيّوب بارتكاب ذنب كبير، وأهملت الحديث عن الطاعات التي كان يؤدّيها العبد الصابر الأواب أيّوب، وكان من المهم بمكان أن تتطرق البحوث حول أيّوب إلى عبادته وهو عاجز!

---

449 الأنبياء 83.

نحن نقول: أنه لاشك أن أيّوب كان يؤدّي عباداته على أكمل وجه ولا مجال للشك في ذلك عندنا وعند كل صاحب يقين بالله وملائكته ورسله وما يؤكد اعتقادنا الجازم هو قوله تعالى عن أيّوب: (اذكر عبدنا) وهو دليل على إقرار أيّوب بالعبودية لله عزّ وجلّ ولاشك أن العبودية لم تكن إنما مجرد قول ملفوظ بل هي عقيدة وسلوك على وفق ما كان مطلوب منه من أداء العبادات آنذاك في زمنه والتي أوحي بها الله عزّ وجلّ إلى أيّوب من خلال الوحي بالنبوّة وتفاصيلها كما ذكر الله عزّ وجلّ: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيّوب وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}450.

ويمكن أن نحدد الكيفية التي كان أيّوب يؤدّي فيها عباداته.

فمن المعروف أن الله عزّ وجلّ أرسى قاعدة لجميع البشر رحمة منه عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 451، وبناء على هذه القاعدة نعتقد أن أيّوب كان يؤدّي العبادة بالمستطاع وهو اللسان والقلب وربما حركة الإيماء في الصلاة، وهي عبادة كاملة.

هنا قد يتساءل متسائل:

كيف تكون العبادة من غير طهارة؟

---

450 النساء 163.

451 البقرة 286.

نقولّ إنّ مرض أيّوب ليس فيه ما يدل على ما ينقض طهارته للعبادة، وإن كان فلابدّ أن أيّوب استعان بمن يعينه على الطهارة للعبادة، وهي زوجه كما نظن، ولعل هذا الأمر كان من الأمور التي اهتم بها أيّوب في طلب الرّحمة إذ كان يرى في نفسه رغبة في القيام بالطاعات والعجز يمنعه عن أدائها على أكمل وجه، وهذا أمر موجب لطلب الرّحمة ولم يكن من شكوى من أيّوب بل كان طلبا تدفع به الرغبة إلى القيام بطاعة الله عزّ وجلّ.

أمّا مس الضّرّ الثاني فكان ظاهر في أسقام الجسد ظاهرا وباطنا، فأمّا الظاهر منها فدل عليه قوله تعالى (هذا مغتسل) دلالة على أنّ هناك ما يحتاج إلى الغسل ليذهب بهذا الماء المبارك من الله عزّ وجلّ.

أمّا الأسقام الباطنة فيدل عليها قوله تعالى: (وشراب)، فالمؤكد أنّ أيّوب كان يشرب من قبل ولم يكن على حالة من العطش ليكون الماء للشراب، بل كان على درجة من مس الضّرّ الباطن لجسده، فكان الشراب ليدخل هذا الماء إلى الباطن ليكون علاجا من تلك الأسقام.

وبعد نتساءل:

هل نال الضّرّ من عقيدة أيّوب؟

نقول: إنّ الصيغة التي عبر بها أيّوب عن مس الضّرّ كانت ولاشك تشير إلى مسألة محددة هي أنّها مس، والمس يكون في الغالب الأعم للظاهر، ولذلك فنحن نعتقد جازمين أن العقيدة بقيت سليمة عن أي مس بضر بل كانت على أكمل وجه من العافية، وبذلك نرفض كل ما قيل في كتب التفاسير عن أن أيّوب انصرف في بعض الأمور إلى وسوسة الشيطان فدعا ربه إني مسني الضّرّ، ونحن نرفض مثل هذه الأقوال التي لا تتناسب مع عبد محمود من الله عزّ وجلّ بأحسن

الصفات وأتمها مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

مس الضّرّ الآخر هو الحرمان من الأهل، معلوم أن الأهل أهل: كلمة جامعة لمن هم ينتمون لآل، ولمن ينتمون لآل غيرها، كأهل الكتاب الذين هم ليسوا بآل في شيء وهم (اليهود والنصارى، أهل التوراة والإنجيل)، فأهل الكتاب منهم بعض العرب ومنهم آخرين من غير العرب، ولهذا؛ فهم يتحدون في كلمة (أهل الموضوع) ولا يتحدون في كلمة (آل الدم والأصل).

الأهل يكون من حيث العلاقة الاجتماعية والاختصاص، فمن جهة العلاقة الاجتماعية قولك أهل الرّجل، ومن جهة الاختصاص قولك أهل البصرة وأهل العلم.

والأهل هم ذوو القربى من جانب الأب والأم ممّا يجعل الأعمام كالأخوال في علاقة نسب ومصاهرة تقرب العلاقات بين الأجداد والأحفاد من الجانبين الذين منهما (الأب والأم) ويمتد مفهوم الأهل ليشمل العشيرة التي منها الأب وكذلك العشيرة التي منها الأم.

كما إنّ الأهل اندماج اجتماعي بقرابة الدم وبغيرها ممّا يجعل للمكان المشترك خصوصية تسمح بالانتساب والانتماء إليه، ولذلك يقال: أهل القرية وأهل الحي، وأهل المدينة.

لذلك؛ فإنّ الضّرّ الذي أصاب أيّوب جاء بالحرمان من هؤلاء الأهل اتساع دلالة الأهل، فالضّرّ هنا يحمل دلالة عاطفية تتمثل في حب أيّوب لأهله، ودلالة مادية تتمثل بالحرمان مما يقدمه الأهل من منافع مادية للأب الذي يرى فيهم العون والسند على قضاء أمور الدنيا لأنّهم لا يغنون لا له ولا لغيره عن أمور الدين.

والآية تكشف عن حرمان متمثل بالموجود وبالمأمول، بمعنى أنّ مس الضّرّ أصاب الموجود من أهل أيّوب بدلالة قوله تعالى (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ).

والمأمول من الله عزّ وجلّ أن يريد عبده أيّوب، فالأمل معقود برحمة الله عند أيّوب أن يزيده عطاء على عطاء لذلك كانت الاستجابة لما كان في نفس أيّوب من أمل في الله عزّ وجلّ من كشف الضّرّ والبركة في العطاء، وكأن الله عزّ وجلّ أحيا ممّا أحيا في أيّوب أمله في زيادة الولد فقال عز من قائل: (وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

وما كان ذلك كله إلا رحمة من الله بأيّوب وله خاصة، وعبرة تذكر لدى أولي الألباب.

فإذا عرفنا مس الضّرّ، وأنواع الضّرّ الماسة لأيّوب والمكشوف، لنا أن نتساءل:

بأيّ قدرة كُشف مس الضّرّ عن أيّوب؟

نقول إن كشف مس الضّرّ كان باسم الله الضّار

إنّه الضّار "لمن فعل الأسباب التي توجب ذلكٍ"452.

في أَسماء الله تعالى "النّافع الضّار وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها الضّرّ"453.

---

452 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 99.

453 لسان العرب، ج 4، ص 482.

الضّرّ ضد النفع454، ومع أنّ الضّرّ ضد النفع من حيث تقريب المعنى للقراء، إلا أنّ الضّار في أسماء الله الحسنى هو النّافع، فهو لا يضرّ لغاية الضّرر ولكنّه يضرّ لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة.

الضّار اسم من أسماء الله الحسنى وفيه صفة لازمة للذات الإلهية لا تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها، لأنّ المقابلة تحفظ التوازن المنطقي وإن كان الله تعالى غني عن هذا، ومِنْ النّاس مَنْ لا يفهمون مِنْ معنى هذه الصّفة إلا سلبا، وهذا غير صحيح فلا صفة سلبية في صفات الله تعالى، فكل صفاته كمال وجلال وجمال.

وعليه: فإنّ إلحاق الضّرر بالضّرر هو فعل موجب، وهو عمل خير، من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها، فالله سبحانه يوقع الضّرر فيمن يريد الضّرر والإفساد؛ لأنه سبحانه يرسل الرّسل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة، وأمرهم بالصلاح بما فيه منفعتهم، وهذه عاقبة الذين دأبوا على الفساد وإلحاق الضّرر بالآخرين وبأنفسهم. وهذا الضّرر الذي حل بهؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعلين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها، وذهب كثير من العلماء إلى وجوب عدم إفراد الأسماء المقترنة كالضّار والنّافع والخافض والرافع، ونحن نرى غير ذلك، لذلك أفردنا هذا الاسم ليتم التبيُّن والوضوح الموجب في هذه الصّفة التي لا سالب فيها كما يظن البعض، ولهذا فكل ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى، وما في الوجود من غير ذلك فمن عدله، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه حقّ وعدل، فالضّار والضّرر ليس معناه من الله تعالى هو الأذى والشر، وإنما هو حكمة العدالة الإلهية في موازنة الخلق والمحافظة على استمرار الحياة عدلا.

---

454 لسان العرب، ج 4، ص 482.

الضّار للضرر نافع، ولذا فالنّافع هو الذي يلحقّ الضّرر بمن يضرّ أو بما يضرّ، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيحقّ اللَّهُ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}455.

إنّ الاعتقاد والإقرار بأنّ الإنسان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا بإرادة الله تعالى هي من متممّات الإيمان، وهو دليل أنّ الضّرر المطلق بيد الله تعالى وليس من أجل الضّرر نفسه وإنّما من أجل دفع مفسدة أو جلب منفعة، واتقاء الضّرر من الله تعالى أنه أمر واجب لأنّه لا سبيل إلى صون الأرواح والنفوس من الهلاك إلا بسبب أو واسطة، وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو أمر مباح شرعا لأنّ الله تعالى يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}456.

وعليه: فالضّار جلّ جلاله: هو الذي يضرّ بالضّرر والضّار من دونه، لأجل النفع، ولهذا فالضّار هو النّافع، الذي يضرّ الضّرر حتى النهاية، وهو الذي يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغ حتى يزهقه مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}457. ولأنّ الضّار جلّ جلاله ضرره نفع فهو كائد كيد المكيدين وماكر بمكرهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ

455 يونس، 80 ـ 82.

456 البقرة 195.

457 الأنبياء 16 ـ 18.

كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}458، وقال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}459.

والضّار جل شأنه يظهر في آيات ومعجزات الضّرر الحاصل من المشاهدة بالبصر وانطباع صورة الضّرر الواقعة على الأشياء لذلك كان الوجوب بحكم هذه الصّفة أنها ضرر مخصوص أي لا يتعلق إلا بالموجود من خلال إدراك الآثار الناتجة عن الفعل، إنّ الضّار سبحانه وتعالى لم يجعل هذا الاسم من أسمائه الحسنى إلا لما فيه من الخير والرّحمة الذي يعود على الخلق والبلاد والعباد فهو كما يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}460، ولهذا فالضّار المطلق جل شأنه يدفع بالضّرر الأصغر الضّرر الأكبر وهذا هو الحاصل مع أيّوب صلّى الله عليه وسلّم إذ كشف الضّار جلّ وعلا الضّرّ عنه بإلحاق الضّرّ بضره ليحصل النفع.

يمين أيّوب:

الحلف: هو اليمين، وهي: توكيد الحكم بذكر مُعَظَّم على وجه الخصوص. والتعظيم: حقّ لله تعالى، فلا ينبغي الحلف بغيره، فقد أجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله، أو بأسمائه وصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، والحلف بغير الله شرك؛ لما روى ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"461. أما يمين أيّوب صلّى الله عليه وسلّم

458 الطارق 125 . 17.

459 آل عمران 54.

460 البقرة 216

461 مسند الإمام احمد، ج 10، ص 249.

الذي نحن بصدده فلم ترد الصيغة التي تبين حقّيقته، إلا أنّ إشارة توحي بأنّه تحقّق مصداقا لقوله تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}462.

والإشارة هي لا تحنث.

وقد قيل حول يمين أيّوب الكثير من المقولات سنحاول أن نعرض لبعضها في إطار واحد ثم ندلو بدلونا في الموضوع.

قيل إنّ البر باليمين فقد اتخذ شكلا أراده الله تعالى أن يكون عبرة وعظة للخلق أجمعين، فقد تمثل فيه الرأفة والرّحمة بهذا النبي الصبور وزوجه، فضلا عن ذلك فقد دخل الحيز الفقهي وقد فصَّل الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ القول في الحيل الممنوعة على المفتي وما هو مشروع له حيث قال:

"لا يجوز للمفتي تتبع الحيل المحرمة والمكروهة، ولا تتبع الرخص لمن أراد نفعه، فإن تتبع ذلك فسق وحُرِمَ استفتاؤه، فإن حَسُن قصده في حيلةٍ جائزة لا شبهة فيها ولا مفسدة، لتخليص المستفتي بها من حرج جاز ذلك، بل استحب وقد أرشد الله نبيه أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم إلى التخلص من الحنث بأن يأخذ بيده ضغثا فيضرّب به المرأة ضربةً واحدة. وأرشد النبي صلّى الله عليه وسلَّم بلالا إلى بيع التمر بدراهم، ثم يشتري بالدراهم تمرا آخر، فيخلص من الرّبا.

فأحسن المخارج ما خلّص من المآثم وأقبح الحيل ما أوقع في المحارم أو أسقط ما أوجبه الله ورسوله من الحقّ اللازم والله الموفق للصواب"463.

---

462 ص 44.

اصطفي الله تعالى الأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم من بين خلقه كي يأخذوا بأيدي النّاس نحو مرضاته التي يتمثل فيها كل ما يريده جلّ جلاله من إتباع لأوامره ونواهيه، هذا الأخذ لم يخرجهم صلّى الله عليهم وسلَّم من دائرة البشرية التي ينتمون إليها فقد أصابهم ما أصابهم من ابتلاءات ومحن جعلتهم المثل الأعلى حين يطرح أي بلاء يتعرض له النّاس ضمن سياق الحياة المختلفة التي لا تترك أحدا إلا وقد مرت به مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}464.

فالكبد "هو أنّه ليس في هذه الدنيا لذة البتة، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإنّ ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر"465 هذا المعنى يمكن القول عنه أنّه عام لكل الخليقة، ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل رسله من البشر وليس من غيرهم، إذ يقول تعالى: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}466، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}467، فالأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم هم قدوة للناس في الابتلاءات، وهذا يفسر لنا سبب كون الرّسل من البشر وذلك من خلال:

463 موسوعة الرد على المذاهب، ج 52، ص 496.

464 البلد 4.

465 تفسير الرازي، ج 17، ص 24.

466 إبراهيم 11.

467 الكهف 110.

1- إنّ البشر أقدر على القيادة والتوجيه وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة وهذه الحكمة تظهر حين التأمل في رسالة أي رسول منهم.

2- صعوبة رؤية الملائكة نسبة لاختلاف طبيعته الملائكة وطبيعة البشر؛ إذ الاتصال بالملائكة فيه عناء وجهد شديدين لا يحتمله جميع البشر فقد جاء في الحديث إن الرّسول صلّى الله عليه وسلَّم كان يعاني من التنزيل شدة وكان إذا نزل عليه الوحي تغير لونه، وتصبب عرقه، وارتعدت فرائصه وكان من حوله يرون ذلك فيه فكان إرسال الرّسل من البشر ضروريا كي يتمكنوا من مخاطبتهم والفقه عنهم والاختلاط بهم، ولو أرسل الله ملائكة لما أمكنهم ذلك.

3- إنّ الرسالة تقوم على تكليف المرسل إليهم ودعوتهم لامتثال ما يأمرهم به الرّسول فلو كان الرّسول من الملائكة لأمكن النّاس أن يحتجوا بعدم قدرتهم على هذه التكاليف نسبة لاختلاف طبيعة الملك المرسل؛ إذ يرون أنهم لا يستطيعون تحمل تلك التكاليف؛ لأنها تناسب طبيعتهم. لذا قال الله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السّماء مَلَكًا رَسُولًا}468.

أمّا مقتضى بشرية الرّسل صلّى الله عليهم وسلَّم، فلما كانت الرّسل بشرا فقد استلزم ذلك أن يتصفوا بكل صفات البشر ممّا لا ينافي النبوّة ومن ذلك:

1- أنّهم خلقوا من جسد كسائر البشر تحتاج أجسادهم إلى ما يحتاجه سائر البشر من طعام وشراب واحتماء من البرد والحر والإصابة بالمرض والموت قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ

---

468 الإسراء 94 – 95.

فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}469 وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}470 وقال الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السّلام: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}471 وقد أخرج من أرضه وأهله.

وابتلي عيسى صلّى الله عليه وسلَّم بالكيد له لقتله حتى رفعه الله تعالى إليه وجعل مكانه رجلا يشبهه فصلب وابتلي رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم بالإيذاء الشديد من قومه والذين أخرجوه من أهله وغير ذلك. وقد سأل الصّعب بن سعد رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم قال: قلت يا رسول الله: أي النّاس أشد بلاء؟ قال (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل).

ومن أهم لوازم البشرية أن الرّسل ليسوا بآلهة ولا فيهم شيء من صفات الألوهية ذلك أن صفات البشرية تنافي الألوهية في كل شيء لذلك فإن الرّسل جميعهم لا يدعون لأنفسهم شيئا من الألوهية ويتبرءون ممّا ينسب إليهم لذلك قال الله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}472، وقال تعالى مبينا براءة عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وسلَّم ممّا ينسب إليه: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ

469 النحل 43.

470 الأنبياء 8.

471 الشعراء 79 – 81.

472 آل عمران 79- 80.

لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَربّكمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}473، هذه الحاجة وهذا الاقتضاء يشكلان النسق العام لدعوة الله تعالى التي أراد لها سبحانه أن تسير وفق منهج رباني يمنح الدعوات التأييد والنصرة474.

إن النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم مثل شكلا من أشكال الابتلاء الذي تعرض له الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلَّم، فالابتلاء الذي مر به يطرح ما كان عليه من نعمة أسبغها الله تعالى عليه إلا أنها لم تستمر لحكمة أرادها سبحانه فقد تغير حاله، فلم يكن الفقر هو زائره الوحيد بل كان للمرض الإقامة الدائمة بين جسده حتى حين، إذ تشظت حياته ولم يجد حوله من يركن إليه حتى الأولاد غادروه إلى رحمة الله تعالى، أما امرأته فكانت كالنحلة التي تدور حول الزهور، تحاول أن تلملم جراحه وآهاته التي كانت مثارا لتساؤلات النّاس حين يسمعون أو يمرون من جانب هذا النبي الكريم أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم.

كان أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم يتطلع إلى ما حوله، يرى أنّ كل ما كان حوله قد اختفي، فصحته ذهبت أدراج الرياح ولم يبقى منها إلا اللسان الذي يلهج بذكر الله تعالى، أما الأولاد فأصواتهم اختفت حتى لم يعد لها صدى فقد انسحبوا من حياته كانسحاب الشعرة من العجين دون أن يلحظ ذلك، لم يكن للحسرة مكان عنده بل كان صابرا

473 المائدة 116 – 117.

474 الحاجة إلى الرّسل، ج 1، ص 7 – 10.

محتسبا يحاور نفسه في كيفية الثبات على أمر الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 475.

إنّ كل السياق النبوي فيه عرض لمكنونات إنسانية عامة يكون من خلالها تشكل واضح لأفعال قد تحدث وقد لا إلا أنّها تمثل التصرف الإنساني وفق الجانب الإيجابي النبوي الذي يقابله الجانب السلبي الإنساني حين يتصرف خارج الدائرة الإيمانية، ولهذا ما وقع على الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم يكون مرجعية لكل ما يتعرض له النّاس، فتكون الإحالات مستمرة لان أكثر الابتلاءات قد مر بها الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم من ذلك:

ابتلاء إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِين فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 476.

ابتلاء نوح صلّى الله عليه وسلّم، يقول تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

475 ص 44.

476 الصافات 100 – 110.

أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}477.

ابتلاء يعقوب صلّى الله عليه وسلّم، يقول تعالى: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفي عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}478.

وغير ذلك من الابتلاءات التي أعطت دروسا وعبرا، إذ تمثل فيها المثل الأعلى في الصّبر والتحمل والثبات على العقيدة مهما كانت النتائج.

إنّ ابتلاء النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلّم كان فيها أمرا وصل منه أو نُسج منه قصصا كثيرة ألا وهو اليمين الذي ورد ذكره في قوله تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}479.

واليمين الذي ورد في قصّة أيّوب صلّى الله عليه وسلّم يطرح تساؤلات عدة منها:

من الذي دعا أيّوب صلّى الله عليه وسلّم أن يحلف؟

ما هي مبررات الحلف؟

هل هناك أمرا يتعلق بالعقيدة فاوجب الحلف؟

---

477 هود 45 – 47.

478 يوسف 84 – 86.

479 ص 44.

تخللت حياة أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم إرهاصات مختلفة، فهي حاصلة ضمن أشكال مختلفة تنم عن ابتلاء عظيم لنبي عظيم وابتلاءاته هي:

فقدان الأهل والأولاد منحه الانفراد في مواجهة الحياة وأية مواجهة تلك التي نعتقدها، فالذي نعتقده أنّ مواجهته كانت صعبة للغاية، إذ اشتملت على معاناة قُدر لها أن تستمر لفترة طويلة ممّا أكسبها سمة الرمز، ولهذا نجد أن قصّة النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم بكل ما فيها لم يكن ذكرها ضمن الدين الإسلامي فقط، بل هي موجود عند بقية الأديان، فضلا عن ذلك أنها دخلت التراث الإنساني عامة، فهي وان كانت متعلقة بنبي من أنبياء الله إلا أنها مثلت جانبا إنسانيا عظيما في كيفية الصّبر على البلاء.

إنّ المواجهة لم تكن فردية إنما كانت تسير بنسق زوجي، ذلك أنّ زوجته كانت جزءا مهما من حياته في وقت انسحب منه النّاس انسحاب الجندي المهزوم من معركته يخاف أن ينظر إلى ما خلفه كي لا يرى ما حدث بعده.

إنّ وجود زوجته معه أعطى للإنسانية دلالة عظيمة في التآلف والتكاتف والصّبر على البلاء ووقوف كل زوج بجانب زوجته مهما يكون الأمر الذي قد يتعرض له، فالحياة لا تسير على وتيرة واحدة إنما تسير وفق حركة متموجة يكون فيها:

الفقر والغنى.

المرض والصحة.

الحياة والموت.

هذه الثنائيات خلقت بين النّاس حالة من التآلف رغم أنّ جانبا منها يكون فيه الهلاك والاضمحلال والركون في زويا لم يكن قد ركن إليها الإنسان من قبل، فامرأة أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم كانت مثالا للمرأة الصابرة التي لم تنفك عن العناية بزوجها رغم كل ما أصابه، فمرضه صلّى الله عليه وسلَّم لم يكن مرضا عاديا وبمعنى أن الابتلاء الذي تعرض له لم يُرى عند النّاس من قبل، ولهذا لم نسمع أو حتى أن هناك رواية تقول أن أحد من النّاس أيا كان حاول ولو لمجرد السؤال عن دواء يشفي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، فان كل ما ذُكر كان يدور حول الهروب منه صلّى الله عليه وسلَّم وعدم التقرب منه، وهذا يفسر لنا عظم الأمر الذي كان عليه، وهذا أيضا يمنح زوجته عظم المكانة التي قد تصل إليها أي امرأة في الوقوف إلى جانب زوجها، وان كان القرآن الكريم قد أخبرنا عن زوجات الأنبياء في سياق يبتعد كثيرا عن زوج أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، إذ يقول تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}480، جعل الله تعالى حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي ليُذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صَارِف فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيتِه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرّسول صلّى الله عليه وسلَّم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين 481.هذا المثال يدخل امرأة أيّوب

480 التحريم 10.

481 تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 191.

صلّى الله عليه وسلَّم في دائرة من التفاضل التي تزداد فيها علو مكانتها، أما ما روي عنها فنذكره على سبيل التفنيد لا على سبيل الاتكاء عليه في بلورة رأي يخرج زوج أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم من المكانة العظيمة التي تبوأتها، "كان أيّوب حلف في مرضه أن يضرّب امرأته مائة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال: أحدها: ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيّوب؛ فقال أداويه على أنّه إذا برئ قال أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه. قالت: نعم! فأشارت على أيّوب بذلك فحلف ليضرّبنها. وقال: وَيْحَكِ ذلك الشيطان.

الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيّب، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضرّبنها.

الثالث: ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيّوب على أن يذبح سخلة تقرّبا إليه وأنه يبرأ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضرّبنها إن عوفي مائة.

الرابع قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيّوب، وكان أيّوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضرّبنها، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرّب به، فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضة حشيش مختلطة الرَّطب باليابس. وقال ابن عباس: إنّه إثكال النخل الجامع بشماريخه"482.

إنّ الاختلاف في الوصول إلى السبب الذي من أجله حلف أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم يمنح هذه الأقوال الابتعاد عن الحقّيقة، فلو كان الأمر عظيم ويُخرج امرأة أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم من دائرة الإيمان أو حتى من أي دائرة أخرى يكون فيها الخروج سافرا عن أمر

482 الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج 1، ص 4802.

الزوج لذكره الله تعالى كما ذكر امرأة نوح ولوط، إذ يقول تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}483.

أمّا ما روي "أنّها قطعت الذوائب عن رأسها لأنّ المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات، وذلك أنّها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضرّبنها مائة إذا بريء، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها، وهذه الرخصة باقية، وعن النبي صلّى الله عليه وسلَّم أنّه أتى بمجذم خبث بأمّة فقال: "خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة"484.

فضلا عن ذلك يمكن القول أيضا:

إنّ كل الروايات والأخبار التي وردت عنها توصفها وكأنّها فراشة تحوم حول نبي الله أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، فتقضي حاجته أيا كانت وتحاول أن تخفف عنه آلام المرض ومعاناته.

مرافقتها الطويلة للنبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم طيلة مرضه ولم تتركه وحتى لم تفكر في تركه بل كانت مرافقة وفية له.

إنّ البر بيمين أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لا ينزل من قدرها ن فمكانتها لم تتغير حتى صورة تحقّق البر باليمين كانت تنم عن لطف الله تعالى بها، فهذا الشكل يتبلور فيه الصبغة الإيمانية التي يتلون بها أهل هذا البيت الكريم.

483 التحريم 10.

484 تفسير الرازي ج 13، ص 201.

هذه الأمور وغيرها أكسبا زوجة أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم حلة مجد لا تبلى، فدورها ومرافقتها أكسبا في حياة أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم وبعدها قيمة مهمة ألا وهي دور المرأة في حياة الإنسان، هذا الدور الذي دخل دور التغييب في كثير من الأحيان بوصفها ضعيفة أو هي تجلب العار كما كان يفعل أهل الجاهلية حين كان يئدون بناتهم، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}485، أو عندما يبشرون بالأنثى، يقول تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}486.

هذه المكانة انزوت في مكان مظلم بعيد عن السياق الإنساني في كل تفاصيله، "فالمرأة العربية التي عاصرتْ هذه الأحداث فطِنَتْ إلى ما لم نعرفه نحن إلا قريبا، حيث اكتشف العالم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرّجل وليس إلى المرأة. وكان أبو حمزة كثيرا ما يترك زوجته ويغضب منها، لأنها لا تلد إلا البنات. فماذا قالت هذه المرأة العربية التي هجرها زوجها؟ قالت: مَا لأبي حمزةَ لاَ يأتِينَا غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينا تَاللهِ مَا ذَلكَ فِي أَيْدينا فَنَحنُ كَالأَرْضِ لغارسينا نعطي لَهُم مِثْل الذِي أُعْطِينَا والحقّ سبحانه وتعالى حينما يريد توازنا في الكون يصنع هذا التوازن من خلال مقتضيات النفس البشرية، ومن مقتضياتها أن يكون للإنسان جاه، وأن يكون له عِزّ، لكن الإنسان يخطئ في تكوين هذا الجاه والعِزّ، فيظن أنه قادر على صنع ما يريد بأسبابه وحدها.

485 التكوير 8 – 9.

486 النحل 58 – 59.

إنّما لو علم أن تكوين الجاه والعِزّ بشيء فوق أسبابه هو، بشيء مخلوق لله تعالى، بقدر مخلوق لله تعالى، لو علم هذه الحقّيقة لجاء المسألة من بابها.

ذلك لأنّ العزّة ليست بما تُنجِب. العزّة هنا لله وللرسول وللمؤمنين، اعتزّ هنا بُعصْبة الإيمان، اعتز بأنك في بيئة مؤمنة متكافلة، إذا أصابك فيها ضَيْم فزِع إليك الجميع.

ولا تعتزّ بالأنساب والأنجال، فقد يأتي الولد عاقّا لا يُسعِف أبويْه في شدة، ولا يعينهما في حاجة؛ ذلك لأنك لجأتَ إلى عَصَبية الدم وعَصَبيَّة الدم قد تتخلّف، أما عَصبِيّة العقيدة وعَصَبية الإيمان والدين فلا.

ولنأخذ على ذلك مثالا. ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من تكافل وتعاون فاق كُل ما يتصوره البشر، ولم يكُنْ بينهم سوى رابطة العقيدة وعصبية الإيمان. ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ؟

وجدنا أنّ العصبية الإيمانية جعلت الرّجل يُضحِّي بأنفَس شيء يضِنُّ به على الغير. نتصور في هذا الموقف أن يعود الأنصار بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين، فَمنْ كانت عنده ركوبة أو منزلة مثلا يقول لأخيه المهاجر: تفضل اركب هذه الركوبة، أو اجلس في هذا المنزل. هذا كله أمر طبيعي.

أما نعيم المرأة، فقد طُبِع في النفس البشرية أن الإنسان لا يحب أن تتعدَّى نعمته فيها إلى غيره. لكن انظر إلى الإيمان، ماذا صنع بالنفوس؟ فقد كان الأنصاري يقول للمهاجر: انظر لزوجاتي، أيّهن أعجبتْك أُطلِّقها لتتزوجها أنت، وما حمله على ذلك ليس عصبية الدم أو عَصبيّة الجنس، بل عَصبيّة اليقين والإيمان.

ولذلك، تنتفي جميع العصبيات في قصّة نوح . صلّى الله عليه وسلَّم . وولده الكافر، حينما ناداه نوح صلّى الله عليه وسلَّم: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} 487.

ويتمسّك نوح بولده، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} 488.

فيأتي فَصْل الخطاب في هذه القضية: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} 489.

إذن: هذا الولد ليس من أهلك؛ لأن البُنُوة هنا بُنُوة العمل، لا بُنُوة الدم والنَّسَب.

صحيح أن الإنسان يحب العزة ويطلبها لنفسه، ولكن يجب أن تنظر كيف تكون العزة الحقّيقية؟ وما أسبابها؟

خُذْ العزة بالله وبالرّسول وبالبيئة الإيمانية، يصبح كل الأولاد أولادك؛ لأنهم معك في يقينك بالله وإيمانك به سبحانه. أما أن تعتز

---

487 هود 42- 43.

488 هود 45.

489 هود 46.

بطريقتك أنت، فتطلب العزة في الولد الذكَر، فمَنْ يُدرِيك أن تجد فيه العزة والعِزوة والمكاثرة"490.

إنّ يمين أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لا يمكن أن يخرج زوجته من أي إطار سواء العقدي أو غيره، ذلك أن كل الإحالات وحتى الروايات كانت تدور حول أمر دنيوي لا يمد للعقيد بأي صلة، ولا يخرجها من إطار الخروج عن الزوج ضمن الشكل الدنيوي الذي يكون في نهايته الانفصال، فلو كان يستوجب الانفصال لتحقّق من قبل النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، أمّا تحقّق اليمين فنعتقد أنه كان ضمن أمرا أثار عصبيته صلّى الله عليه وسلَّم فحلف.

لم يذكر القرآن الكريم اليمين بداية بل كانت البداية بالقول: (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ)، هذه الآية الكريمة فيها عدة أمور منها:

إنّ هذه الآية الكريمة الخطاب فيها ينبأ بانّ أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم قد شفا ممّا كان فيه، فصحته قد عادت إليه بمعنى آخر أن كل ما أصابه قد ذهب وعاد إليه كل ما افتقده ومثله، وكذلك عليه أن يبر بيمينه، والذي نعتقده أنّه حلف أن يضرّبها بعد أن يكون قادرا على ضربها، ولهذا لم يأتي ذكر اليمين إلا بعد أن عاد كما كان.

إنّ اليمين يجب أن ينفذ بالطريقة التي يتحقّق فيها، أمّا ما نستشفه من هذه الآية الكريمة أن اليمين لم يكن كفارة في ذلك الوقت، فلو كانت فيه كفارة لكان الأمر يطرح ضمن الشريعة المتحقّقة في ذلك الوقت (إلا أنّ لله الأمر من قبل ومن بعد يفعل ما يشاء وهو العزيز الحكيم).

---

490 تفسير الشعراوي، ج 1، ص 42.

اختيار حزمة من الحشيش أو من الريحان له دلالة عظيمة، إذ يتقابل فيها طرفان (أيّوب – زوجه)، فأيّوب صلّى الله عليه وسلَّم كما نعتقد يحب زوجته، وهذا الحب باركه الله تعالى بان جعل الضَّرّب بشيء بسيط ليس له أي أثر للأذى، أما زوجه فقد ارتقت إلى مرتبة عالية، ذلك أن الله تعالى عندما أمر أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم بضربها لم يكن فيه ما ينقص من قدرها، بل أبقاها تحت كنف أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم بصورة تدعو إلى:

التأمل.

الاستبصار.

التفكر.

الاتعاظ.

إنّ يمين أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم يجب أن يبر بوصفه المتمثل الأوّل لأحكام الله تعالى من أوامر ونواهي، فإذا لم ينفذ فكيف يكون الأمر إذن؟

لم يكن يمين أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم ضمن السياق الذي ذكره الله تعالى بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} 491، إن الهبة هنا كانت ضمن شكل موهوب لكل ما فقده أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم، هذا الفقدان بكل تفاصيله ضاعفه الله تعالى له، فهو يدخل في باب المجازاة التي تتضح ملامحها بعد أن عاد صلّى الله عليه وسلَّم إلى ما كان عليه من صحة وعافية إلا أننا نعتقد أن هناك زيادة قد ظهرت بعد الهبة، كما تمثلت بحل أمر اليمين بشكل

---

491 ص 43.

مثير يتبين من خلاله كرم الله تعالى ولطفه في معاملة عباده، فالعقل المتبصر عندما ينظر إلى هذه النهاية في كل تفاصيلها يرصد فيها:

كرم الله تعالى.

لطف الله تعالى.

عظمة الله تعالى.

جلال الله تعالى.

رحمة الله تعالى.

إنّ المتتبع لحياة النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم يجدها قد انشطرت إلى شطرين:

الشطر الأوّل: تمثل فيه الحياة العادية التي لم يذكرها القرآن الكريم، فكل الآيات التي ذكرت النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم تبتدئ من دعائه، إذ يقول تعالى: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}492.

وقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}493، أما ما قبل ذلك لم يذكر إلا ضمن سياق الثواب الذي محا الغياب في قصته صلّى الله عليه وسلَّم وادخل الحضور مكانه، فكان

492 الأنبياء 83 – 84.

493 ص 41 – 44.

الثواب يشكل طرحا لما كان صلّى الله عليه وسلَّم من نعمة في المال والأولاد وغير ذلك.

الشطر الثاني: كأن حياته صلّى الله عليه وسلَّم قد ابتدأت بالابتلاء، وهذا يطرح أمرا مهما أن المركزية في حياة النبي أيّوب صلّى الله عليه وسلَّم لم تبدأ بالسياق المعتاد كأن تذكر بداية حياته من الطفولة أو طرح أمر دعوته ضمن سياق الرفض أو القبول؛ إنما كانت البداية بالابتلاء، فهنا تتمركز صلب دعوته صلّى الله عليه وسلَّم بطريقة قد تكون مغايرة لباقي الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلَّم، فالابتلاء موضع لا يكون الدخول فيه مثل الخروج منه، وهذا بالنسبة لبقية النّاس، أما بالنسبة للأنبياء صلّى الله عليهم وسلَّم فان إدخالهم وإخراجهم من الابتلاءات يفضي إلى نتيجة واحدة لابدّيل لها وهو أنهم يبقون كما هم متمسكون بإيمانهم وبدعوة الله تعالى، وهذا ما نره في خطابه جلّ جلاله لهم، فعن إبراهيم يقول الله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}494، أما يوسف صلّى الله عليه وسلَّم فقد ذكره الله تعالى في قوله: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

494 الأنبياء 68 – 73.

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السّماوات وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ}495، أمّا أيّوب صلّى الله عليه وسلّم بعد أن رأينا ما مر به، إذ يقول عنه الله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}496 ن وفي نبينا الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم خاطبه الله تعالى بالقول: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِربّك وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}497، هذه السورة الكريمة تمثل صورة من حياة الدعوة الإسلامية، وحياة الداعية في أوّل العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي صلّى الله عليه وسلّم ودعوة الله التي يبشر بها؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشائنه.

كذلك تمثل حقّيقة الهدى والخير والإيمان. وحقّيقة الضلال والشر والكفران. الأولى كثرة وفيض وامتداد، والثانية قلة وانحسار وانبتار. وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك498.

هذا ما ذهب إليه أكثر أهل التفسير، ولنا قول في يمين أيّوب هو:

---

495 يوسف 99 – 101.

496 ص 41 – 44.

497 الكوثر 1 – 3.

498 في ظلال القرآن، ج 8، ص 113.

نقول: إن الفظة التي قيل إنّها دالة على اليمين (لا تحنث) تدل على معاني أخرى منها:

الحنث، الذنب العظيم499.

تَحَنَّثَ، أي تَعَبَّدَ واعتزل الأصنام500

الحِنْثُ، المَيْلُ من باطِلٍ إلى حقّ، وعَكْسُه501.

الحِنْثُ: أن يقول الإنسان غير الحقّ502

(حنث) الحاءُ والنون والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثْم والحَرَج503.

الغريب أنّ المفسرين تركوا كل هذه المعاني للحنث وذهبوا إلى اليمين، كما ذكروا كثير من الأمور من أبرزها أنّه حلف يجلد امرأته التي كانت تخدمه مائة جلدة، ونحن نستبعد ذلك لان فيه نكران من أيّوب لجهود امرأة أضنت نفسها في خدمته وقت مس الضّرّ، وإذا كان لابدّ من القول بالقسم فربما يكون قسم آخر لو أوفي به كان سيصيب أيّوب ضررا بعد الكشف وهذا محال بحقّ إرادة الله عزّ وجلّ الذي استجاب فكشف الضّرّ، فلا يمكن بعد ذلك أن يكون هناك ما يعود بالضّرّ على أيّوب من جانب من الجوانب، لذلك كانت الكفارة بقوله تعالى: (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ).

وبناء على ما تقدم من معاني، فإنّ القول الكريم لا تحنث ربما يكون بمعنى لا تتحرج في التصدق ولو بالضغث، أو خذ الضغث

---

499 العين، ج 1، ص 212.

501 الصحاح في اللغة، ج 1، ص 150.

502 تهذيب اللغة، ج 2، ص 93.

503 مقاييس اللغة، ج 2، ص 108.

واضرب به في الأرض ولا تبقى تتعبد في مكانك الذي كنت فيه، وربما غير ذلك من التفسيرات التي توسع دائرة الدلالة عن قوله تعالى: (لا تحنث).

النبي

أيّوب من السنّة

النبي أيّوب عليه السّلام من أنبياء الله الكرام، الذين وحّدوا الله ودعوا إلى توحيده، وقد اشتهر بصبره حتى أصبح المثال للصبر، كان غنيا ويملك الكثير، يتصدّق ويتزكّى، وكان لين الجانب.

اشتهر بغناه مثلما اشتهر بفقره وحاجته لما يشبع الحاجة، وفي غناه كان يعلم أنّه لا غنى إلّا من الغني المطلق جلّ جلاله، واسم الغني "من أَسْماء الله تعالى في علاه، وهو الذي لا يَحْتاجُ إلى أَحدٍ في شيءٍ، وكلُّ أَحَدٍ مُحْتاجٌ إليه، وهذا هو الغِنى المطْلَق"504.

فالغنيُّ: مصدر الغنى البدني والرّوحي والنفسي والعقلي، وبهذا فهو مصدر الغنى الكمي والكيفي، ولننظر كيف؟

البدن غنى مادّي جمالي وهو مظهر من مظاهر الوجود في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، والرّوح غنى البدن بالحياة المنبعثة فيه بالأمر الخارج عنه، والنّفس غنى الرّوح بالبقاء المؤقّت مع المظهر المادّي للمخلوق في محيط البدن، والعقل غنى النفس بما يطمئنها، حيث فقدانه مقلق، أمّا الرّوح فأمرها بيد الغني المطلق جلّ جلاله.

وعليه فسلامة البدن وطهارته غنى يجعل كلّ عضوٍ شاهدا بالسّلامة والطّهارة في مرضاة الغني المطلق جلّ جلاله.

وانبعاث الرّوح في البدن غنى من التلف والفساد، لتسيره حركة وسكونا فيما يشاء الله أن يكون عليه ويكون به.

---

504 لسان العرب، ج 15، ص 135.

وغنى النفس امتلاؤها بالطمأنينة، التي بها تسكن على الحقّ ثباتا لا حياد عنه دون ظنّ.

وغنى العقل بإرشاده إلى ما به تتم الهداية وبه يحقّ الحقّ، أي نور يضاء به البدن والنفس.

ورأت اليهود أن معنى الغنى مقصورٌ ضدُّ الفَقْر، قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}505، وحدث ذلك عندما سمعوا قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}506.

فالغني: هو الذي أغنى أيّوب وجعله من المالكين، وهو الذي أغنى غيره فمنهم شاكرين ومنهم جاحدين، ولكلّ حسابه يوم الحساب، ولذا فالغني يغني وهو ليس في حاجة، وهو يملك المطلق لمشبعات كل حاجة، يهب ما يشاء لمن يشاء وهو لا يوهب إليه، يرزق وهو في غير حاجة للرزق، يملك وهو في غير حاجة للملك، إنّه ذو الرّحمة والمغفرة والتوبة لكلّ عبد منيب ومستجيب له واحد احد لا شريك له، له ما في السّماوات وما في الأرض وهو على كلّ شيء قدير، وهو الذي يُفْتَقرُ إليه وهو الغني الحميد، وهو الذي كمل في غناه عمّا سواه، كما أنّ الحليم الذي كمل في حلمه. فالله جلّ جلاله غني في ذاته بذاته لعدم حاجته أو احتياجه لغيره، ولغناه عن الحاجة في ذاتها، فكيف يحتاج من ليس له طريق للحاجة، بل هو الذي خلقها، وليس ليحتاج إليها، لقد خلقها لكي تسبّحه كثيرا، وتمجّده كثيرا في علاه، وتعلم

505 آل عمران 181،182.

506 البقرة 24.

رفعته، وتظهر مجده الأبدي الأزلي الذي ليس للعوز طريق إليه بأيّ حال كان، وللخليفة أن يستمدّ منه الغنى، فالخليفة هو الذي يبحث عن مشبعات حاجاته بما يرضي ربّه تعالى؛ فعليه ممّا عليه بالآتي:

التقوى: وهي خير الزّاد، وذلك بالسير على الجادة التي لا يحيد عنها إلا هالك، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}507. ولهذا فمن يتقي الله يجد له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سبحانه جلّ جلاله إنّه الغني.

الإنفاق في وجوه الخير: قال تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}508.

من صور الغني:

من حيث عدم الاحتياج:

لأنّ غناه في ذاته بذاته، ومستغن عن الحاجة، فهو لم يتصف بالعوز والافتقار، فالله جلّ جلاله رفيع الدرجات، جاء ذلك في قوله: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرّوح مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفي عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}509، فالله الغني جلّ جلاله ليس

---

507 التغابن 16-18.

508 البقرة 1-5.

509 غافر 15،16.

له علاقة بالحاجة إلا من حيث المشبعات؛ فهو مالك الملك وهو المغني العزيز، وهذه المشبعات تتطلّب من الخليفة الآتي:

الخوف باتقائه: مثلما خافه واتقاه أيّوب عليه السّلام، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}510، وقال تعالى جلّ في علاه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حقّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}511. ففي الآيات السابقة توضيح لشروط التقوى منها الإسلام: فلا تقوى بدون إسلام، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}512، وقال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}513.

ويكون بالاعتصام به تعالى ذكره، فهو الحبل المتين الذي ما ذل من التزم بما أمر وانتهى عمّا نهى، وهذا الذي يكون عليه الخليفة من السير على النهج الصحيح، التزاما دينيا وأخلاقيا مع وافر التواضع والاحترام، وعلينا أن نذكر نعمة الله التي أنعمها علينا فنحمده ونشكره

510 البقرة 212.

511 آل عمران 102-104.

512 آل عمران 19.

513 آل عمران 85.

ونطيعه فيما أمر ونهى. ولذا فعلى الخليفة أن يعرف النعم حقّ المعرفة، والمعرفة تكون بالشكر والحمد على النعم التي لا تحصى، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكم لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}514، ولا يظنن الخليفة أنّ الله محتاج لأحد من خلقه شكر أم لم يشكر؛ وذلك لأنّه الغني في ذاته بذاته، قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}515، والخليفة ليكون غنيا فلينظر كيف جعله غنيا بما ركّبه في جسمه من عجائب، قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}516، وكذلك مطلوب منه النظر في ما حوله من المخلوقات وكيف خلقها تعالى جل في علاه، قال عزّ وجلّ: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}517.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كان عليه أيّوب صابرا وواثقا لا حلّ لأيّ معضلة أو مشكلة أو ابتلاء إلّا العمل الذي به تترسّخ أفعال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا لا يكون إلا من صفات الخليفة الحقّ الذي إذا انتهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفلح، والفلاح لا يأتي إلا بإتباع ما أمر الغني جلّ جلاله، والانتهاء عمّا نهى، قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

---

514 إبراهيم 7.

515 النساء 147.

516 الطارق 5-9.

517 عبس 24 -32.

الالتزام: ويكون بالسير على قواعد الإسلام وفق نصوصه الغراء، والتي وصفها الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلم بقوله: {قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى المحجّة الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ}518.

ومن حيث عدم امتناع شيء عليه:

أراده بجميعه أو بشيء منه، من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله، وغير ذلك من الأمور؛ قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}519؛ ولأن الخلق خلقه، إليه الفاقة والحاجة، وبه قواهم وبقاؤهم، وهلاكهم وفناؤهم وهو الغني الذي لا حاجة تحلّ به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطرُّه إليهم، ولا إلى غيرهم.

وما جعل اسم الحميد مقترنا باسمه الغني إلا لما استوجب عليكم أيّها الخلفاء من الحمدَ بصنائعه الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم، فاستديموا ذلك أيها الخلفاء باتقائه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به والانتهاء عمّا نهاكم عنه، فالله جلّ في علاه أورد في حقّ نفسه قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا}520، فهو غنيّ عن خلقه، حميد مستحمدًا بفضله عليهم، ولذلك وجب الحذر من عقابه، فهو قادر

518 سنن ابن ماجه، ج 1، ص 50.

519 آل عمران 26،27.

520 البقرة 245.

على استبدالنا بأقوام آخرين ليسوا من جنسنا أصلا، إذا لم نكن في مقام حمده وشكره قال تعالى: {وَربّك الْغَنِيُّ ذُو الرّحمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}521، قال أبو جعفر: يقول الله جل ثناؤه: (وربّك)، يا محمّد، الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية (الغني)، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عمّا نهى، والغني عن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه؛ لأنّه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم، فلم أخلقهم، يا محمّد، ولم آمرهم بما أمرتهم به، وأنهم عما نهيتهم عنه، لحاجةٍ لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضَّل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرَّأفة والرّحمة522. ولذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}523، فالخليفة إذا أقام الشهادة لإنسان أو عليه، فعليه أن يقوم فيها بالعدل، ولو كانت شهادتهم على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم وأقربائهم، ولا يحملنهم غِنَى من شهدوا له أو فقره أو قرابته ورَحِمُه منهم على الشهادة له بالزور، ولا على ترك الشهادة عليه بالحقّ وكتمانها. والملاحظ أن هذه الآيات جاءت تأديبًا للخلفاء وتصحيحا لمن يرى أن الفقير لا يظلم الغنيّ، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير فقال: (إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا). فيا خلفاء الله في الأرض قوموا بالقسط لله عند شهادتكم أو

521 النساء 133.

522 تفسير الطبري، ج 12، ص 126.

523 النساء 135.

حين شهادتكم، ولو على أنفسكم، أو على والديكم أو أقاربّكم، وأقيموها على صحّتها بأن تقولوا فيها الحقّ، ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غنيّ، فتجوروا، فإنّ الله الذي سوَّى بين حكم الغنيّ والفقير فيما ألزمكم، أيها النّاس من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل أولى بهما، وأحقّ منكم؛ لأنه مالكهما وأولى بهما دونكم، فهو أعلم بمصلحة كلّ واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما. فعلى الخليفة الغني بالإضافة أن يكون منتبها لمن هو محتاج إلى العون والمساعدة فعليه أن يتحرى سيماهم من خلال أفعالهم ومظاهرهم التي أمر الله جلّ جلاله بملاحظتها قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}524، وسِيَم الذين يستحقّون النظر إليهم والاهتمام بهم رثاثة في ثيابهم، فلا يظهر عليهم الجوع بل كل ذلك خفي عن النّاس، ولكن آثار الحاجة فيهم لا تخفي، فالخليفة يدركهم كما يدرك الطبيب علامات المرض في المريض دون الصحيح بالمعاينة دون الحاجة إلى الوصف، فالغني أحيانا يلبس ملابس الفقير فزيه يكون مشابها له ولذلك يجب النظر بالمعاينة دون الوصف، فأول صفاتهم:

524 البقرة 272-274.

1- المظهر الخارجي: الذي يعرفه الخليفة بالنظر الثاقب والصحيح؛ لآن كل شيء له دليل عليه، كما إنه قادر على معرفة المنافق بما وصفه الله جلّ جلاله به من صفات، مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}525، وعلم الهيئة من العلوم التي تمرس عليها المستخلفون فيها منذ زمن بعيد، وجاء القرآن ليؤكد عليها، وبما طلبه منهم العلى الغني معرفة كلّ أحد بسيماه؛ لأنّ الذي يعلم ما بالداخل هو الله جلّ جلاله، قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالحقّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}526، وعلى الخليفة أن يتحرى الحقّ من خلال القرائن والأدلة، وهذا ما جعل الاهتمام بالأدلة الخارجية واجب لما له من دور في تتبع المذنبين وكشف أخطائهم، وما جاء في قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}527، الآية تأكيد لما نراه اليوم في تطبيقهم لما يسمى ببصمة العين والتي من خلالها يتم معرفة البريء من المتهم، وهذا هو الذي جاء في نص الآية الكريمة قال تعالى: (رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ).

525 محمد 29-31.

526 غافر 19،20.

527 الأحزاب 18،19.

2- السلوك الذي يكون عليه المحتاج: وهو التعفف ويكون ذلك واضحا لدى الخليفة الذي يريد أن يعرف الحقّيقة، والذي من موجباته أن يتتبعها ويتحرّاها، فهم لا يسألون النّاس حاجتهم، ولذلك على الخليفة أن يسأل قبل أن يعطي حتى لا يذهب معروفه سدى مع من هو يتصنع الحاجة، وهو في واقعه ليس محتاجا، فالصدقات معروف أصحابها وواضحة جلية، وربما كان هذا الشرح سببه عدم قدرة الخلفاء ذلك الوقت التمييز بين من يتصنع وبين المحتاج حقّيقة، فجاءت الآية الكريمة لتنجدهم وتأخذ بيد الخلفاء إلى الطريق الصحيح قال تعالى: {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}528، فالقانع: الحامد لله والشاكر له، والمعترّ: من اعتراك من النّاس. وقال تعالى في توضيح الذين يستحقّون الصدقة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}529، قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي: أنّ الله جعل الصدقة في معنيين:

- أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، وعلى الخليفة الغني بالإضافة أن لا يتبجح بكثرة الولد والمال، وما بسط به الله عليه من الدنيا، وما وسَّع به عليه في الرزق، وما حصل عليه من سهلها وجبلها، وما كان له فيها من أصناف المال كله، من الإبل والبقر والغنم والخيل، وما لا يكون لإنسان آخر أفضل منه في العِدة والكثرة، وما كان الغني جل في علاه قد أعطاه من أهل وولد ومن رجال ونساء، فعليه أن يكون برًّا تقيا رحيما يطعم المساكين، ويحمي الأرامل، ويكفل الأيتام، ويكرم الضيف، ويبلّغ ابن السبيل، وأن يكون شاكرا لأنعم الله وحامدا له، مؤدّيا لحقّ

528 الحج 36.

529 التوبة 60.

الله في ماله، وأن لا يصيب منه عدوّ الله إبليس ما أصاب من أهل الغنى من العزّة والغفلة، والسهو والتشاغل عن أمر الله بما هو أولى من إتباع رزق من الدنيا.

– والثاني: معونة الإسلام وتقويته. فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنّه يُعطاه الغني والفقير، لأنّه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين، وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا للغزو، لا لسدّ خلته، وتبعا لذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون كذلك، وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده، وقد أعطى النبي صلّى الله عليه وسلم من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله. فلا حجّة لمحتجّ بأن يقول: "لا يتألف اليوم على الإسلام أحد، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم"، وقد أعطى النبي صلّى الله عليه وسلم من أعطى منهم في الحال التي وصفت530.

من حيث عدم القدرة على إحصاء ما خلق:

فهل لأحد القدرة على أن يحصي ما خلق الغني جلّ جلاله من النعم والفضائل؟ هذا على مستوى ما نرى، وما خفي كان أجلّ وأعظم، ولو أنّنا أردنا أن نعدّ النعم فقط، والتي أنعم بها الله علينا لعجزنا، فما بالك من يريد أن يعد كل ما خلق، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السّماء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ

530 تفسير الطبري، ج 14، ص 316.

مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}531، وقال تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}532.

من مظاهر غنى الغني:

1- غناه عن الولد والوالد:

ويظهر غناه في قوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}533. يقول الله منزهًا نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك: (سبحانه)، تنزيهًا لله عما قالوا وادَّعوا على ربهم (هو الغني) فالله غنيٌّ عن خلقه جميعًا، فلا حاجة به إلى ولد؛ لأن الولد إنما يطلب للعون في الحياة والذكر له بعد الموت، والله غنيٌّ عن كل ذلك، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يحيدُ فيكون به حاجة إلى خلف بعده، إنه الله الغني جلّ جلاله.

2- غناه عن الشريك والنديد والصاحب:

قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}534، وقال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ

531 إبراهيم 32-34.

532 النحل 15-20.

533 يونس 68.

534 الإخلاص 1-4.

السّماوات وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}535، وقال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}536، وقال تعالى: {بَدِيعُ السّماوات وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}537، أثبت تعالى في علاه أن الولد لا يكون إلا بالصاحبة، قال تعالى: (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ)، وما كان أن يحدث من خوارق في الكون إلا بأمره تعالى، فأمره تعالى بين الكاف والنون قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}538، فهو بقدرته خلق آدم من غير أب ولا أم، بل من تراب، قال تعالى: {إِذْ قَالَ ربّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}539، وخلق سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام من أم بدون أب قال تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الحقّ مِنْ ربّك فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}540. فالغني جلّ جلاله لو لم يكن غنيا لما استغنى عن الولد والصاحبة والتي نرى أننا في أمس الحاجة إليهما لتحمل جزء من أعباء الحياة معنا بسبب فقرنا وافتقارنا إليهم، وهذا ما تؤكده الآية

535 الأنعام 100-101.

536 الإسراء 111.

537 المائدة 101.

538 يس 81-83.

539 ص 71-73.

540 آل عمران 58-60.

الكريمة في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ}541.

3- غناه بتأخير عقابه: وفي تأخير العقاب دلالة على غنى الغني جلّ جلاله فلو لم يكن غنيا ما أخر العقاب؛ فلو كفر جميع من في الأرض فالله جلّ جلاله غني عنهم، قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}542؛ ولأن غناه جل في علاه مرتبط برحمته ومغفرته فكان تأخير العقاب والعذاب من مظاهر غناه، فلو كانوا يساوون جهدا أو وزنا لعجل بالعذاب، ولما لم يكن من قيمة للأشياء التي نراه لديه؛ ومع أنّه قادر على تعجيل العذاب، ولكن لحكمة يعلمها، قال تعالى: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}543، والغني لو شاء لعجل بالعذاب ولكن هذه الدنيا عنده لا تساوي أي قيمة أو وزن، فقد جاء في الحديث، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"544. والخليفة الغني هو الذي يعفو ويصفح عن كل من أساء إليه، فلا يستعجل الرد على من أساء إليه؛ امتثالا لقوله تعالى في علاه: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

541 الروم 21،20.

542 إبراهيم 8.

543 الأنفال 37.

544 سنن الترمذي، ج 8، ص 299.

بَصِيرٌ}545، وأن يكون حذرا من أن يجر إلى الاستعجال بالعقوبة؛ ولأن في تأخير العقوبة وضوحا أكثر لحقّيقة الذنب وتبيين صاحبه، وهذا هو من الأمور التي توصل الخليفة للعدل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}546.

4- غني باستطاعته: فلو لم يكن مستطيعا ما كان غنيا بذاته عن الذوات، إنه فعال لما يريد قال تعالى في حقّ نفسه: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}547، فهذه الصفات لا تكون لمن لم يكن مستطيعا بنفسه في القيام بنفسه على المغفرة والتي ليس لها حدود، وما كان ودودا بخلقه، ولا كان مالكا لعرشه، والذي جاء في وصفه ما جاء، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}548، فأي ماء يستطيع أن يحمل عرشه؟! وقال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ ربّك فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}549، وأي ثمانية يستطيعون حمله؟! هم الذين لا نستطيع تصور قوتهم ولا قدرتهم، ولما كان لمغفرته أن تسع كل ما نعلم وما لا نعلم، كان له أن يفعل ما يريد وكيف يريد دون شريك أو نديد، فهو

545 البقرة 237.

546 المائدة 9،8.

547 البروج 13-16.

548 هود 7.

549 الحاقة 17.

تعالى بيده مقاليد الأمور كلها، قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}550، فهل للخليفة أن يعبد غيره، وهو يرى قدرته وجبروته وقهره، وهل يفعل هذا إلا الجاهل، وهل يأمره بذلك إلا من كان جاهلا، وهو الذي بيده الغنى والفقر، قال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}551، الناظر لهذه الآية الكريمة يرى أنّ اسمه اللطيف التقى مع اسميه القوي والعزيز إضافة إلى فعل الرزاق، وهذه الأسماء تبين وبجلاء أن الذي يرزق لابدّ وأن يكون لطيفا بمن يرزقه، ولابدّ وأن يكون قويا عزيزا، فلا أحد يستطيع أن يمنعه من أن يرزق أو يحرم من يشاء، وهو الذي بيده المغفرة والعذاب، قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}552، والخليفة الغني بالإضافة عليه أن يكون غنيا بصفحه وكرمه، كما يحب أن يغفر الله جلا جلاله له، قال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}553. والخليفة الغني بالإضافة يكون غنيا في الآتي:

غنى معنويا: وذلك بما يستمده من غنى بصلته بالغني المطلق جل في علاه، وليعلم قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ

---

550 الزمر 62-64.

551 الشورى 19.

552 آل عمران 129.

553 النور 22.

الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}554، وكلما اقترب الخليفة من ربه بالقربات والطاعات كلما ازداد غنى؛ لأنه يعلم أن الغني سيزيده من فضله، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبّكمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}555.

غنى مادّيا: ويكون ذلك بما يستكشفه الخليفة من خيرات سواء على ظاهر الأرض أم بما يستخرجه من جوفها وذلك امتثالا لقوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السّماوات وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}556، هذا النفوذ من أقطار السموات والأرض لا يأتي إلا بسلطان العلم والمعرفة والتي تحتاج إلى جهد ووقت يصرفه فيه الخليفة حتى ينفذ من أقطار السموات والأرض، والنفوذ في أقطار الأرض هو بقدر ما يكتشفه الإنسان من المعادن والثروات والتي تؤدّي به إلى الازدهار وليتمكن من طاعة ربه على الوجه الصحيح الأكمل، فالغني بالإضافة هو الذي يعمل على غنى ما يمكن إغنائه من الآتي:

– نفسه: وبما يرفع به نفسه في مجتمعه، وذلك بالسعي بنفسه إلى الأفضل، وامتثالا لقوله تعالى في علاه: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}557.

– وأسرته: وصلاح الخليفة يبدأ من أسرته، فيحرضهم على طلب ما يرضي الغني جلّ جلاله كأن يأمرهم بطلب العلم فهو الذي يغني

---

554 محمد 38.

555 إبراهيم 7.

556 الرّحمن 33.

557 التوبة 105.

صاحبه بما يترك في قلبه من القناعة والإيمان الحقّيقي الصادق، فيرتفع به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}558.

– ومجتمعه: وذلك بقدر ما يكون فعالا فيهم، يكون تأثيره على مجتمعه بالصلاح والفلاح والسعادة وليعلم أن صلاح مجتمعه من صلاحه وصلاح أمته، فيعيش في مجتمع سعيد متماسك ومترابط، وبما يعمله الخليفة من تغيير في القلوب والنفوس يكون رده إيجابيا على المجتمع، قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}559.

–وأمته: وذلك بقدر ما يعمل به على توحيدهم واتحادهم، والسعي على حل المشكلات التي تحول وتعمق ذلك، وبقدر الكد تكون النتيجة فلا مستقبل لهذه الأمة إذا لم يسع خلفاؤها في تعمير أرضه وتحقّيق نهضتها وليعيشوا أغنياء بدل أن يكونوا عالة على الأمم الأخرى، وبذلك أمر الغني جلّ جلاله بالتوحد والاعتصام بالدين الحنيف، قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}560.

– ودينه: وهو الذي به نلاقي ربنا في الدنيا والآخرة، وهو الذي به تحيى قلوبنا وهو النور الذي يقودونا إلى الغنى الابدّي الذي وعدنا به

558 المجادلة 11.

559 الرعد 11.

560 النساء 175.

جلّ جلاله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا ربّكمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}561.

غناه بسعته:

فسعته ليس لها حدود ولا معيار ولا مقياس فكيف يقاس أو يحدد أو يعير ما ليس له معيار يشمله أو حيز يحدده، أو ميزان يحمله، ولكن للخليفة أن ينظر في حيثيات سعته:

- من حيث سعة ملكه:

بملكه جميع ما حوته السموات والأرضين: فهو جلّ جلاله خلقها بقوته وجبروته، قال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السّماوات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}562، والذي خلق هذه السموات وهذه الأرضين السبع ليس بعاجز عن مسحها من الوجود وخلق ما هو جديد قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}563.

561 الحج 77،78.

562 آل عمران 189،190.

563 المائدة 17.

قال تعالى: {لَهُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}564، الله الغني تعالى ذكره له مُلك ما في السموات وما في الأرض من شيء هم عبيده ومّاليكه وخلقه، لا شريك له في ذلك، ولا في شيء منه، وإن الله هو الغنيّ عن كل ما في السموات وما في الأرض من خلقه وهم المحتاجون إليه، الحميد عند عباده الخلفاء في أفضاله عليهم، فعلى الخليفة الفقير أن يستعفف تنفيذا لأمره تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}565، إن يكن هؤلاء الذين تُنْكِحون من أيامى رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم أهل فاقة وفقر، فإن الله يغنيهم من فضله، فلا يمنعنكم فقرهم من إنكاحهم، فالله واسع الفضل جواد بعطاياه، فزوّجوا إماءكم من خلفائكم، فإن الله واسع يوسع عليهم من فضله، إن كانوا فقراء؛ لأنّه ذو علم بالفقير منهم والغنيّ، لا يخفي عليه حال خلقه في شيء وتدبيرهم، وأما الذين لا يجدون قدرة على تكاليف النكاح فعليهم بالتعفف، قال تعالى: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)، فالعفة هنا مطلب أساسي من المستخلف فيها، حتى لا يقع في ما هو محرم من الفواحش، وحتى يغنيه الله من سعة فضله، ويوسّع عليه من رزقه. وأما ما هو موجود من مظاهر الاختلاف بين النّاس فقوله يوضح أن كل هذه الفروق موجودة للفتنة، قال تعالى: {وَمَا

564 الحج 64.

565 النور 33.

أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ ربّك بَصِيرًا}566، امتحن الله النّاس بعضهم ببعض، جعلهم هذا نبيا وخصصه بالرسالة، وهذا ملِكا وخصصه بالدنيا، وهذا فقيرًا وحرمه الدنيا ليختبر الفقير بصبره على ما حرم ممّا أعطيه الغنيّ، والملك بصبره على ما أعطيه الرّسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم ممّا أعطى غيره، وعلى ذلك الخليفة الغني بالإضافة أن يكون منتبها لما حوله فيعطي كل أحد حقّه، وليكن علمه ما جاء في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النّاس فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}567، وبها فعلى الخليفة أن يلتزم بما يلي:

أن يكون إيمانه بالله تعالى هو الغني الرزاق، وهو الذي يبسط ويرزق لمن يشاء وكيف يشاء، ومتى ما يشاء، ويقدر لكل واحد رزقه في الدنيا، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

على الخليفة الغني بالإضافة ألا يغفل عن الزمن وأهميته فيما يملك فيعطي كل ذي حقّ حقّه، ومن أصحاب الحقّوق ذو القربى والمساكين وأبناء السبيل؛ لأن ذلك هو السبيل لمن يريد وجه ربه ومن ثَمَّ الفلاح

566 الفرقان 20.

567 الروم 37-39.

في الدارين قال تعالى: (ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وعلي الخليفة الابتعاد عن الرّبا: لأن الرّبا أساس رئيس لكل الفروق بين النّاس في الرزق لما ينتج عنه من ربح سريع ومن طرق استغلالية لظروف النّاس، فيكون سببا لوجود الشحناء والحسد بين الفقراء والأغنياء، ولذلك فالمال المرابى به لا يزيد عند الله بل كل ما نراه صوريا ومظهرا من المظاهر الزائفة الخادعة التي يغتر بها أصحاب العقول والنظرات القصيرة، قال تعالى: (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النّاس فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ).

التصدق بالمال الحلال وأن يجعله متقبلا عند خالقه جلّ جلاله بما يستوفيه من الشروط المنوطة بالزكاة المتقبلة، قال تعالى: (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ). ألا يخشى الفقر ولا يبطره الغنى وليجعل الخليفة نصب عينيه قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[568].

قراءة القرآن: القرآن قول الحقّ، من الحقّ المطلق جلّ جلاله، فيه الرّحمة للعباد وفيه شفائهم، وبه تطمئن القلوب، وتنيب إلى الله تعالى، ومن أَغْناه الله فقد غَنِيَ وذلك بالاسْتَغْناء بالقرآن عن غيرِه ولا يَذْهَبْ إلى البحث عن غيره؛ لما فيه من الكنوز المعرفية والموصلة إلى طريق النجاة ودون أي شك في ذلك، ومن لجاء أو حاول الاستعانة بغيره وجد نفسه ذليلا مخذولا، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

568 الروم 37.

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}569، وهذا الغنى الذي جاء به القرآن لم يأت صدفة، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}570.

إقامة الصلاة: فالصلاة هي التي تورث القناعة عند الخليفة؛ لأنها هي الوسيلة المتلازمة لربطه بخالقه، فتمنعه من أن يرتكب أي خطأ في حقّ نفسه، أو في حقّ غيره أمام خالقه عزّ وجلّ، قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}571، وهذا هو الرّباط الحقّيقي الذي يورث الخليفة قناعة عن تجربة ملامسة للواقع، ولهذا تكون الصلاة مانعة من ارتكاب الفواحش والمنكرات قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}572، وإذا ما واظب الخليفة على صلاته أورثه الله الغني جلّ جلاله قناعة تامة، في الدنيا بما يريه ربه تعالى من أن هذه الدنيا زخارف لا تصلح أن يملأ الإنسان بها نفسه، وأمّا الذي لا يقيم صلاته فإنه لا يرى شيئا على حقّيقته، فيبقى متحسرا عندما يجد نتائجها مكذوبة مخلوطة بما زين له أعداء الإنسان من تلك الزخارف والألوان البراقة حتى إذا جاءها ليتشبث بها وجدها هباء منثورا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ

569 فصلت 40.

570 فصل 42.

571 النور 37،38.

572 العنكبوت 45.

اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}573.

الصوم: ومعناه الامتناع عن كل ما هو ممنوع لمدة محدودة من أكل وشرب وجماع والنظر في غير محله، وفي الصوم عن المفاسد والحسد غنىً؛ لأنّ الحسد يؤدّي بصاحبه إلى أسواء الأحوال وأرداها فالذي يحسد يتمنى زوال نعم غيره وهذه أمنية لا تتحقّق بل ترجع على صاحبها بالوزر والإثم؛ لأنّه تعالى في علاه نهانا عن ذلك بقوله العزيز: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}574، وأما في الصوم البدني الذي أمر الغني جلّ جلاله به في القرآن الكريم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

---

573 النور 39-42.

574 النساء 32.

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}575 ولذا في الصوم مقاصد كبيرة منها:

1 . طاعة الله تعالى.

2 . شفاء ورحمة وصحة.

3 . تحمّل وصبر.

4 . التعاون على الحقّ والبر ونهضة المغلوب.

5 . اعتراف بالآخرين وحقّوقهم.

6 . عبادة للواحد الأحد.

7 – تهذيب النفوس.

8 – معصية الشهوات المؤدية للانحراف.

9 – بعث روح الإيقاظ والتيقظ لما حول الإنسان من القيم.

10 – خلق روح المودة بما ينتجه من إحساس بحاجات الآخرين.

الحج إلى البيت العتيق: تنفيذا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}576، فالذي يريد الحج لا يكون قصده إلا لله الغني الحميد، فهو الذي يعلم قصده من كل ذلك التوجه حيث جاء في الحديث عن الرّسول صلّى الله عليه وسلم: "الْأَعْمَالُ

575 البقرة 183 -185.

576 آل عمران 95-97.

بِالنِّيَّةِ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ"577، فالله هو الذي يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما يجترح الإنسان ليله ونهاره قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}578، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}579، والناظر هنا يجد أن داخل الإنسان هو المطلوب وما السلوك الخارجي إلا مظهر ودليل لما يجري في الداخل فالإنسان بما جعل الله تعالى له من جسد عجيب يحمل داخله نفس وعقل وروح وما تحمله من غنىً، فالنفس الغنية هي التي تكون مطمئنة في سلوكها أي في حركاتها وسكناتها وفي حلها وترحالها وما تقوم به من واجبات، ولتكون نفس الخليفة مطمئنة وجب عليها ذكر الله ليل نهار سيرا على النهج الناجع والمؤدي إلى النتيجة التي جاء بها القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}580، وهذا الغنى الداخلي لابدّ وأن يظهر تأثيره على السلوك الخارجي، فبذلك نرى البدن المطمئن في حركاته وسكناته، سليما معافا، وسيرته طيبة ناجحة فتكون أهدافه في الحياة واضحة

577 صحيح البخاري، ج 12، ص 287.

578 الرعد 8-10.

579 الأنعام 60،61.

580 الرعد 28.

ونبيلة لا عوائق أمامه ويكون سالما من الآفات التي تصيب غيره من الذين ليسوا أسوياء، فلا يكون كسولا ولا خمولا بل جادا في حياته ومسيرته يبني مجد خلافته على طريق سليم وقويم خال من كل ما هو ردئ وسيئ فيكون وبلا شك حيا في الدنيا والآخرة حياة طيبة؛ لأنه سار على مسلك صحيح، وعلى قنطرة الحقّ؛ فحقّ فيه قوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}581.

وعليه، فبعد حياة الغني التي عاشها أيّوب عليه السّلام، انتكست الحياة بالنسبة له، وأصبحت الحاجة على رأس قائمة حياة أيّوب عليه السّلام؛ فقد مرض وابتلاء ابتلاء قاسيا وشديدا، ولكنّه صبر وفمه لا يصمت عن الدعاء حتى كانت الاستجابة.

الحاجة من بعد الغنى:

فعن مجاهد أنّه قال: "كان أيّوب عليه السّلام أوّل من أصابه الجدري"582 وقد اختلفوا في مدّة ابتلاءه على أقوال؛ فزعم وهب أنّه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلي سبع سنين وأشهرًا.

---

581 النحل 96، 97.

582 الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 5، ص 659.

وَأخرج ابْن أبي الدُّنْيَا وَأَبُو يعلى وَابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم وَابْن حبَان وَالْحَاكِم وَصَححهُ وَابْن مرْدَوَيْه عَن أنس أَن رَسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: "إِن أيّوب لبث بِهِ بلاؤه ثَمَانِي عشرَة سنة"583

يخبرنا تعالى عن عبده ورسوله أيّوب عليه السّلام، وما كان ابتلاه به من الضّرّ في جسده، وماله، وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدّنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أنّ زوجته حفظت ودَّه؛ لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم النّاس بالأجرة، وتطعمه، وتخدمه نحوا من ثماني عشرة سنة. وقد كان رفضه القريب والبعيد، سوى زوجته رضي الله عنها، فإنّها كانت لا تفارقه صباحا ولا مساء إلا لخدمة النّاس ثمّ ما تلبث أن تعود لخدمته ورعايته والقيام على شأنه. ولما طال عليه الأمر، واشتد به الحال، وانتهى القدر المقدور"584، وتم الأجل المحدد تضرع أيّوب إلى ربّه قائلا: {وَأيّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}585، وقال: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}586 فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يضرّب الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله عينا، وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان في باطنه من السّوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا؛ قال تعالى: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}587

583 الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 5، ص 659.

584 تفسير ابن كثير، 7، ص 74.

585 الأنبياء 83.

586 ص 41.

587 ص 42.

أيّوب بين الحقّيقة والاتهام:

كثرت الرّوايات والأساطير التي نسجت حول مرض أيّوب، ودخلت الإسرائيليات في كثير من هذه الروايات التي منها.

أنّ أيّوب عليه السّلام كان ذا مال وولد كثير، ففقد ماله وولده، وابتلي في جسده، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا زوجته ورجلين من إخوانه. وكانت زوجته تخدم النّاس بالأجر، لتحضر لأيّوب الطعام. ثم إنّ النّاس توقفوا عن استخدامها، لعلمهم أنّها امرأة أيّوب عليه السّلام، خوفا أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته. فلمّا لم تجد أحدا يستخدمها باعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير، فأتت به أيّوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسا، فلمّا كان الغد لم تجد أحدا، فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضا، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلمّا رأى رأسها محلوقا، قال في دعائه: (ربّ إنيّ مسّني الضّرّ وأنت أرحم الرّاحمين). وحلف أن يضرّبها مئة سوط إذا شفي. وقيل أنّ حلفه بضربها كان لأنّها أخبرته أنّها لقيت طبيبا في الطريق عرض أن يداوي أيّوب إذا رضي أن يقول أنت شفيتي بعد علاجه، فعرف أيّوب أنّ هذا الطبيب هو إبليس، فغضب وحلف أن يضرّبها مئة ضربة.

قصّة أيّوب فيها من المتناقضات ما يسفهها بالتمام، وإليكم إلى جانب ما ذكرناه صياغات وروايات مختلفة عنها، وذلك لتسهيل المقارنات للقراء الكرام، ومنها:

روى بن أبي حَاتِم نَحوه من حَدِيث بن عَبَّاسٍ وَفِيهِ ما قيل عن أيّوب: "فَكَسَاهُ اللَّهُ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجنّة فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ

فَقَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ أَبْصَرْتَ الْمُبْتَلَى الَّذِي كَانَ هُنَا فَلَعَلَّ الذِّئَابَ ذَهَبَتْ بِهِ فَقَالَ وَيْحَكِ أَنا هُوَ"588.

وروى بن أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ نَحْوَ حَدِيثِ أَنَسٍ وَفِي آخِرِهِ قَالَ "فَسَجَدَ وَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا أَرْفَعُ رَأْسِي حَتَّى تَكْشِفَ عَنِّي فَكَشَفَ عَنْهُ وَعَنِ الضَّحَّاك عَن بن عَبَّاسٍ رَدَّ اللَّهُ عَلَى امْرَأَتِهِ شَبَابَهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِينَ وَلَدًا ذَكَرًا"589

وَذَكَرَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ومحمّد بْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمُبْتَدَإِ قصّة مُطَوَّلَةً جِدًّا وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ كَانَ بِحُورَانَ وَكَانَ لَهُ الْبَثْنِيَّةُ سَهْلُهَا وَجَبَلُهَا وَلَهُ أَهْلٌ وَمَالٌ كَثِيرٌ وَوَلَدٌ فَسُلِبَ ذَلِكَ كُلُّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا وَهُوَ يَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَاءِ حَتَّى أُلْقِيَ خَارِجًا مِنَ الْبَلَدِ فَرَفَضَهُ النَّاسُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَبَلَغَ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَخْدُمُ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ إِلَى أَنْ تَجَنَّبَهَا النَّاسُ خَشْيَةَ الْعَدْوَى فَبَاعَتْ إِحْدَى ضَفِيرَتَيْهَا مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْأَشْرَافِ وَكَانَتْ طَوِيلَةً حَسَنَةً فَاشْتَرَتْ لَهُ بِهِ طَعَامًا طَيِّبًا فَلَمَّا أَحْضَرَتْهُ لَهُ حلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَهُ حَتَّى تُخْبِرَهُ مِنْ أَيْنَ لَهَا ذَلِكَ فَكَشَفَتْ عَنْ رَأْسِهَا فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ وَقَالَ حِينَئِذٍ رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فعافاه الله تَعَالَى.590

وروى بن أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ أيّوب أَوَّلُ مَنْ أَصَابَهُ الْجُدَرِيُّ وَمِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ أَنَّ إِبْلِيسَ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا إِنْ أَكَلَ أيّوب وَلَمْ يُسَمِّ عُوفِيَ فَعَرَضَتْ ذَلِكَ عَلَى أيّوب فَحَلَفَ لَيضرِّبَنَّهَا مِائَةً فَلَمَّا عُوفِيَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ عُرْجُونًا فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فضربها ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَقِيلَ بَلْ قَعَدَ

---

588 فتح الباري لابن حجر، 6، ص 420.

589 المرجع السابق ص 420.

590 المرجع السابق 421.

إِبْلِيسُ عَلَى الطَّرِيقِ فِي صُورَةِ طَبِيبٍ فَقَالَ لَهَا إِذَا دَاوَيْتُهُ فَقَالَ أَنْتَ شَفَيْتَنِي قَنَعْتُ بِذَلِكَ فَعَرَضَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَغَضِبَ"591

أمّا ما كان من أمر صاحبي أيّوب، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيّوب ذنبا عظيما وإلا لكشف عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيّوب، فحزن ودعا الله. ثم خرج لحاجته وأمسكت امرأته بيده فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك، فضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها فرجع صحيحا، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيّوب فقال: إنّي أنا هو، وقل صلّى الله عليه وسلّم عن نبي الله أيّوب: "كان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت عليه الذهب حتي فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق"592 والورق هنا (الفضّة).

وفي الصحيح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: "بينما أيّوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربّه يا أيّوب ألم أكن أغنيتك عمّا ترى قال بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك"593

فلمّا عوفي أمره الله أن يأخذ عرجونا فيه مائة شمراخ (عود دقيق) فيضرّبها ضربة واحدة لكيلا يحنث في قسمه وبذلك يكون قد برّ في قسمه. ثم جزى الله – عزّ وجلّ- أيّوب –عليه السّلام- على صبره بأن آتاه أهله (فقيل: أحياهم الله بأعيانهم. وقيل: آجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدّنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة)

591 فتح الباري لابن حجر، 6، ص 421.

592 السلسلة الصحيحة للألباني، ج 17.

593 شرح العقيدة الواسطية للهراس، ص 128.

وذكر بعض العلماء أنّ الله ردّ على امرأته شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدا ذكرا.

إنَّ قصّة نبي الله أيّوب ـ عليه السّلام ـ هي من نماذج الصّبر على الابتلاء الذي يقدّره الله ـ تعالي ـ على عبد من عباده فيصبر ويحتسب، ويكون العطاء الوافر في الدنيا وفي الآخرة هو جزاء الصّبر والاحتساب. وقد طال صبر أيّوب على الابتلاء بغير تضرر ولا ضجر حتي أصبح يضرّب بصبره المثل، وأصبحت قصّة صبر أيّوب على كلّ لسان، إلا أنّ القصّة قد شابها ما شابها من تشويهات ولم تبقى قصّة بل بقيت مضرب مثل.

كان أيّوب عبدا من عباد الله الصّالحين، وقد ابتلاه الله تعالي لسرٍّ لا نعلمه، ولكن في مجمله لا يكون إلّا خيرا ومن بعده رحمة عظمى، ذلك لأنّ الابتلاء لا يكون إلّا من الله، ولكن لمن هم مقرّبين إليه، ليطهّرهم من كلّ شيء في الحياة الدّنيا الزائلة، ثمّ يعيدهم فيها على القوّة والمكانة والرّفعة، ثمّ يورّثهم من بعدها الجنّة.

وكما يقولون بلا حجّة ودليل قاطع ولا غموض لقد أبتلي أيّوب في عافيته وولده وماله؛ فصبر صبرا جميلا، وبقي واثقا في ربّه، راضيا بقضائه، محتسبا لابتلائه، وكان الشيطان عليه اللعنة يوسوس لزوجته، ولعدد من خلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له بأنّ الله ـ تعالي ـ لو كان راضيا عن عبده أيّوب ما ابتلاه هذا الابتلاء الذي طال سنين.

وفي أمر الابتلاءات يقول رسول الله عليه الصّلاة والسّلام وفقا لما روي عنه: "أشدّ النّاس بلاء الأنبياء، ثمّ الصّالحون، ثم الأمثل فالأمثل

وقال: يبتلي الرّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه"594

أمّا القرآن الكريم فيدلّ على أنّ ابتلاء الله عزّ وجلّ نبيه أيّوب عليه السّلام لم يكن على وجه العقوبة على ذنب أو مخالفة، ولكنّه كان لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

ولأنّه لم يكن عقابا فقد أثنى سبحانه وتعالى على صبره في قوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}595، وهو سياق ثناء ومدح ورفع مقام ومكانة، ولهذا فهو يختلف عن سياق العتاب أو العقاب كما يدّعي البعض. أي أنّ هذه الآية الكريمة تكشف مدى رضا الله على نبيّه أيّوب عليه الصّلاة والسّلام. ولهذا ليس كلّ ما يقال عن الأنبياء يؤخذ به وكأنّه المسلّمات والحجج؛ فنحن ندرك أنّ ما قاله الأنبياء هو الحجّة الصّادقة، ولكن كيف نثبت أنّ ما قيل عنهم قد قالوه أو أنّه كان ملتصقا بهم؟

وهنا أقول موجزا:

الكلّ يعرف أنّ القرآن الكريم قد نسخ ما سبقه من رسالات، وأنّ النسخ لا يعد إلغاء لها، ولكنّه يعني أنّ ما قيل في تلك الكتب والصّحف والرّسالات قد احتوتها رسالة الكافة برسول الكافة محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وعلى هذا المثال؛ فإنّ سنّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام هي السنّة الخاتمة؛ فمن يؤمن بنبي غير محمّد؛ فليس له إلّا الإيمان بمحمّد الذي

---

594 صحيح الجامع، السلسلة الصحيحة للألباني، ص 143. 145.

595 ص 44.

بالصّلاة والسّلام عليه تعم الصّلاة والسّلام على كافّة الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

ابتلاء أيّوب:

في هذا الموضوع قيل الكثير (الغث والسمين) وقد نضطر تحليلا وتعليلا وتفسيرا أن استشهد بشيء ممّا سبق ذكره، وهذه ليست لغرض سوى التبيين والمقارنة.

فالعاقل كيف يقبل عقله وفكره وقلبه ونفسه أن يكون أيّوب نبيا لله تعالى، ويضعه الله موضع شماتة أو ازدراء، فالنبي وكلّ الأنبياء هم على الجمال والرّفعة، وهم جميعهم على العلم والحكمة، وهم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى وبلا استثناء: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}596.

وفي هذا الشأن رَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ وَكَانَ نَبِيُّكُمْ أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتًا"597 فَعَلَى هَذَا فلا يليق بنا أن نقبل ما قيل في أيّ رسول ما قيل من النواقص والعيوب، مع يقيننا لا كمال إلّا لله تعالى.

ولهذا كيف تقبل عقولنا التي ندبّر بها أمورنا أنّ نبي الله أيّوب عليه السّلام بقي سنين طويلة والدّود يخرج من جسمه، ومع ذلك فإنّ قبلت عقول البعض ذلك؛ فأقول: العلم لا يقبل ذلك على الإطلاق.

والقرآن يؤكّد ذلك بقوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ

596 التين 4.

597 فتح الباري لابن حجر، 7، ص 210.

أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}598، أي أنّ الضّرّ قد مسّ أيّوب ولا شكّ في ذلك، ولكن ألا يكون سؤال أيّوب ربّه مباشرة وعلى الفور؟ فإن كان كذلك؛ فالإجابة كانت على الفور، وذلك بقوله: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) وهنا جاء حرف (ف) للسّرعة، أي كانت الإجابة في الحال، ولتأكيد ذلك جاء حرف (ف) أيضا في قوله (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) فكلّ هذا يحدث على الفورية لنبي الله أيّوب، وفي المقابل عقولنا تقول غير ذلك في حقّه! وهنا أقول: ألا تكون هذه الاستجابات السرّيعة تقديرا للنبي العظيم من الرّب العظيم الذي اصطفاه نبيا من أنبيائه الكرام عليهم الصّلاة والسّلام؟

ثمّ قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}599

وهنا أيضا كانت الإجابة من الله تعالى لنبيه أيوب عليه السّلام كانت فورية؛ فهو قال مناديا ربّه: (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)؛ فكانت الإجابة دون أن تترك سعة للوقت (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) ثمّ أضاف إليه مجازيا (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) والوهب هنا جاء لأيّوب لأنّه لم يكن في حسبانه، ممّا يجعل الوهب جزاء جميلا؛ ثمّ يضيف الله تعالى إليه حلّا لما يجيب على معضلة الحف تلك بقوله (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ

598 الأنبياء 83، 84.

599 ص 41. 44.

بِهِ وَلَا تَحْنَثْ)؛ ثمّ جاءه الشكر والثناء من ربّه تعالى بقوله (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

أيّوب عليه السّلام نبيا موحى إليه؛ فليس له إلّا التكريم من ربّه، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ}600

ولأنّ أيّوب نبيا مكرّما من ربّه؛ فكانت له الإجابة من بعد الإجابة، وكان لع التيسير من بعد التعسير، أي كان له تزامن العسر مع اليسر مصداقا لقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}601.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أشد النّاس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" وهكذا صار النّاس إذا ذكروا بلاء سيدنا أيّوب وصبره على مر السنين مع كونه أفضل أهل زمانه.

وعليه:

هناك من المبالغة في ابتلاء أيّوب عليه السّلام، وهذا لا يعني أنّه لم يتعرّض لما تعرّض له، ولكن السرّعة في الدّعاء كانت مرتبطة بسرعة الاستجابة (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) أي أنّ اليسر في قصّة النبي أيّوب عليه السّلام قد تلازم مع كلّ عسر.

ومع ذلك سأذكر ما قيل في حقّه بين حقّ وباطل، ومنه:

---

600 النساء 163.

601 الشرح 5، 6.

إنّه ابتلي كما قيل بأن جاءت الشياطين إلى أمواله فأحرقتها، وفتكت بأغنامه وإبله وعبيده وخرّبت أراضيه؛ فلما رأى سيدنا أيّوب ما حل به لم يعترض على الله تعالى بل قال: لله ما أعطى ولله ما أخذ؛ فهو مالك الملك وله الحمد على كلّ حال.

وكما قيل أيضا: عادت الشياطين إلى أفعالها وفسادها؛ فسلطت على أولاد سيدنا أيّوب الذين كانوا في قصر أبيهم ينعمون برزق الله تعالى فتزلزل القصر بهم حتى تصدّعت جدرانه ووقعت حيطانه وقتلوا جميعا ولم يبق منهم أحد. وبلغ سيدنا أيّوب الخبر فبكى لكنّه لم يقابل المصيبة إلا بالصّبر.

امتلأ إبليس وأعوانه غيظا ممّا صدر من سيدنا أيّوب عليه السّلام من صبرٍ وتسليم لقضاء الله وقدره وأصيب سيدنا أيّوب بأمراض شديدةٍ عديدة لكنّه لم يخرج منه الدودُ كما يذكر بعض النّاس الجهال وإنّما اشتدّ عليه المرض والبلاء حتى جفاه القريب والبعيد ولم يبق معه إلا القلة القليلة، لكنّ زوجته بقيت تخدُمهُ وتحسن إليه ذاكرة فضله وإحسانه لها أيّام الرّخاء.

ثم طالت مدة هذه العلة ولم يبق له شيء من الأموال البتة. وكان يزوره اثنان من المؤمنين فارتدّ أحدهما وكفر فسأل سيدنا أيّوب عنه فقيل له وسوس إليه الشيطان أنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصّالحين وأنّك لست نبيا فاعتقد ذلك.

وكما قيل أنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يختبر صبر سيدنا أيّوب عليه السّلام فابتلاه بمرض لم يبقه سليما إلا في قلبه ولسانه، وأصبح رجلا ضعيفا لا حول له ولا قوّة، ولم يعد أحد يزوره من أقاربه وأصدقائه سوى زوجته التي كانت له زوجة صالحة وبارة به ظلت ترعاه طيلة فترة

مرضه وعملت في خدمة النّاس بمقابل مادّي حتى تستطيع أن تطعم زوجها وتخدمه، وظل نبينا عليه السّلام مريضا وفقيرا سنين طوال، ولكن بالرّغم من كلّ المصائب التي حلّت به عليه السّلام فلم يتوانى عن حمد الله وشكره وازداد صبره صبرا كثيرا إلى أن أصبح يضرّب له المثل في صبره.

وقد قيل الكثير ممّا قيل فيه، ولكنّني لم آت منه إلّا بما يليق بي أن اكتبه عن نبيا لا يليق بناء إلّا أن نصلّي ونسلّم عليه كوننا لا نفرّق بين أحدٍ من رسله، {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}602.

دعاء أيّوب:

لما اشتد الحال على أيّوب عليه السّلام ولم يعد يقوى على شيء تضرّع إلى ربّه سبحانه وتعالى ودعا كما ورد في سورة الأنبياء {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضّرّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}603. إنّه النبي أيّوب الذي يثق في أنّه لا تُسأل الرّحمة إلّا من مصدرها، ولهذا فهو قد سأل الرّحمن الرّحيم (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) والرّحيم اسم لله تعالى، ولأنّ اسمه الرّحيم، ومن صفته الرّحمة، إذن لا يمكن أن يَقنُط فاعل خير أو مؤمن من رحمته. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ}604.

ولهذا فالتمسّك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممّارسة الخليفة في الأرض لدوره الطبيعي، أمّا الذين لم يَقدِموا على أداء الأفعال

602 البقرة 285.

603 الأنبياء 83، 84.

604 الرّحمن 60، 61.

الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض. ولذا أحسِن يُحسَن إليك، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّك بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}605 أي أنّ التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنُ من قِبل الذين يُقدّم لهم كلما قدَّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرّحمن الرّحيم، وفي مقابل ذلك إنزال الضّرر بمن لا يعمل صالحا، وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى وقع بين أيدي النّاس الذين وقع عليهم منه ضرّا يستوجب عقابا أو قصاصا عاجلا، والضّرّ الأكبر يلاحقّ الضّرّ الأصغر حتى يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجب ما قبلها.

وبما أنّ الله هو الرّحمن الرّحيم، إذن الرّحمة آتية لا محالة. وبما أنها آتية لا محالة لكل من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟ وعليه فمن يريد أن يَعُمَّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان كما آمن أيّوب عليه السّلام، فالإيمان يمكّن من الاستخلاف في الأرض ويجعل أصحابه من الوارثين في الدّارين.

يقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ ربّكمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}606 كلمتي غفور ورحيم تدلّ على أنّه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أيّ حين على فعل المغفرة والرّحمة، ولهذا جاءت كلمة الرّحيم مستمرّة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقّيقة كما هي سواء كانت ذات أثرٍ سالبٍ أو أثرٍ موجبٍ. وقصّة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما الصّلاة والسّلام دليل شاهد على تجسد الرّحمة في الأفعال {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ

605 فصلت 46.

606 . الأنعام 54.

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ ربّك أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ ربّك وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}607 ولننظر لرحمة الله على أفعال السيد الخضر عليه الصّلاة والسّلام حتى كان بأفعاله رحيما بما هو أتي:

1 . خرق السفينة رحمة: من أجل المساكين الذين يعملون في البحر، ولو لم يعيبها الرّجل الصالح الأكثر علما من سيدنا موسى عليهما الصّلاة والسّلام لكانت تحت حوزة الملك (قاطع الطريق برجاله المأجورين) ليأخذ كل شيءٍ غصبا.

إذن الرّحمة جاءت مرتين:

أ . خرق السفينة رحمة حتى لا تفلت من أيدي المساكين العاملين في البحر وهي مصدر معيشتهم. وبمقارنة خرقها بتلفها نهائيا يكون الخرق رحمة وذلك لأنها أصبحت قابلة للإصلاح وليست قابلة للتلف.

607 . الكهف من 70 . 82.

ب . إقدام الرّجل الصالح على فعل الخرق إقدام رحمة. فلولاه ما سَلِمت من الوقوع في أيدي رجال الملك ولأخذت إلى يوم يبعثون من المساكين العاملين في البحر الذين هم يقتاتون على ما يجنونه على ظهرها.

2 . قتل الغلام رحمة: من أجل الأبوين المؤمنين حتى لا يرهقهما طغيانا وكفرا فكانت الرّحمة عليهما بالتخلص ممن لو بقي حيّا لكان سببا في إرهاقهما طغيانا وكفرا وجاء البديل خير على الوالدين، ولدُ صالحُ، خير زكاة وأقرب رُحمة.

من هذا الأمر جاءت الرّحمة مرتين:

أ . قتل الغلام في ذاته رحمة على الأبوين، باعتباره تخلص من أسباب تؤدّي إلى الطغيان والكفر.

ب . الولد الصالح جاء بديلا للولد الطالح وهذه رحمة من رحمن رحيم.

3 . بناء الجدار رحمة: من أجل الغلامين اليتيمين أبناء الرّجل الصالح الذي ترك لهما كنزُ تحت الجدار حتى إذا بلغا أشدهما (بلغ سن حُسن التصرّف) استخرجا كنزهما رحمة لهما من رحمن رحيم.

يستقرأ من وراء بناء الجدار:

أ . فعل حفظ الكنز كان رحمة وذلك حتى لا يضيع في غير محله.

ب . استخراج الكنز من قِبل الغلامين اليتيمين بعد أن يبلغا أشدهما كان رحمة لهما ورحمة عليهما.

ج . أنّ الأمر الذي جعل الوالد صالحا هو الذي بأسبابه كانت الرّحمة متصلة مع أبنائه.

وعليه: يمكن استنباط الآتي ممّا قص علينا في قصّة سيدنا موسى والخضر عليهما الصّلاة والسّلام من الآيات السابقة الذكر:

1 . الاعتماد على الصّبر في استقراء الأمور ومعالجتها كلما ألمت بالإنسان {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}608. ولأنّ الله وحده هو الذي يصطفي الرّسل والأنبياء من عباده ليجعلهم قدوة ومثالا للخليفة الذي يود له أن يكون في الأرض، لذا كانت الرّحمة حيث قصّ الله علينا من قصص أُولي العزم حتى يقتدي بأقوالهم وأفعالهم كل من يريد أن يكون خليفة لله على الأرض. وهذا لا يعني أن يكونوا بالتمام مثل الرّسل والأنبياء، فالرّسل والأنبياء الذين لا يمكن أن يكون غيرهم مثلهم، بل أن غيرهم بإمكانه أن يقتدي بهم قولا وفعلا وسلوكا، وهذه رحمة من الله تعالى على الخليفة.

فكلمة الخليفة لا تعني أن يحل المستخلف محل من أسخلفه، بل تعني أن يقوم بما يأمر أو يرغب أو يُفضل القيام به. ولهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحل بني الإنسان محل الله تعالى في هذا الأمر استغفر الله ربّ العالمين. فالبشر حتى وإن اجتمعوا لن يخلقوا ذبابا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}609. والعلاقة الاستخلافية بين الرّسل والأنبياء وبين من بُعثوا لهم هي علاقة

608 . الأحقّاف 35.

609 . الحج 73.

سلف وخلف، وعلاقة قدوة حسنة، ولهذا لا يمكن أن يكون الخلف نسخة طبق الأصل من السلف (نتيجة للفروق الفردية) ولذا قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}610 إذن لو كان الخلف نسخة من سلف لكان المؤمنون نسخة من الرّسل وهذا الأمر ليس هينا، إلا على الصالحين. ما جعل الخلف المشار إليهم في الآية السابقة هم الذين أضاعوا الصلاة بدل أن يستمروا بها ويحافظوا عليها كما هي عليه عند السلف الصالح.

2 ـ الرّحمة الكبرى على الغلامين (أصحاب الكنز) أنّ رحمة ربي كانت عليهما مباشرة وذلك لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يبلغ الغلامين أشدهما ولم يكن السيد الخضر الذي يود ذلك (فأراد ربّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربّك). هذه المشيئة هي الرّحمة من الله الرّحمن الرّحيم، فسبح باسم ربّك العظيم (سبحان الله العظم).

علاقة قوية تربط قيمة الرّحمة بأفعال الإحسان، ولا تقصرها على دينٍ أو جنسٍ معينٍ، بل تربط ذلك بمن يقوم بأفعال الإحسان. فعل رحمة من الخليفة يُعد إحسانا يلاقيه فعل الإحسان من الرّحمن الرّحيم، فقد جاء عند الترمذي من حديث ابن مسعود حيث قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم (من لا يرحم النّاس لا يرحمه الله). أفعال الإحسان قد تنال الرضاء من البشر، ولكنها لا تنال الجزاء منهم، فالجزاء بالنسبة لأفعالها لم يكن في الحياة الدنيا، ففي الحياة الدنيا يمكن أن يتم نيل الاعتراف والتقدير على ما يتم تقديمه من أفعال حسان، ولكن الأجر الكبير والأوفر سيتم نيله من الرّحمن الرّحيم، وهذه هيّ الرّحمة فالحمد لله ربِّ العالمين، {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا

610 مريم 59.

وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}611 يقول فضيلة الشيخ محمّد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى: "الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان، الذي إذا أحسن قربت منه الرّحمة"612 ولذلك كلما اقترب الإحسان من الرّحمة اقتربت الرّحمة من المحسن. والمحسن هو المقدِم على ممّارسة وأداء أفعال الخير (الإحسان).

يقول ابن القيم رحمه الله: "هناك ثلاثة دلالات من قوله تعالى: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الدلالة الأولى: دلالة بمنطوقه، عن قرب الرّحمة من أهل الإحسان.

الدلالة الثانية دلالة بتعليله وإيمائه، على أنّ هذا القرب مستحقّ بالإحسان، فهو السبب في قرب الرّحمة منهم.

والدلالة الثالثة: دلالة بمفهومه، على بُعد الرّحمة من غير المحسنين.

الرّحيم دائما قوي في مقابل ضعيف، وهو الذي يمتلك القوّة التي بها يشتد الكرب على المكروب أو بها يُفرج عنه، {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ ربّكمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}613 نلحظ من هذه الآية الكريمة وجود خائف ومخيف، والخائف في حاجة ماسة لرحمة من مخيفه، ولأن مصدر القوّة في هذه الآية هو الله فكان بالخائفين منه رءوف رحيم، وذلك لاعترافهم بقوته وإعلانهم عن مخافته بعد معرفتهم بما ألم من عقاب بالذين سبقوهم بالمعصية، ولهذا ترتب على الخوف تأجيل

611 . الأعراف 56.

612 تفسير الشعراوي المجلد السابع 4180.

613 . النحل 45. 47.

العقوبة وإتاحة الفرصة للإنسان ليتذكر ويُفكر حتى يأتيه اليقين رأفة به ورحمة.

قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}614 عندما يكون المسلمون هم الغالبون (المنتصرون) فإن جنح عدوهم للسلم (إن مال إليهم بسلم) فلا عيب أن يميلوا هم معه إلى كل ما من شأنه أن ينهي الحرب بينهم. وبطبيعة الحال لا يجنح للسلم إلا مغلوب بالقوّة، فعندما تشتعل نار الحرب يميل الضعيف إلى عقد المصالحات أو المعاهدات مع عدوه الأقوى. ولهذا نلحظ أن زمن المفاوضات بين الأقوياء يطول، وبين الضعفاء يقصر، وبين القوي والضعيف يكون بين أمرين:

الأمر الأوّل: أن القوي يعمل على عدم إطالة زمن التفاوض، بما أنه منتصر والفرصة مناسبة لإملاء شروطه.

والأمر الثاني: أنّ الضعيف يعمل على إطالة زمن التفاوض لأجل أن يغتنم الوقت ويعد العدة من جديد.

وعليه من يريد أن يكون الخليفة عليه أن يستمد صفة الرّحمة من الرّحمن ويستمد فعلها من الرّحيم الذي أوجب الجنوح للسلم كلما مال الخصم أو العدو إلى إبرام صلح أو عقد مسالمة. أما الاستكبار فلا يؤدّي بصاحبه إلا للهلاك، {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا

---

614 الأنفال 61.

يُنْصَرُونَ}615 الله جلّ جلاله هو القوّة بذاته فمن يحاول أن يستكبر على القوّة فلابدّ أن يُهزم، ولو لم يكن رحيم لكان العقاب في حينه على كل فعل، ولأنه كذلك يؤجل العقاب عن معظم الذنوب حتى يكون للإنسان الزمن والفرص الكافية للتبيُّن من أجل التكفير عن السيئات.

جاء اسم الرّحمن مصدر لكلّ رحمة، وجاء اسم الرّحيم قائم بأفعال الرّحمة، ولهذا فمن اسم الرّحيم يستمد فعل الرّحمة، {فانظر إلى أثار رحمت الله}616 يتضح من هذه الآية الكريمة، إنّ للرحمة أثر، والأثر لا يمكن أن يكون إلا بفعل من تركه، فلو لم يكن هناك فاعل ما كان هناك أثر قابل للتقصي والمعرفة. فإذا نظرنا للرياح والسحب، نتوقع سقوط المطر، وإذا سقط المطر، أنبت عشبا، ما يجعل كل من الرياح والسحب والمطر ونبات العشب أثار من رحمة رحيم. وإلا هل هناك غيره قادر على القيام بهذه الأفعال نيابة عنه! {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}617 من الآية السابقة عرفنا إنَّ البلد الميت أثر، وسقوط المطر عليها أثر، والنبات المثمر أثر، وهذه الآثار جميعها تشاهد من قبل كل ذي بصر، ولكن الأثر الأعظم هو الذي يلحظ ويدرك ولا تراه الأبصار إنه (أحياء موت البلد) الذي يتماثل مع أفعال الرّحيم في إحياء الموتى. ولذا فبالملاحظة ندرك ونقارن بين الظروف التي كان عليها البلد ميتا وبين الظروف التي غيرته إلى حياة. وعليه لو لم يكن

615 . فصلت 15.

616 . الروم 50.

617 الأعراف 57.

إمكانية إحياء الموتى حقّيقة، ما آمن المؤمنون بيوم البعث الذي لا يمكن أن يكون إلا بقوّة إحياء الموتى.

إذن كلّ رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرّحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرّحيم خالية من الرّحمة، ولهذا كل أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة. وبما أن الأمر كذلك إذن بطبيعة الحال تكون الرّحمة صفة للرحيم. وبما أنّ الرّحمة صفة، إذن الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكن فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة بها وخليفة عليه.

ولارتباط الرّحمة بالرّحيم، نلحظ أينما وُجِدَ رحيم وجدت الرّحمة، وأينما غاب رحيم غابت الرّحمة. ولأن الله هو الرّحمن الرّحيم فإن رحمته لن تنقطع، ولهذا فالعذاب يخص والرّحمة تعم {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}618.

ولأنّ العذاب عام والرّحمة خاصّة، جاءت قضايا العذاب جامعة مانعة، جامعة للذين يحقّ عليهم العذاب، وتستني الذين يقومون بأفعال الرّحمة. أمّا قضايا الرّحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة، جامعة لكل من هم يقومون بأفعال الرّحمة (أفعال الخير) ومستوعبة لكل من يُكفِّر عن سيئاته متى ما يشاء.

وعليه لكل من العذاب والرّحمة أفعال مترتبة على أفعال، ولكل من العذاب والرّحمة فاعل، ولذلك لا يمكن أن يكون العذاب أو الرّحمة إلا بفاعل. ولهذا فإن فاعل الرّحمة هو الرّحيم الذي تتصف أفعاله بها، وفاعل العذاب هو المنتقم الذي تتصف أفعاله بها، وفي هذا وذاك فإن

618. الأعراف 156.

الله واحد هو الرّحمن الرّحيم وهو المنتقم من الذين يجرمون ما يجعل انتقامه منهم رحمة على المؤمنين {فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}619.

وقد يتساءل البعض:

كيف تترتّب الأفعال على الأفعال؟

أقول على سبيل المثال: لو لم يقترف المنحرف جريمة ما صدر بشأنه فعل عقابي، ولذا فالعقاب فعل مترتب على الفعل الانحرافي. ولو لم يكن يونس عليه الصّلاة والسّلام من المسبّحين للبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، ولو لم يكن أيّوب من الأنبياء المصطفين لكانت الإجابات قد أخذت وقتا من الزّمن. وهكذا دائما تترتب الأفعال تحت ظروف السبب والمسبب، والعلة والمعلول.

الرّحمة قيمة علائقية، بها تلين القلوب وتقترب من بعضها بعضا من أجل ما يُفيد وينفع ذوي العلاقة سواء كانوا أفراد أسرة أو عشيرة أو رفاق عمل أو جيرة أو أصحاب مصلحة أو مواطنو دولة. فبدون الرّحمة لا يمكن أن تتكون العلاقات بين النّاس، وإذا انقطعت الرّحمة انقطعت العلاقات وإذا سادت بينهم سادت العلاقات. فعلى مستوى الأسرة لا يمكن أن يحدث التفكك والرّحمة سائدة بين الوالدين والأبناء وبين الأخوة جميعا، ما يجعل الرّحمة شرطا رئيسا للُّحمة والوحدة وتبادل المحبة بين النّاس.

حُب الخالق لعباده رحمة، وحب العباد لخالقهم رحمة. هذا الأمر هو الذي يجعل من الرّحمة بين النّاس مركز لكفتي ميزان، التي لا تتمركز وتعتدل إلا بالمساواة بين الكفتين.

619 . الروم 47.

وعليه، إن الرّحمن هو مصدر الرّحمة، وأن الرّحمة هي المسبب في تكوين العلاقات وقوّة روابطها، وأن الرّحيم هو الذي به تتم أفعال الرّحمة. ولهذا جاء قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}620 بطبيعة الحال لو لم يكن الله واحدا ما كان رحمن ورحيم، وما كانت هناك رحمة، ولهذا وحدانية الله تعالى هي الرّحمة الكبرى، فالحمد لله ربِّ العالمين.

وقد يتساءل البعض: لماذا الرّحمة؟

الرّحمة ليست حاجة كما يظن البعض، بل الرّحمة مشبع حاجة، ولو لم تكن مشبعة للحاجة ما كنّا جميعا نسعى لنيلها. الحاجة هي الراحة والسكينة والطمأنة، وبما أن هذه حاجات، إذن هناك أسباب تكمن ورائها، والسبب الرئيس وراء هذه الحاجات هو الألم، الذي كلما ألمّ بالإنسان كان في حاجة للراحة والسكينة، وهذه لا يمكن أن تتحقّق بدون رحمة ولهذا فالرّحمة جاءت لإشباع الحاجة. ولأن الإنسان خُلق ضعيفا فهو مخلوق ليسعى حتى يتمكن من الإشباع الذي يمده بالقوّة، وإلا سيظل دائما في حاجة، {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}621 التخفيف دائما للأعباء والآلام عمن لا يستطيع وذلك لمحدودية مقدرته ودرجة تحمُّله.

وبما أنَّ الإنسان خُلق ضعيفا، إذن لا يمكن أن يكون خليفة الله تعالى، فالله تعالى القوي المتعال لا يخلفه أحد، ولهذا كان المستخلف منه في الأرض وليس الخالف له فيها أو عليها. فالله عزّ وجلّ يؤلِم ولا يتألم، ويرحم ولا يُرحم، ويقدر ولا يقدر عليه، ولذا لا يخلفه أحد، ولكن بقوته جعل الخلائف من بعده قوّة مستخلفة في الأرض، والخليفة

620. البقرة 163.

621. النساء 28.

لا يكون في حالة ضعف إلا إذا تأملنا في قوّة الخالق المطلق جلّ جلاله فلا مجال للمقارنة، ويكون الإنسان ضعيفا إذا ما غلبت عليه الشهوة في غير محلها، ولهذا فهو في حاجة لأن يُرحم. ولذلك يقول تعالى: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}622 الألم واحد وكل من يحس يتألم، سواء بأثر لفظي (كلمة إهانة) أو بأثر مادي (ضربة) وسواء كان مؤمنا أو كافرا فالألم هو الألم لا فرق فيه. الفرق فيما يترتب عليه، فالمؤمنون في الآية السابقة يرجون ثواب (رحمة) من الله، وهذا ما لا يرجونه الكافرون. وما يماثل هذه الآية قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}623 يقال أنها جاءت لتبيان المعنى الدال على ما أصاب المسلمين يوم أحد من جراح وآلام، وهو بالتمام ما أصاب الكفرة يوم بدر، وتلك الأيام نداولها بين النّاس، فعلى المؤمنين أن يقبلوا بيوم لنا ويوم علينا إلى أن يتحقّق لهم النصر بإذن الله فلا يقنطوا من رحمة الله فهي آتية لا محالة {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}624 وقال تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}625.

إذن الرّحمة أمل ينبغي أن يسعى الخليفة إلى بلوغه. ولا ينبغي له أن ييئس، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرّحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرّحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم

622 . النساء 104.

623 . آل عمران 140.

624 الحجر 56.

625 . الروم 36.

إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

الرّحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحقّقت الرّحمة، ولولا الرّحمة ما تحقّق الأمل. وعليه الرّحمة في ذاتها مُعطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كل رحمة رحيم ووراء كل أمل مرحوم.

بناء على ما تقدم فإن أثر الألم يقع في دائرة الممكن (السالب والموجب) في ساعة الإنجاب يكون الألم سيدا فيها، ومع أنّه ألم إلا أنه المنتظر بفارغ الصّبر، حيث من بعده ولادة، التي بها تكون الفرحة وتنتشر بين ذوي العلاقات، وكذلك يوم الختان فرحة في ساعة ألم، وهكذا يكون الزواج فرحة في ساعة ألم. وفي مقابل ذلك يكون الموت راحة من ألم (شفاء دائم من داء) وحتى إن أزداد الألم في يومه ليحسبه البعض ساعة ألم في يوم حُزن، يكون البعث من بعده فرحة في يوم الفرحة. ولذا {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}626. وبمراجعة ما سبق نُلحظ أن كل شيء رحمة فالحمد لله الرّحمن الرّحيم.

وهكذا تكون العلاقة بين المرض والمصاب به، ألم يجعله في حاجة للشفاء، الذي لا يمكن أن يكون بدون علاج المرض، وسيظل الألم إلى أن تزال أسبابه، ما يجعل المريض في حاجة لمقابلة الطبيب المتخصص حتى يكتشف الأسباب والعلل ويصف الدواء المقاوم للأسباب والعلل، وسيظل الألم إلى أن تزول الأسباب، وقد يتبين للطبيب أن المريض في حاجة ماسة لإجراء عملية جراحية، التي عندما يعرف المريض أن من

626 . الروم 44.

بعدها سيشفي فيأذن بالإقدام عليها مع معرفته التامة بما يترتب عليها من ألم قد يضاف إلى آلامه السابقة، ما يجعل إجراء العملية ساعة ألم في يوم فرحة نجاحها.

وفي مقابل ذلك فرحة الظالمين بفوزهم على المظلومين هو يوم فرحة في يوم ألم. فاليوم الذي يفرح فيه الفائز ظلما يتألم فيه المظلوم مهزوما، إلا أن المترتب على الفعلين سيكون معكوسهما بالتمام في اليوم الذي لا ينقطع (اليوم الآخر) فالظالم سيظل في يوم ألم (العقاب) والمظلوم سيظل في يوم فرحة (الإثابة) أمام عدالة الرّحمن الرّحيم مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}627.

وعند ما يجد الإنسان نفسه إراديا بين اختياري فرحة وألم، فقد يقبل بتقديم ساعة الألم على ساعة الفرحة، فالفتاة في عُرسها تجد نفسها بين أن تفارق أسرتها مؤقتا وبين أن تتزوج، فهي بطبيعة الحال ستُقدِم يوم الألم (يوم الانفصال النسبي) الذي قد يحس به الوالدين والأخوة أو قد يحس به البعض منهم مثلما هي تحس بألم الرحيل عنهم، لتعيش أيام فرحة من بعده. وهكذا بعد الزواج إن كان فاشلا سيظل ألم إلى أن تأتي ساعة الفراق التي هي ألم لعلاج مشكلة. هذا الألم يتماثل من حيث تقريب المعنى من ألم إجراء العملية الجراحية للمريض التي من بعدها تأتي أيام الفرج فرحة.

تتعدد أفعال الرّحمة بتعدد ما يُقدّم من أعمال حِسان، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ

627 . آل عمران 182.

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}628 فلننظر إلى هذه الآية الكريمة والكيفية التي تتعدد الرّحمة فيها:

آلا تُعد صلاة الله على الخليفة رحمة.

آلا تُعد صلاة الملائكة على الخليفة رحمة.

آلا يُعد الإخراج من النار رحمة.

آلا يُعد دخول النور رحمة.

آلا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة.

آلا يُعد وجود الرّحمة في ذاته رحمة.

آلا يُعد اسم الرّحيم الفاعل للرحمة رحمة.

بناء على هذه المعطيات خُلق الإنسان ضعيفا، ولأن الأمر كذلك فهو في حاجة لقوي وبيده الرّحمة وقادر على فعلها متى ما تعلق الضعيف به وجده رحمن رحيم كريم عفو فله الحمد والشكر.

ولأنّ رحمة الله واسعة فهي لم تقتصر على فئة دون فئة، بل أبوابها مُفتَّحة لكل من يريد الدخول فيها، {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}629فلننظر إلى هذه الآية حتى نستبين، آلا تُعد رحمة الله قد جاءت مطلقة دون أي استثناء، ومطلقة لأن تغفر الذنوب جميعا. آلا تُعد هذه الآية جامعة لكل الرّحمة، وفاتحة أبوابها لكل النّاس. ولأن رحمة الله واسعة لتعم النّاس قال تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ

628 أ الأحزاب 43.

629 الزمر 53.

لِلْمُتَّقِينَ}630 ويقول {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}631. بهذه الآيات يتم التأكيد على أنّ الرّحمة عامة، وقضاياها جامعة لا مانعة. أمّا أنّ الله بالمؤمنين رءوف رحيم فهذه تدلّ على التخصيص باعتبار أن الرّحمة سبقت إلى البعض الذي آمن وبالتالي كانت المترتبة على الأفعال الإيمانية مصداقا لقوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}632.

الرّحيم هو الله دائم الرّحمة، في الدنيا والآخرة، فهو رحيم على كل من يؤمن به ولا يشرك، فالرسالات السماوية نزلت من الرّحمن الرّحيم على الرّسل رحمة للعباد. وإنَّ نجاة نوح عليه الصّلاة والسّلام ومن كان معه من قومه في الفلك المشحون كانت رحمة عليهم {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}633. وكذلك كانت نجاة يونس عليه الصّلاة والسّلام رحمة {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}634 وكانت نجاة لوط عليه الصّلاة والسّلام رحمة من رحيم {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}635.

---

630 الأعراف 128.

631 . العنكبوت 63.

632 . الأحزاب 43.

633 . الشعراء 117 . 122.

634 . الصافات 144.

635 الصافات 131 . 135.

الرّحيم هو الذي بعزّته تصبح الأقوال والأفعال آيات شواهد دالة على المقدرة في الدارين، ولذا فالرّحيم هو دائم الوجود، والعطاء، والرّحيم بمد الياء كما سبق أن بيّنا تحمل في مضمونها مدلولات البقاء والاستمرارية المتصلة، ولأنّه رحيم جعل في الأرض خليفة، على حالة تعاقب واستمرارية من الخلائف في الحياة الدنيا. ولهذا فإنّ الله هو الرّحيم، والخلائف هم الرحماء فيما بينهم. ومع أنّهم رُحماء إلا أنّ الله هو أرحم الراحمين {وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}636 وكذلك قوله {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}637.

الرّحمة قيمة مترتبة على فعل سابق، {أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ}638العذاب فعل مترتب على أفعال سابقة وإلا هل هناك من يُعذّب دون أن يرتكب الخطايا! وفي مقابل ذلك هل هناك من يجازى (يُرحم) إن لم يقم بالأفعال الحسان! ولهذا كتبت الرّحمة لتبقى وكتب العذاب ليزال بالتصحيح والتكفير.

والعلاقة القوية هي التي تربط بين ارتكاب الفعل والتكفير عنه، {مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}639في هذه الآية نلحظ الأفعال تترتب على الأفعال كما تترتب العلل والأسباب التي تظهرها. ما جعل الفعل السوء يترتب على مغريات سلبية وسابقة

636. المؤمنون 118.

637 يوسف 64.

638. الأعراف 157،156.

639. الأنعام 54.

عليه، ومع أنّها لم تُذكر في هذه الآية إلا أنها تستنبط منها، ولأنها أسباب وعلل سيئة ترتب عليها فعل سوء. ولأنه فعل سوء جاءت التوبة فعل مترتب عليه، ومع أنّ التوبة فعل موجب إلا أنها لا تأتي إلا من بعد فعل سالب وهذا دليل الرّحمة الواسعة، ولهذا لو لم يكن الفعل السوء سابق ما جاءت الرّحمة لاحقّة لتصحيحه وإصلاحه، ولذلك جاء فعل الإصلاح مترتبا على فعل التوبة، المتضمنة في واسع رحمته، التي رتبت فعل المغفرة على فعل الإصلاح.

ومع أنّ المغفرة دائمة بديمومة الرّحمة، إلا أنها لا تتحقّق إلا بإرادة، إرادة من يرغبها، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}640 معصية الله تعالى فعل سالب، ومعصية الرّسول صلّى الله عليه وسلم فعل سالب مترتب على معصية الله، وكذلك تعدّي الحدود فعل سالب مترتب على فعل سالب، إدخال المتعدي بالأفعال السالبة إلى النار جاء فعل موجب. ولذا في هذه الآية ترتب الفعل الموجب على ثلاثة أفعال سالبة، وهذه رحمة. وعليه ليس دائما العقاب سالبا، فالعقاب في أساسه لاستهداف أو تحقّيق موجب، ولذلك كان الفعل الموجب بالنسبة لمن هم في رحمة الله أنّ المتعدي حدود الله يجب أن يدخل النار، أمّا الفعل السالب بالنسبة لهم أن المتعدي لحدود الله يدخل معهم الجنّة، ولهذا قلنا إنّ دخول المتعدين حدود الله إلى النار فعل موجب مترتب على أفعال سالبة.

جاء اسم الرّحيم فاعل للرحمة المستمدة من اسم الرّحمن، ولهذا فإنّ الرّحمة كنز من الخير الوافر، فمن أراد أن يخرج من الكنز ما يشاء فليفعل متى ما يشاء وكيفما يشاء، ومن لم يرد، فلا إكراه في الدين قد تبيَّن

640 . النساء 14.

الرشد من الغي، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}641. ولذا فمن يرد أن يكون الخليفة للرحيم فعليه بأفعال الخير الكثيرة، لا أن يكون مانعا لها، {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}642هذا المعتدي لم تتوفر فيه اشتراطات الخليفة، ولأنه كذلك فهو المخلف وليس المستخلف.

وبطبيعة الحال بما أنّ هناك رحيم، يكون هناك من هو في حاجة لأنّ يُرحم، وبما أنّ الإنسان خُلق ضعيفا من حيث غرائزه ومشاعره وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات، إذن هو في حاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته. ولهذا فالرّحيم لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولا يكون منّاعا للخير معتدٍ أثيم.

وعليه فالرّحيم قوي، ومن يُرد أن يكتسب هذه الخاصية ليصبح خليفة فعليه أن يتخلّص من أسباب الضعف والوهن، حتى يمتلك مقاليد الأمور التي تمكنه من أن يكون رحيما.

الرّحيم لا يمكن أن يكون خصما، ولذا من يدخل في خصام مع النّاس يفقد خاصية من خاصيات الاستخلاف في الأرض. ومع أنّ الله جعل في الأرض خليفة إلا أنَّ الخليفة مهما امتلك من معطيات الرّحمة واتصف بأفعال الرّحيم، فهو في ذاته محتاج لرحيم ليحفظه من كل سوء، ولهذا قال تعالى {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}643.

الرّحمة، إضافة خير على من يستحقّه، ولذا زيادة الخيرات بين النّاس رحمة، ومن يعمل على ذلك تتجسد صفة الرّحيم في أفعاله

641 . فصلت 46.

642 أ القلم 12.

643 . يوسف 64.

وسلوكه. ومن لا يعمل على ذلك يُعد من الذين يفتقدون لخاصية من خاصيات الخليفة. ولذا فإن أفعال الخيرات الحِسان هي أفعال رحمة، وصفات من رحمن رحيم {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}644. وقوله تعالى: {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}645. من الآيتين السابقتين يتضح ازدياد الرّحمة بالتسابق على أعمال الخيرات، والإسراع لأداء أفعالها الحِسان، وجاءت الخيرات مطلقة لتعم كل فعل من ورائه رحمة.

ولهذا يتضمن كل اسم من أسماء الله الحسنى، أرواح فاعلة، لإحداث الاستجابة، ولذلك كلما دعوت بقلب سليم اسم من أسمائه الحسنى جاءتك الاستجابة التي بها تتغير الأحوال من سالب لموجب، أو من سيءٍ لحسن، أو من حسن لأحسن منه فالحمد لله ربِّ العالمين.

الرّحيم هو العطوف على كل من هو في حاجة لرحمته، ممّا جعل لكل طلب استجابة قابلة للاستدعاء عند الكرب وفي كل وجوب، وكذلك عند الضّرّورة {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} من يدع الله لا يخيب له رجاء، ومن يستجيب لله لا يضل طريق الصواب. لذا جاء خلق الخليفة ليعمر الأرض، وجاء الإيمان بالخالق فعل خير مترتب على فعل الخلق والاستخلاف في الأرض، ممّا يجعل الاستجابة في حالة مبادلة. فالاستجابة بالإيمان بالخالق ترتب عليها استجابة الخالق لعباده الداعين له {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ

644 المؤمنون 61.

645 آل عمران 114.

فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}646.

ومن رحمة الرّحيم بخلقه أنّه أحسن بلطفه كل شيء بدأه وأتقن صنع كل شيء أنشأه، ودبرت الأحكام بحكمته، وصرف المحكومات بمشيئته، فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته، وعمّ في العاجل والآجل خلقه بنعمه التي أسبغها على خلقه ظاهرة وباطنة، ونشر على مَن أحبّ منهم فضله، وبسط لجميعهم عدله، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه، سبحانه وتعالى، وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه، وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم، ومنَّ عليهم ببعثه رسولا من أنفسهم إليهم يهديهم إلى سواء السبيل، وقد كانت دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رحمة لذريته أن يبعث الله فيه رسولا حيث قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}647 فقد دعا الله الرّحيم أن يبعث في ذريته رسولا منهم يقرأ عليهم آيات ويعلّمهم ما يوحى إليه به من كتاب وعلم نافع وشريعة محكمة، ويطهرهم من ذميم الأخلاق، إنك أنت الرّحيم بعبادك فيما تفعل وما تأمر به وما تنهى عنه، وما فعل ذلك إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وما دعا به ربه إلا رحمة وشفقة وقد ثبت أنه استجيب له كما جاء في حديث رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: "إني عند الله في أم الكتاب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرجت منها نور أضاءت له قصور الشام"648 فهو رحمة مهداة من الرّحيم يدعو إلى سبيل ربه وهو سبيل الخير والصلاح والرّحمة

646 الشورى 26، 27.

647- البقرة 129

648 مسند الشاميين للطبراني، ج 5، ص 11

بما أوتي من الحكمة ما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقّة والأحكام والموعظة الحسنة التي تهدي إلى الصراط المستقيم، فكل كلمة فيها عظة للإنسان أو تدعوه إلى مكرمة أو تنهاه عن قبيح فهي رحمة له ورحمة به، والتزكية بحسب قوتهم العملية هي تطهيرهم من دنس الشرك وأنواع المعاصي، وهذا رأفة وشفقة من الرّحيم على عباده في إجابة الدعاء من أجل رحمتهم وتراحمهم.

فانّ الله المقدس في ذاته، المنزه عن سمات النقص في صفاته، لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركهم هملا، حيث أنزل لهم الرّحمة التي يرحمهم بها ويتراحمون فيما بينهم بها، فقد أودع في كل مخلوقاته من بديع صنعه ولطيف آياته ومن الحكم والعبر والرأفة والشفقة والعطف ما لا يدع مجالا لأن يشك عاقل في رحمة الرّحيم، بما وهب الخلق من هذه المشاعر وأثاب من يفعلها ويعمل بها. لقد غرس الرّحيم رحمته في قلوب خلقه وهذا معنى أنه أنزل عليهم رحمته كما قال النبي صلّى الله عليه وسلم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة".649

فهذه الرّحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون ويرحم بعضهم بعضا، ويكون بينهم العفو والمغفرة فيما بدر من أحدهم للآخر، وكذلك يستعمل الله هذه الرّحمة فيهم فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفا بها، فهي التي يرحمهم بها زائدا على الرّحمة التي خلقها لهم، ومن رحمته أيضا أن الله سبحانه وتعالى لأنه رحيم خصص ملائكة للاستغفار لمن في الأرض حيث قال تعالى: {كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى

649 صحيح مسلم، ج 13، ص 311

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}650 إنّ السموات مع عظمهن وتماسكهن يكدن أن يتشققن من فوقهن، خشية من الله ورهبة وخوفا، وتأثرا بعظمته وجلاله، والملائكة ينزهون الله عما لا يليق به، مثنين عليه بما هو أهله، ومع هذه العظمة وهذا الجلال المهيب، فإن الله تعالى لأنه رحيم بالعباد فقد أوعز إلى الملائكة بأن يسألوا الله المغفرة والرّحمة لأهل الأرض علما منه أنّ كثيرا من أهل الأرض لا يستغفرون؛ فأذن للملائكة أن تستغفر لهم حتى لا يهلك الصالحون، وكذلك يرحمهم بأن يرزقهم جنته وقربه ووصاله، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم مع كثرة عصيانهم، وللكافرين الذين يرتكبون الشرك والذنوب العظام بأن لا يقطع رزقهم ولا صحتهم ويمتعهم من الدنيا وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة، فهو وحده صاحب المغفرة الشاملة والرّحمة الواسعة. وهذه الرحمات التي أمسكها عنده، جعل ملائكته مستغفرين لمن في الأرض، لأن استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرّحمة لأهل الأرض بما فطرهم الرّحيم عليه. فالله سبحانه وتعالى هو الرّحيم المطلق بما رحم به جميع خلقه دون استثناء في الحياة الدنيا، من مؤمن وفاجر، ومسلم وكافر، وأمّا في الآخرة فأمرهم إلى الله الرّحيم، يحكم بينهم ويحاسب كل واحد على عمله، ولذلك فقد جعل الرّحمة في قلوب عباده المؤمنين، وجعلهم خلفاء يرحمون ويأمرون النّاس بالتراحم، فالخليفة الذي أراده الرّحيم لإعمار أرضه هو رحيم بالإضافة، يرحم نفسه من أن يودي بها إلى التهلكة، ويرحم الآخرين ويأمرهم بالرّحمة، فقد جاء في الحديث:

650 الشورى 3- 5

"أرسلت ابنة النبي صلّى الله عليه وسلم إليه إن ابنا لي قبض فأتنا فأرسل يقرئ السلام ويقول إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"651 أنّ رحمة الله تختص بمن اتصف بالرّحمة ويدخل في ذلك من فيه أدنى رحمة، والراحمون يرحمهم الرّحيم، لذلك وجب على الخليفة أن يكون رحيما ويتحلى بصفات الرّحيم ليكون رحيما بالإضافة، فيفعل ذلك ويحمل النّاس على التراحم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى على الرغم من الحدود والشرائع والنواهي والمحرمات التي وضعها للناس، فهو يتجاوز عنهم بالرّحمة والمغفرة، لأنه رحيم وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}652 فمن رحمته أنه أباح للناس كل حلال خلقه لهم في الأرض، ونهاهم من أن يتبعوا خطوات الشيطان، فإنْ فعلوا ذلك اهتدوا ورحموا، وإن أبوا فإنه خص المؤمنين بهدايته وبيّن لهم الحلال والحرام، فقد أبيح لكم أن تأكلوا من لذيذ الطعام الطيب وهذا من الرّحمة، وكذلك تحريم الخبيث من الرّحمة أيضا، فاشكروا الله على ما أولاكم من نعمة التمكين من الطيبات وإباحتها، ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره لتتم عبادتكم له حتى يتم رحمته لكم.

651 صحيح البخاري، ج 5، ص 31

652 البقرة 172- 173

وإنما المحرم عليكم الميتة التي لم تذبح من الحيوان، ومن الدم المسفوح، ومثله في التحريم لحم الخنزير، وما ذكر على ذبحه اسم غير الله من الوثن ونحوه، على أن من اضطر إلى تناول شيء من هذه المحظورات لجوعٍ لا يجد ما يدفعه غيرها أو لإكراه على أكله فلا بأس عليه، وليتجنب طلب هذه المحرمات والرغبة فيها، ولا يتجاوز ما يسد الجوع. على أنّ من دعته الضّرّورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات غير طالب اللذة بالأكل، وغير متجاوز قدر الضّرّورة، فلا حرج عليه لأنّ الله تعالى هو أعلم بحاله وحال اضطراره، لذلك فهو غفور رحيم. ولأنّه رحيم فلا يؤاخذه على ذلك، لأنه سبحانه وتعالى، غفور لعباده يغفر لهم ما يقعون فيه من أخطاء لا يصرون عليها، رحيم بهم حين منعهم ممّا يضرّهم، وأباح لهم ما يحفظ حياتهم، ولا تقف رحمة الرّحيم عند حدّ الإقدام على ما نهى عنه الله تعالى من الطعام والشراب، ولكنّه تعالى يتجاوز عن كثير ممّا يرتكبه العباد بحقّه تعالى ويرحمهم إذا أخلصوا النية في التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فقد ذكر الله تعالى الذين تخلفوا عن رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في غزوة تبوك حيث قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}653 لقد تفضل الله سبحانه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، الذين خرجوا معه إلى الجهاد في وقت الشدة فثبتهم وصانهم عن التخلف، من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم، حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد، ثم غفر الله لهم هذا الهم الذي خطر بنفوسهم، إنه سبحانه كثير الرأفة بهم، عظيم الرّحمة. وتفضل سبحانه بالعفو عن الرجال الثلاثة

653 التوبة 118

الذين تخلفوا عن الخروج في غزوة تبوك – لا عن نفاق منهم – وكان أمرهم مرجأ إلى أن يبين الله حكمه فيهم، فلما كانت توبتهم خالصة، وندمهم شديدا، حتى شعروا بأنّ الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها، وضاقت عليهم نفوسهم هما وحزنا، وعلموا أنه لا ملجأ من غضب الله إلا باستغفاره والرجوع إليه، حينئذ هداهم الله إلى التوبة، وعفا عنهم، ليظلوا عليها، إن الله كثير القبول لتوبة التائبين، عظيم الرّحمة بعباده.

إنّ الرّحيم بالإضافة يعلم مدى رحمة الله به، وحجم هذه الرّحمة التي أنعم بها عليه وعلى عباده، لذلك فهو دائم الرّحمة للآخرين بوسائل كثيرة ممّا وهبه الرّحيم المطلق من أنواع الرّحمة ممّا أسبغ عليهم من نعم الدنيا وما وعدهم به من الرّحمة في ما ينعم عليهم في الآخرة، فالنعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى ما استعملها على ما يجب وكما يجب، ويجري بها على الوجه الذي لأجله خُلق، وذلك أن الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقّيقية والرّحمة الدائمة من الرّحيم المطلق. فشرع الرّحيم، في كل منها حكما بيّن فيه كيف يجب أن يتناول ويتصرف فيها، لكن النّاس في تناولها فريقين: فريق يتناوله على الوجه الذي جعله الله لهم فانتفعوا به حسب ما أمر الرّحيم من التراحم بين الخلق في وجوه الخير لعباد الله من كفالة اليتيم والأرامل وبسط الوجه للفقراء والمساكين وما إلى ذلك من أبواب الرّحمة التي يتبعها الرّحيم بالإضافة ومن هم جديرون بأن يكونوا خلفاء، فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[654] فهؤلاء الذين

654 الحج 41

استحقّوا أن يكونوا خلفاء الرّحيم بما اتصفوا به من سمات الرّحمة هم الذين وعدهم الرّحيم أن يجزيهم أحسن ما عملوا، لأنّه عندما مُكّن سلطانا في الأرض حافظوا على حسن صلتهم بالله وبالنّاس بالتواد والتراحم والعطف، وكذلك في أداء حقّ الرّحيم عليم من العبادات، فيؤدون الصلاة على أتم وجوهها، وحقّ الرّحمة التي زرعها في قلوبهم، فيعطون زكاة أموالهم لمستَحقّيها، ويأمرون بكل ما فيه خير، وينهون عن كل ما فيه شر، وهذا من أعظم أبواب الرّحمة، لأن الرّحيم مكن لخليفته في الأرض من أجل إقامة العدل، وعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، فأيّ رحمة للعباد من الخليفة أعظم من رحمة العدل والمساواة وإعطاء الحقّوق إلى أهلها، ولذلك فالرّحيم المطلق مكن للرحيم بالإضافة في الأرض وبسط له في الدنيا من أجل بسط الرّحمة ونشرها، فالخليفة ومن سار على نهجه في التراحم والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، وإتباع الإحسان فقد قال الله تعالى فيهم: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}[655] فهؤلاء الذين اتبعوا أوامر الله الرّحيم فيما شاءه من خير لعباده، والتزموا بأنهم يرحمون الآخرين هم خلفاء الله في أرضه، لأنهم كانوا يسعون إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة للناس جميعا، فكانوا بذلك من المحسنين. والله الرّحيم سبحانه يكافئ المحسنين بحياة طيبة في هذه الحياة الدنيا، ويكافئهم في الآخرة بما هو خير وأحسن ممّا نالوه في الدنيا، ولنعم الدار التي يقيم فيها المتقون في الآخرة، فهم مرحومون من الرّحيم بما كانوا يرحمون. لأنهم التزموا الأوامر والنواهي بما ينشر الرّحمة بين النّاس، فكان ذلك في قلوبهم من الإيمان والصدق والإخلاص في النية، فالطاعة بالمال والبدن ولين

---

655 النحل 30

الجانب وبسط الوجه والقيام بحوائج النّاس، هو من أبواب الرّحمة التي أمر بها الرّحيم.

وأمّا الفريق الثاني الذي أنعم الله عليه بنعمة المال والأمن والولد وزينة الحياة الدنيا، ولم يصرف ذلك في الوجه الذي أمر به الرّحيم، وكانوا غليظي القلوب وقد نزعوا من أنفسهم الرّحمة والعطف على الآخرين، وصرفوا ذلك بغير الوجه الذي يرضى الرّحيم عنه، وركنوا إلى ذلك، فصار لهم نقمة وشقاوة، فتعذبوا بها عاجلا وآجلا وهم الموصوفون بقوله تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}656 إنّ الذين لا ترق قلوبهم، ويحرصون على ما في أيديهم، ولا ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، ولا يرحمون الآخرين، فإن الله ما أعطاهم هذا إلا ليكابدوا في سبيله المتاعب والمشقات، لحفظه في الحياة الدنيا، دون أن يؤجروا على ذلك، ويدركهم الموت، فيعذبون بسببها في الآخرة.

إنّ الرّحيم المطلق الذي استخلف الإنسان في الأرض، أمره أن يتصف بصفات الرّحيم حتى يستحقّ أن يكون خليفة، وقد أمر النبي عليه الصّلاة والسّلام وهو سيد الخلفاء والمشرع لهم أن يكون الإنسان رحيما في أفعاله وأقواله وتصرفاته فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"657 ففي هذا تعظيم لحقّوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، وأن يرحم بعضهم بعضا لحلاوة الإيمان لا لشيء آخر، وبالتواد التواصل الجالب للمحبة

656 التوبة 55

657 صحيح مسلم، ج 12، ص 468

كالتهادي وبالتعاطف إعانة بعضهم بعضا في قضاء حاجات من له حاجة. وكذلك يظهر من خلال هذا التراحم أنّه يدلّ على أنّ الخليفة وهو المؤمن، يسره ما يسر أخاه، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد، فإنّ الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يساويه فيه لأنه يحب أن يمتاز على النّاس بفضائله، وينفرد بها عنهم، والخليفة بأخلاقه ورحمته تقتضي تصرفاته وأفعاله وأقواله خلاف ذلك، وهو أن يشرك الجميع فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء وهو تمام التراحم، والخليفة من تمام صفات الرّحمة التي يكمن في قلبه وجوارحه أنه مؤمن، ولولا الإيمان لم يكن رحيما، لذلك فإن الله تعالى قال: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصّبر وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}658 فهو من أهل الإيمان الذين يتواصون فيما بينهم بالصّبر وبالرّحمة، فالخليفة ومن كان على أخلاقه، أوصى بعضهم بعضا بالصّبر على طاعة الله وعن المعاصي وفي المصائب يتواصون بالمرحمة فيما بينهم، أي أوصى بعضهم بعضا بالرّحمة على عباد الله أو بموجبات رحمته تعالى من الخيرات، والرّحمة هي الشفقة لمن يستحقّها من العباد يتيما أو فقيرا، والأمر بالتواصي بالصّبر إشارة إلى التعظيم لأمر الله، وكذلك وتواصوا بالمرحمة إشارة إلى الشفقة على خلق الله والى التكميل بعد الكمال فان الإيمان كمال في نفسه وكذا الصّبر والمرحمة وغيرهما من الأعمال الصالحة والتواصي من باب تكميل الرّحمة، فعلى سبيل المثال، إن الإطعام خصوصا وقت شدة الحاجة أفضل أنواع العفة، والإيمان أجلّ أنواع الحكمة وهو الإيمان العلمي العملي، والصّبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة، والتراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة.

---

658 البلد 17

ومن رحمة الرّحيم ما أوحى الله تعالى إلى أم موسى عليه الصّلاة والسّلام، حين أوحى إليها أن تقذف ابنها في التابوت وتلقيه في اليم، فتابعه الرّحيم برحمته منذ ولادته بالعناية والرعاية والرّحمة حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}659 ومن رحمة الله تعالى أن تفضل عليه بهذه الرعاية الإلهية وهو طفل رضيع لا يعرف أي شيء ولا يعرف ماذا يطلب أو ماذا يريد، ولكن الرّحيم الذي قدر كل شيء له حكمته فيمن يرعى، ولمن يرحم، وإن كانت الرّحمة الدنيوية عامة لجميع الخلق، إنما هناك خصوص لهذه الرّحمة لبعض عباد الرّحيم، وهذا تذكير لموسى عليه الصّلاة والسّلام بما قد منّ عليه وعلى والدته في طفولته، فقد سبق أن تفضل عليه بمنة أخرى دون سؤال منه قبل أن يعرف الكلام، حين ألهم أمه إلهاما كريما ما الذي يجب أن تفعله حفاظا على حياته.

لقد ألهمها الرّحيم أن تضع هذا الطفل الرضيع في التابوت، وأن تلقي به في النيل، لينجيه من فعل فرعون الذي كان يقتل كل طفل ذكر ولد في ذلك العام لا يشفع له شفيع، وكان من رحمته أن سخر الماء أن يلقي ذلك التابوت الذي يحمل هذا الطفل في شاطئ قصر فرعون وشاءت إرادة الرّحيم أن يأخذ فرعون هذا التابوت الذي يحمل هذا الطفل، وفرعون هو عدو للرحيم المطلق وعدو للرحيم بالإضافة، ولكن

---

659 طه 37- 41

الله أحب هذا الطفل حب رحمة وولاية، ليحبه كلّ من يراه، ولتربى تربية كريمة ملحوظا برعاية الرّحيم وعنايته وحفظه، ومن تمام الرّحمة وسابق العناية به، حين مشت أخته ترقب أمره، فلما صار في قصر فرعون، ورأتهم يبحثون له عن مُرْضِع دلَّتهم على أمه، وبهذا فقد ردّه إليها لتفرح بحياته وعودته، ولتكف عن الحزن والبكاء، وكذلك من رحمة الرّحيم به عليه الصّلاة والسّلام، فقد أسبغ الله تعالى على موسى عليه الصّلاة والسّلام وعلى أمه من الأمن والطمأنينة ما يحفظه بها وما تقر عين أمه وذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه الرّحمة، ولما كبر وقتل خطأ رجلا من قوم فرعون نجّاه من الغم الذي لحقّ به، وخلصه من شرورهم، فذهب إلى مدين ومكثت فيها سنين عدة، ثم عاد من مدين في الموعد الذي قدره الله العليم الرّحيم حيث اصطفاه للوحي وحمل الرسالة، فمن تمام رحمة الرّحيم بموسى أن:" عمدت أم موسى إلى التابوت فقذفته في النيل، فانطلق الماء بالتابوت حتى توارى عنها، فجاء الشيطان فندّمها وأنساها ما كان الله عزّ وجلّ ألهمها إذ جعلته في التنور، فجعل الله عليه النار بردا وسلاما، وندمت حين جعلته في التابوت وقالت: لو ذبح ابني بين يدي كنت أكفنه وأدفنه في التراب، وكان أحب إلي وأسلى لهمي من أن ألقيه في البحر، فيأكله دواب البحر وحيتانه، ثم ذكرها الله ما أنساها الشيطان فقالت: إنّ الذي خلصه من النار سيحفظه في اليم، فاحتمل النيل التابوت حتى تعلق بشجرة ممّا يلي فرعون، فبينا فرعون في مجلسه إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج، فقال فرعون: إن هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجرة، ترفعه الأمواج وتضعه، ائتوني به. فابتدروه بالسّفن من كلّ جانب، حتى وضعوه بين يده، فعالجوا فتح التابوت فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا لم يره غيرها، للذي أراد الله أن يكرمها، فعالجته ففتحت التابوت، فإذا هي بصبي صغير في مهده، فإذا نور بين

عينيه، وقد جعل الله رزقه في البحر في إبهامه، وإذا إبهامه في فيه، يمصه لبنا، وألقى الله لموسى المحبة في قلب آسية، فلم يبق منها عضو ولا شعر ولا بشر إلا وقع فيه الاستبشار، فذلك قوله: "وألقيت عليك محبة مني، وأحبه فرعون وعطف عليه"660.

إنّ رحمة الرّحيم واسعة، لذلك وجب عل كل عبد مؤمن أن يطلب الرّحمة من الرّحيم، ذلك أن رحمة الله خير من الدنيا وما فيها وما عليها، وأل من يطلب الرّحيم المطلق هو الرّحيم بالإضافة، لأنّه من أولي الألباب وأصحاب الرأي وذلك لقوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}661 ولأنهم علماء عاقلون يعرفون معنى رحمة الرّحيم يقولون: ربنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحقّ بعد إذ أرشدتنا إليه، وامنحنا اللهم رحمة من عندك بالتوفيق والتثبيت إنك أنت المانع المعطي، فهو متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء، فالراسخون في العلم، يطلبون من الرّحيم، رحمة التثبيت على الإيمان بعدم إزاغة قلوبهم عن الحقّ والهدى، وكذلك طلب التوفيق للدين الصحيح والإيمان بأن يهب لهم رحمة من عنده يكون فيها التوفيق والتثبيت لما هم عليه من الإيمان، وأن يهب لهم تجاوزا عما بدر منهم بطريق الخطأ، فهو يهب المغفرة والرّحمة، ولكونه وهابا فهو رحيم، والهبة من الرّحيم هي العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، والوهاب في صفة الله تعالى أنه يعطي كل أحد على قدر استحقّاقه وزيادة، وهذه هي من رحمة الرّحيم، حيث الله تعالى يعطي الحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ

---

660 - مختصر تاريخ دمشق 7،428

661- آل عمران 8

سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}662 فالرّحيم المطلق أمر الرّحيم بالإضافة بأن يرحم الآخرين ويأمرهم بالرّحمة، وذلك من أجل سعادة الإنسان وأن يساعد الغني الضعيف، وأن ينصر العزيز من كان ذليلا، وان يغني الغني من يجده فقيرا، وقد وعد الرّحيم من يأخذ في هذه الوجه من الخير أن يرحمه رحمة مضاعفة، لذلك فقد ضرب لهم المثل في ذلك الذين يسعون في الخيرات لنشر رحمة الرّحيم، لن يكونوا أرحم من الله تعالى، فحال الذين يبذلون أموالهم في طاعة الله ووجوه الخير، وينالون على ذلك ثواب الله المضاعف أضعافا كثيرة، كحال من يبذر حبة في الأرض طيبة فتنبت منها شجيرة فيها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وهذا تصوير لكثرة ما يعطيه الله من جزاء على الإنفاق في الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل والرّحمة وهو الغني الحميد.

إنّ الله سبحانه وتعالى رحيم يحب الرّحمة والرحماء، فقد أمر الخليفة بأن يكون رحيما لين الجانب عطوفا دمث الأخلاق، يملأ العين مهابة والقلوب محبة من رحمته على الآخرين، وهذه الرّحمة التي تسكن قلب الخليفة إنما هي من الرّحيم المطلق الذي وهبه إيّاها، لتحنو عليه القلوب، وتجله العقول، فتتبع المعروف الذي يأمر به، والإحسان الذي يدعو إليه بالحكمة والرّحمة والتعاطف والتآزر فقد قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}663 فهذه رحمة من الله بك وبهم أن جعلك لهم لين الجانب بما أودع في قلبك من الرّحمة، ولم تغلظ في القول

---

662 - البقرة 261

663 آل عمران 159

بسبب خطئهم، ولو كنت جافي المعاملة قاسى القلب، لتفرقوا من حولك، فتجاوز عن خطئهم، واطلب المغفرة لهم، واستشرهم في الأمر متعرفا آراءهم بما يحبون وبما لا يحبون، فإذا عقدت عزمك على أمر بعد المشاورة فامض فيه متوكلا على الله، لأنّ الله رحيم يحب الرحماء.

اللهمّ أنت الرّحيم وأمرتنا بالرّحمة، فنسألك اللهمّ أن تجعلنا من الرّحماء المرحومين، ونسألك وأنت الرّحمن في الّسموات والأرض ورحيمهما، أن تنزّل علينا وعلى والدينا وأزواجنا وذريتنا ومن دعا لنا وحبّنا في محبّتك وعلّمنا ومن أحسن إلينا ومن أسأنا إليه، شآبيب رحمتك عدد القطر والندى، اللهمّ أجعلنا برحمتك من الرّحماء الذين تليّن قلوبهم، وتقشعر جلودهم رحمة للآخرين، ونسألك بالرّحمة المهداة محمّد صلّى الله عليه وسلّم أن تدخلنا في رحمتك، إنّك أنت الغفور الرّحيم، اللهمّ آتينا كفلين من رحمتك، وأجعل لنا نورا من نورك نمشي به، وارحمنا رحمة من عندك ننال بها رضاك، وتدخلنا بها الفردوس الأعلى من الجنّة، مع الأنبياء والصّديقين والشهداء والصّالحين.

اللهم يا الرّحيم أنت ربنا إنّا ندعوك كما أمرتنا؛ فاستجب لنا كما وعدتنا إنّك لا تخلف الميعاد، {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}664.

بناء على ما تقدم لا يسع الخليفة إلا أن يقول ما قاله الله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا

664 البقرة 286.

يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}665. {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}666.

الرّحمن من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة، واسم الرّحمن لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، أما الرّحيم فانه يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}667 وقال في صفة النبي عليه الصّلاة والسّلام: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}668 والرّحمن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين وعلى هذا قال: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}669، وفي ذلك تدل الآيات الكريمة على رحمة الله الواسعة في الدارين، إلا أن رحمته في الدنيا عامة (المسلم والكافر)، ورحمته في الآخرة خاصة بالمستخلفين الوارثين.

الرّحمن اسم عظيم لله الأعظم على صيغة فعلان الدالة على المبالغة، وهناك علاقة قوية وتداخل في الدلالة مع الاسم الودود في قوله

---

665 المؤمنون 118.

666 المؤمنون 109.

667 النور 5

668 التوبة 128

669 الأعراف 156

تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا ربّكم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}670 وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}671.

وحظ الخليفة من اسم الله الرّحمن أن يتخلق بشيء ممّا يدل عليه قدر الاستطاعة البشرية، فيكون رحيما بخلق الله، مؤيدا لأرباب الحقّ، ناصرا لأولياء الله، لطيفا في معاملاته لخلق الله، رفيقا بهم، مملوء القلب بالرأفة والرّحمة، محبا لله ومحبا لكل من يحبهم الله، ولكل ما يحبه الله.

أكثر ما ورد اسم (الرّحمن) في سورة الرّحمة الكريمة، وهي سورة مريم، إذ تبتدئ هذه السورة بذكر الرّحمة، يقول تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا}672 ثم يبدأ تردد اسم الرّحمن في هذه السورة خصوصا في قصّة مريم وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، حين قالت مريم: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}673 كما ورد اسم الرّحمن ضمن سياق قصّة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}674وقصّة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تشكل أسلوبها وفق معيار الخير الذي يريده الله تبارك وتعالى للخلق

670 - هود 90
671 - البروج 13 - 14
672 - مريم 2
673 - مريم 26
674 مريم 41 - 46

أجمعين، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام صاحب شخصية اتسمت بالرضا والحلم والود حاول أن يهدي أباه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه، فكان أسلوب الحوار في هذه القصّة مبني على الاحترام واللطف، وبهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه: (يا أبت) فقد كرر (يا أبت) أربع مرات، ففيها من التحبب ما ليس في (أبي) وفي ذلك دليل على سماحة نفس إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من ناحية وتلطفه في إيصال دعوته من ناحية أخرى. ويستمر إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في خطابه مع أبيه ويسأله: {لِمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا؟} والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى. وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان، فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان. بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا. إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام. وفي حوار سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع أبيه الذي ينبني في كل ثنياته على جو الرّحمة والاحترام من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه الكافر، وهنا يخطر لنا سؤال ما دلالة استخدام الرّحمة في هذا المقطع بالذات، إذ تردد مرتين متتاليين، في قوله تعالى: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}675 والملاحظ أن الآيتين تتحدثان عن المعصية والعذاب فلماذا أتى اسم (الرّحمن) فيهما مع أنّ من الأولى أن يأتي باسم فيه دلالة على العذاب أو العقوبة، إلا أن التحليل لسياق

675 - مريم 44 - 45

الخطاب يبين أن العذاب كان مفترضا من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وليس متحقّقا، ولهذا قال: (أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن) على الظن وليس على اليقين، وغلب الظن على اليقين في هذا العذاب باستعمال لفظ (الرّحمن) رأفة بأبيه وعطفا عليه، وكأنه يريد أن يقول أنه في داخله لا يتمنى أن يحدث هذا العذاب لأبيه مستعملا صيغة الرّحمة للدلالة على هذه الأمنية، ذلك أن العذاب في حالة تحقّقه هو حرمان من رحمة الله تعالى، فضلا عن ذلك أن الجرم الكبير يحرم صاحبه من رحمة الرحمان ممّا يترتب عليه الوصول إلى نقطة النهاية التي يكون عندها تحقّق العذاب المقدر. فكان اسم (الرّحمن) إشارة دائما إلى التفكر والتروي من اجل نيل الرّحمة وبخاصة في الأمور المهمة التي يكون في ارتكابها فقدان الرّحمة وتحقّق العذاب، أما وروده في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرّوح وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحمن وَقَالَ صَوَابًا}676 فان المقام هنا يقتضي الرّحمة ولا يقتضي أي شيء غيرها، فقد تحقّقت كل علامات القدرة وأصبح الجميع في موقف اليقين المتحقّق من قدرة وعظمة وجلال الله تبارك وتعالى، فالموقف شديد وحاسم والكل يساقون إلى رب العزة، إذ يقول تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}677 فحين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، (فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا) أي: إلا ما يدل على الاحترام والأدب والذوق الرفيع والطاعة المتطلعة إلى نيل الرّحمة، وبذلك تكون المخافتة همسا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارا لحكم الرّحمن فيهم، والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، فتكون الدعوة لجميع

676 - النبأ 38

677 - طه 108

الخلائق دون استثناء، والكل ينتظر حكم ارحم الراحمين جلّ جلاله، والأمل بالرّب الكريم، الرّحمن الرّحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فالأمل قائم لديهم، لانّ مرجعياتهم عن هذا اليوم تعود إلى سياقات تتشكل جميعها من رحمة ربّ العالمين، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}678 وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}679 وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السّماء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحقّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}680 فالسياقات هنا كلها جاءت واسم (الرّحمن) متشكل فيها ممّا يعطي انطباعا عن الرّحمة الواسعة التي تنتظر الخلق جميعا، ومن المرجعيات التي تنم عن رحمة الله الواسعة ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"681.

ثم يتكرر اسم (الرّحمن) مرات أخرى في سياقات أخرى في هذه السورة وأغلبها سياقات يتضح فيها أسلوب التوعد والعقاب، يقول تعالى: {ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرّحمن عِتِيًّا}682 وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرّحمن مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا

678 - طه 108

679 - طه 109

680 - الفرقان 25 - 26

681 - صحيح البخاري ج 22 ص 432

682 - مريم 69

وَأَضْعَفُ جُنْدًا}683 وقوله تعالى: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرّحمن عَهْدًا}684 كما يتكرر بآيات أخرى بسياقات فيها شكل من أشكال الرّحمة، يقول تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرّحمن وَفْدًا}685 وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا}686 وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحمن وُدًّا}687 فما دلالة استخدام هذا التضاد الظاهر لاسم الله تعالى (الرّحمن جلّ جلاله) بسياقات عذاب مرة وبسياقات رحمة مرة أخرى، والتأمل الدقيق للسياقات جميعا يوصل إلى نتيجة أن سياقات العذاب تنتهي في الأخير إلى شكل من أشكال الرّحمة، فهو عذاب ظاهري على شكل توعد وليس عذاب متحقّق، ولهذا اتبع الله تعالى كل سياق من سياقات العذاب سياقا من سياقات الرّحمة أو سبقه به، إذ يقول تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرّحمن وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا}688.

ينقدح في الذّهن سؤال جوهري عن علاقة اسم (الرّحمن) بسورة الرّحمن، ولماذا سميت هذه السورة (عروس القرآن) ولا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بتفحص السياقات التي شكلت مفاهيم السورة وهي مفاهيم تنتمي بمجملها إلى شمولية اسم (الرّحمن)، بمعنى أن سورة الرّحمن هي شرح قرآني لاسم الله تعالى وصفته العظيمة (الرّحمن)، فكل أية وكل سياق في السورة يشكل مظهرا من مظاهر قدرة الرّحمن، ولهذا ابتدأت

683 - مريم 75

684 - مريم 78

685 - مريم 85

686 - مريم 93

687 - مريم 96

688 - مريم 84 – 86

السورة بلفظ (الرّحمن) واستمرت من بدايتها إلى نهايتها بتعداد مظاهر (الرّحمن) سواء على المستوى الدنيوي أم على المستوى الأخروي إذ في كليهما تتجلى عظمة (الرّحمن)، ولهذا قيل عن الرّحمن أنه رحمن الدنيا والآخرة، قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسّماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ}689 السورة تؤكد هذه الثنائية الرحمانية لاسم (الرّحمن) فهي لا تعدد أشكال أو مظاهر الرّحمة الدنيوية فقط بل أنها تتجاوز هذه المظاهر إلى مظاهر الرّحمة الأخروية التي شكلتها على مستويين دلاليين، مستوى عالٍ ومستوى أعلى، أما الأول فيمثله وصف الجنّة الأول الذي هو للمرتبة العليا، يقول تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَان فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

---

689 - الرّحمن 5 - 25

الْإِحْسَانُ}690 بينما المرتبة الأعلى التي هي تخص الأنبياء والشهداء والصديقين فلهم جنة مختلفة، يقول تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَان لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ ربّكما تُكَذِّبَانِ}691.

تتشكل رحمة الله تبارك وتعالى ضمن ثنائية الدنيا والآخرة ممّا يرتسم لها أطر تحددها وتكسبها مساحات تتوزع بحسب الإرادة الإلهية المتحقّقة فيها الرّحمة المطلقة، وهذا يحيلنا إلى حديث الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ليرسم لنا الرّحمة التي أرادها الله تبارك وتعالى لعبده وفق ترتيب أراده الله تعالى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ692 هنا تتجلى رحمة الله تبارك وتعالى من خلال تقسيمها وفق معطيات أرادها سبحانه، بدأ من الدنيا التي تحضن مختلف المخلوقات فبالرّحمة تعيش المخلوقات وتتوافق وتستمر حياتها وهذه المعيشة في الحياة صورة للرحمة التي رسمها شطر الحديث النبوي وهي متحقّقة وبتحقّقها نجد أن رحمة الله تعالى عظيمة جدا فصورها متكررة يوميا نراها ونتعجب ونسأل أنفسنا دائما ونحن نرى الأسد يلعب مع ابنه والنسر يقطع المسافات

---

690 - الرّحمن 46 - 60

691 - الرّحمن 62 - 77

692 - صحيح مسلم ج 13 ص 311

الطويلة لكي يجلب لأفراخه الطعام ويقوم هو بإطعامهم بنفسه صور تبهر العيون وتسحر العقول لماذا لا يأكل الأسد ابنه؟ لماذا لا يأكل النسر صغاره؟ هذه الأسئلة وغيرها تخرج من بوتقة واحدة مُشكّلة حزما تبحث في اتجاهات مختلفة للحصول على إجابة لهذا النظام العجيب لكنها في نهاية المطاف تجد الإجابة، وهي أن نظام هذا الكون كله يسير وفق رحمة الرّحمن، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات بل أن للإنسان نصيبه الأكبر من ذلك، فتشكلات الإنسان من بداية الخلق إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها توحي بالرّحمة التي أسبغها الله تعالى على خلقه، وهذه الرّحمة المتحقّقة للجميع لا تنقطع بعد زوال الدنيا إنما تدخل منعطفا جديدا، إذ تتوسع أفاقها وتتفوق على الصورة المتخيلة لرحمة الله تعالى المرسومة من قبل عباده فمهما كانت الصورة المتخيلة لرحمة الله تعالى لا تصل إلى أي نسبة للصورة التي سوف يجدها عباد الله أمامهم يوم القيامة، إذ يقول تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}693 أما قوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}694 فهو يعرض الرّحمة لصنفين من الخلق، كانت لهم اليد الطويلة في تكذيب الدعوة الإسلامية والوقوف بوجهها، وفي ذلك ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله تعالى، وإتباع رسوله عليه الصّلاة والسّلام، فان أصروا على عنادهم وكفرهم فحذرهم من نقمة الله تعالى وعذابه فإن بأس الله تعالى شديد، ولا يرده شيء عن القوم المجرمين، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الرّسول لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ

693 - الأعراف 156

694 - الأنعام 147

الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}695.

والرّحمة تتجلى بين العباد ضمن العلاقات القائمة التي رسمها الله تبارك وتعالى بين الخلق جميعا من أدم عليه الصّلاة والسّلام إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}696 سياق الآية هنا رسم بداية الخلق وفق تشكيل تقاربي يلملم الأجزاء المتناثرة، ويجمعها بقصد التعارف ضمن الوعي المتحقّق بين الجميع، ممّا يؤدّي إلى خلق نماذج مختلفة يتحقّق من خلالها التعارف، وهي الشعوب والقبائل، وهذا التشكل للخلق يمنحهم صفات منها التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقّوق الأقارب، ومن هذا التقسيم الكبير للخلق يتبلور تقسيم صغير إلا أنه يمثل القاعدة الأساسية لهذا الخلق وهو الأسرة المتكونة من الزوجين، إذ يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}697. هنا صورة من صور الرّحمة التي بينها الله تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فالجمع بين الرّجل والمرأة آية من آيات الله تعالى الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، فهذا الارتباط بين الزوجين يحيل إلى رحمة الله تعالى التي تكون هي الأساس

695 - المائدة 41

696 - الحجرات 13

697 - الروم 21

في بناء الأسرة، فبها يكون التعاطف والتراحم والسبب في مواصلة الحياة، وان استمرار الأسرة وبقاءها يمثل جانبا من جوانب رحمة الله تبارك وتعالى، وتتجلى صورة الرّحمة في الأسرة بصورة الأمومة التي تمثل تشكلا من تشكيلات الرّحمة الإلهية بدأ من الحمل، إذ يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}698 وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}699 هنا صورة الأمومة في كل تجليتها تطرح عدة تساؤلات مبعثها أنها رحمة من رحمات الله تبارك وتعالى، فلولا رحمة الله تعالى لما تحقّق بناء الأسرة وفق هذه الصعاب التي تمر بها الأم.

ومن رحمة الله تعالى إرسال الرّسل، وهذا الأمر المتحقّق نتج عنه أن الخلق أجمع غيروا مسار حياتهم من الكفر إلى الإيمان وبتحقّق هذا التغيير، تتغير نهاية الخلق من النار إلى الجنّة، وهنا تكون الرّحمة الواسعة من الرّحمن الرّحيم، إذ يقول تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}700. وإرسال الرّسل يستند إلى أمر مهم جدا وهو العذاب المتحقّق في حالة عدم تلبية دعوة رسل الله تبارك وتعالى، يقول تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ

698 - لقمان 14

699 - الأحقّاف 15

700 - الإسراء 15

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}701 وقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}702 وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَربّكمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}703 هنا نجد أن السياقات كلها تحمل الخطاب إلى نهاية متوقّعة وهي العذاب، ومفردة العذاب ترسم معلما دلاليا مرتبطا باليوم الآخر، وهذا اليوم تتحقّق فيه كل خطابات الدنيا المختلفة من عذاب ورحمة، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحقّق من خلال لفظة (سيق) التي بني فيها الخطاب للكافرين والمؤمنين، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ ربّكمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حقّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِين قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}704 فهنا زمر الكافرين تساق زمرة بعد زمرة إلى نار جهنم، فيستوضح الخطاب هنا رحمة الله تعالى السابقة عليهم، التي كانت أمام أعينهم وحاربوها بكل الوسائل، ووقفوا منها موقف الجبار المتغطرس، والتذكير جاء على لسان خزنة نار جهنم {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ ربّكمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} هذا هو مقصد الرّسل، اليوم تستوضح دلالته، وترى صورته المتحقّقة التي رسمت في الدنيا، والتذكير بالرّسل ورد مرارا في القرآن

701 - يونس 15

702 - هود 84

703 - الزخرف 64 - 65

704 - الزمر 71 - 72

الكريم، يقول تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ربّك مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}705، وفي هذا السياق يستوضح شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عَدله ورحمته، ورضاه لعباده الخير والصّلاح، وكراهيته سوء أعمالهم، وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدايتهم إلى سبل الخير، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدّم إليهم بالإنذار والتنبيه.

أمّا الصورة الثانية وهي صورة الرّحمة المتحقّقة، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجنّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}706، وصورة الرّحمة هنا نراها من بداية دخول الجنّة إلى الحمد الذي ورد على لسان أهلها، فالخزنة خطابهم هنا اتسم بالطيبة والرّحمة وبما يليق بالمخاطبين، فالصورتان المتحقّقتان في الجنّة والنار، أي صورة النعيم وصورة العذاب، كان تحقّقهما مرتبط بإرسال الرّسل والتصديق بالرّسل، فصورة العذاب المتحقّقة استندت إلى عدم التصديق، قال تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ ربّكمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حقّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِين قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أمّا صورة النعيم المتحقّقة فقد استندت إلى التصديق برسل الله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ

705 - الأنعام 130 - 131

706 - الزمر 73 – 74

مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}، فإرسال الرّسل يمثل جانبا مهما من جوانب رحمة الله تعالى للخلق، فهو باب للتنبيه وللتوجيه وللإرشاد، ورحمة الله تعالى شاملة مطلقة لا تتقيد بأي قيد بل هي مفتوحة للكل ينالها الجميع فمن صورها الرزق في الدنيا، فهو مطلق للكل لا يقتصر على المؤمن دون الكافر، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ ربّك وَمَا كَانَ عَطَاءُ ربّك مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}707 ترتسم الرّحمة هنا وفق معيار واحد يتشكل الجميع منه وهو أنهم جميعا خلق الله تعالى، والعطاء في الدنيا للكل دون قيد أو شرط في الحصول عليه من الله تعالى لأنه منحة للكل وهنا تتهافت الأسئلة التي تراود الخلق من أدم عليه الصّلاة والسّلام إلى يومنا هذا، كيف يتساوى الكفرة مع المؤمنين في الرزق بل ربما أنّ الكفرة أكثر رزقا من ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السّماء عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ}708 هذه الآية تحيل إلى صور ماضية تتكرر بين حين وأخر لتمثل رزق الله تعالى المتحقّق بين خلقه، وهذا الرزق مثل رحمة الله تعالى من جانب أمّا الجانب الآخر فكان سببا في هلاك كثير من الأقوام، فقد مكّن الله تعالى لهم الأرض وأمدهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر قوّة وعمارة في الأرض وجعل السّماء تمطر عليهم بصورة متتالية، مطرا غزيرا وفجّر لهم من الأرض ينابيع وأنهارا، استدراجا لهم وإملاء، ثم أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وخطاياهم وجعل من بعد هؤلاء الهالكين أجيالا أخرى ليختبرهم، فعملوا مثل أعمال من كانوا قبلهم، وهنا الصورة تتكرر أي

707 - الإسراء 20، 21

708 - الأنعام 6

أن الرزق مستمر والهلاك مستمر، ممّا يدلل أن رحمة الله تعالى مستمرة لا تنقطع رغم الهلاك المستمر الدال على الكفر والعصيان.

ولأنّه الرّحمن التجاء النبي أيّوب إليه بالسؤال والدّعاء؛ فكنت الفورية رحمة تكاد أن تكون ملازمة للسؤال، قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}709، وقال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}710 سبحان الله ما أعظم دعاء أيّوب عليه السّلام وما أعظم إجابة الله له، {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}711

وعليه عندما تفتح أبواب الرّحمة فلا مغلق لها، فأيّوب عليه السّلام فتحت له أبواب الرّحمة لأنّه لم يسأل إلّا الرّحمن الذي بيده كلّ رحمة؛ فعن الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُرْسِلَ عَلَي أَيُّوبَ رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَنْشُرُ يَقْبِضُهَا فِي ثَوْبِهِ، فَنُودِيَ يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَعْطَيْنَاكَ؟ قَالَ: أَيْ رَبِّ، وَمَنْ يَسْتَغْنِي عَنْ فَضْلِكَ"712

استجابة الله لدعاء أيّوب:

عندما لجأ النبي أيّوب عليه السّلام إلى الله سبحانه وتعالى وتضرع له طالبا منه الرّحمة، استجاب سبحانه وتعالى إلى عبده وأمره بأن يقف من مكانه ويضرّب الأرض برجله، فظهر له منبع عين فأمره سبحانه

709 الأنبياء 83، 84.

710 ص 41، 42.

711 البقرة 117.

712 مسند الحميدي، 2، ص 241.

وتعالى بالاغتسال من المياه النابعة من العين، وعندما نفذ أمر الله تعالى خرج من بدنه جميع الأذى والأذى الذي كان يلمّ به طيلة تلك السنوات التي لم يرد اتفاقا عليها، ثم أمره سبحانه وتعالى مرة أخرى أن يضرّب الأرض ثانية في مكان آخر، ففعل نبينا أيّوب وأخرج من مكان الضّرّبة نبعا بعين أخرى، فأمره سبحانه وتعالى أن يشرب من مياهها، فخرج من باطنه كلّ الألم الذي كان يشعر به، فعادت له عافيته من الباطن والظاهر.

رفع الله تعالى عن نبيه أيّوب عليه السّلام البلاء بعد ما مرّ به من الم؛ فقد كان صابرًا شاكرًا ذاكرًا مع شّدة ما المّ به من الألم والأذى والسقم والمرض وأبدله بعد ذلك صحة ظاهرة وباطنة ولما اغتسل من ذلك الماء المبارك أعاد الله لأيّوب عافيته وسلامته. وقد رفع الله عن سيدنا أيّوب الشدّة وكشف ما به من ضُرٍ رحمة منه ورأفة وإحسانا وجعل قصّته ذكرى للعابدين تُصَبِّر من ابتليَ بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرّج الله كربه.

إنّه الشافي الذي بيده الشفاء لكلّ مرض وداء وألم، هو القادر على تغيير الأحوال من سيئة إلى حسنة، هو الشّافي الذي يعيد الأحوال من حالة الخوف إلى حالة الطمأنينة. وهو الشافي جلّ جلاله الذي إذا أراد لشيء أن يكون يقول له (كن) فيكون. وهو الشافي بالمطلق الذي يشفي ما لا يُحصى فهو:

ـ يشفي من المرض: المرض يلحقّ المخلوقات جميعها في الأرض، ولهذا فالبحث عن الدّواء واجب، لأن لكلّ داء دواء يستطب به؛ فلِما لا يبحث النّاس عن الدّواء الذي بأسبابه يكون الشّفاء للمرض؛ فالمرض بالإمكان علاجه، وفي المقابل لا علاج للموت، ولذا فالنّاس دائما يبحثون عن علاج المرض ولا يفكّرون في علاج الموت التي أمرها

بيد الله عزّ وجلّ، وهي النهاية لكل حياة على الأرض ثم من بعد ذلك ستكون النهاية للموت والبقاء السرمدي للحياة، قال تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}713، وقوله تعالى: { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ ربّك ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}714.

. يشفي من الضلالة: الضّلال خروج عن الصائبة التي ينبغي البقاء عليها ولكن بعض النّاس ضلوا ثم اهتدوا، ولذا فالشفاء من الضلالة في دائرة الممكن فلا يقنط المؤمن من رحمة الشافي الذي بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، فالذين يتخذون العمل الشيطاني سبيلهم يضلون والذين يتخذون الحقّ سبيلهم يرشدون، قال تعالى: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حقّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}715.

. يشفي من الجهل: الجهل عدم علم ولذا فمن يبحث يعلم من علمه الواسع ومهما بحث البحاثة لن يبلغوا من علمه إلا قليلا، ولهذا فعليهم بالحث العلمي الذي يمكنهم من معرفة المعجزات والآيات العظام، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}716، وقال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحقّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}717.

---

713 الشعراء 80، 81.

714 الرّحمن 26، 27.

715 الأعراف 30.

716 الإسراء 85.

717 الفتح 26.

ـ يشفي من الكفر: النّاس كانوا أمّة واحدة على الكفر إلى أن بعث الرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم مبشرين ومحرضين ومنذرين وفاعلين للخيرات الحسنى ومناصرين الحقّ بالحقّ فأصبح النّاس بين كفّار ومسلمين يؤمنون بالله واحدا أحدا لا شريك له في الملك والأمر سبحانه أنه الله تعالى، ولذا فالكافر هو المستهدف بالأيمان والإسلام لله ربُّ العالمين، ولهذا الخروج من الكفر هو شفاء لا يتحقّق إلا بأمر الشافي عزّ وجلّ، قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}718.

ـ يشفي من الشرك: الشرك غير الكفر فالكفر أن لا يؤمن الإنسان بالله تعالى والشرك أن يؤمن الإنسان بالله تعالى ولكنه في ذات الوقت يتخذ معه شركاء فهؤلاء كمن يؤمن بالتثليث (الله والابن وروح القدس) ولأنّه الله واحدا أحدا له الملك وله الأمر وله المشيئة المطلقة إذا لا شريك له في ملكه وخلقه وأمره ولذا فمن يتقي الله ربّه يوحده ولا يشرك به شيء، فإنّ وحّده شُفي من شركه الذي يُعد نقيصة تلاحقّ عقل الإنسان الذي يعلم أنّه الخالق وأنّه الرزاق وأنّه ملك الملك ومع ذلك يشرك به مخلوقا ملكا أو بشرا، قال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ

718 البقرة 257.

خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ ربّك سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}719.

. يشفي من الحسد: الحسد عمل من لا عمل له فالذين يشغلهم البحث في آيات الله علما ليس لهم فراغا لحسد النّاس والذين يبحثون ويتعلمون ليس لهم وقتا لحسد النّاس، وكذلك الذين يؤمنون بالحقّ ويتبعوه لا يحبون حسد النّاس بل يحبون لهم الخير كل خير ويعملون على ذلك لأنفسهم وللآخرين، قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}720.

. يشفي من السحر: السحر عملا بغرض إلحاق الضّرر بالآخرين سواء يدرون أو لا يدرون وفي كثير من الأحيان يتداخل فيه العمل الشيطاني بين شياطين الإنس والجن، فالذين جاءوا بسحرهم لموسى وسحروا أعين النّاس هم الذين استعانوا بغير الله ولذا فمن يولّي أمره لله يجد له من كل شيء مخرجا، قال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}721.

---

719 الأنعام 161 . 165.

720 الفلق 1 ت 5.

721 طه 65 . 70.

. يشفي من الكيد: وذلك بإبطاله لكيد الكائدين بغير حقّ، قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}722.

. يشفي من المكر: الذين يمكرون بالعباد لأجل أن تدور عليهم دوائر السوء هؤلاء هم الذين يمكر الله بمكرهم فيبطله ممّا يجعل مكره خير على الذين تمت محاولة المكر بهم، قال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}723، وقال تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاس رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آَيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}724.

. يشفي من الألم ولأذى: البعض يؤذون النّاس بما يقولون أو يعملون أو يسلكون ولكن الله الشافي قادر على أن يُصلح الأحوال أن صفيت الأنفس لله تعالى، ومن لم يكن مع الله سالكا فلن يجد له نصيرا، ولذا فقول الحقّ وإتباع الحقّ يُمكِّن النّاس من أفعال الخيرات ويجعل لهم من كل ألمٍ أو أذى مخرجا، قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}725، وقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}726.

---

722 الطارق 15 . 17.

723 آل عمران 54.

724 يونس 21.

725 آل عمران 186.

726 البقرة 222.

. يشفي من الإسراف: التبذير بالنعم التي انعم الله تعالى بها على عباده يعد من أعمال الإفساد في الأرض حيث البعض في حاجة والبعض يُفسد النّاس بماله أو علمه أو رأيه الانحرافي ويسرف بغير حقّ ويبذر بغير حقّ، ومع ذلك فإن اتقى ربُّه تعالى لأصبح من المصلحين في الأرض فعليه باتقاء الله في ماله ورأيه وعمله، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}727، وقال تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}728.

. يشفي من الغضب: والشفاء من غضب الله ألا يتولى المؤمن قوما غضب الله عليهم، ولذلك فالغضب لا يرشد إلى الصواب فمن صبر وتملك نفسه عند الغضب أحسن تصرفا واهتدى إلى ما ينبغي في مرضاة الله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}729.

. يشفي من العقم: العقم لا دواء له ولكن للحمل دواء فالذي يخلقه الله عقيما لا يمكن أن يكون منجبا إلا إذا شاء الله تعالى، ولهذا فالأطباء لن يجعلوا العقيم بقادرٍ على الحمل ولكن الشافي تعالى قادر، ولهذا يسعوا الأطباء بالبحث في معرفة الأسباب التي جعلت المرأة لا تحمل فهل هي ضعف في البويضة؟ أم هي ضعف في الحيوان المذكر للرجل؟ هنا يمكن لهم المعالجة، لكن أن بحثوا وعرفوا أنهما لا ينجبان بأسباب العقم والعقر هنا يعرفون أنه لا شافي إلا الله، قال تعالى:

---

727 الفرقان 67.

728 الإسراء 26، 27.

729 الممتحنة 13.

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}730، وقال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبّك إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}731.

. يشفي من البغضاء: البعض من النّاس يتباغض بأسباب إيقاد نار الفتنة، ولكن بالزمن قد يعودون إلى رُشدهم فإن عادوا عادت الأمور إلى طبيعتها ولهذا فضل الله كبير على خلقه فلا يقنطون من رحمته سبحانه أنه على كل شيء قدير، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يضرّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}732.

---

730 آل عمران 38 . 40.

731 الذاريات 24 . 30.

732 آل عمران 118 . 120.

. يشفي من الحقد: الحقّد دس من الدسائس التي تحاك بين النّاس وهو من أمراض النفس الأمَّارة بالسوء وذلك بأسباب ضعف الإيمان أو بأسباب مرض يستوجب التشخيص والعلاج وفي كل الحالات لن يبقي الحاقد على حقّده أن تذكر نعمة الله عليه وفضله ورحمته على العباد، فهو ربُّ الجميع دون استثناء والحمد لله ربُّ العالمين، قال تعالى: {وَنزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}733.

ولأنّه الشافي عزّ وجلّ فجعل الشفاء في نعمه التي لا تُحصى فقد جعل من بين ما جعل في العسل الدواء الشافي لكثير من الأمراض وفي زيت الزيتون شفاء لكثير من الأمراض وفي التين شفاء لكثير من الأمراض وفي أعشابه الكثير من الأدوية والسموم التي تستوجب البحث العلمي والفصل بين هذا الشافي وبين ذلك الضّار قال تعالى: {وَأَوْحَى ربّك إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}734.

ولأنه الشافي فهو الشافي لكل داء وألم ومرض ولكلّ شيء هو الشافي بالمطلق فهو الشافي بدواء يؤخذ أو بأمر يصدره أنه الشافي الأعظم جلّ جلاله ما من داء إلا وهو الشافي له (اللهم الشافي أشفينا من كل داء)، فمن يتدبر القرآن يجد فيه الشفاء من ألفه إلى يائه به تؤمن القلوب وبه تطمئن، قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ

733 الأعراف 43.

734 النحل 68، 69.

وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا}735.

وعلى الخليفة أن يُطهِّرَ نفسه من كل كيد ومكر بالنّاس ومن كلّ حسد ومن كلّ سوء وأن يدعو إلى المحبّة والمودّة والتسامح والتعاون على أفعال الخير الحسان وألا يظلم أحدا، بل عليه أن يعمل بكلّ ما يستطيع على إبطال كيد الكائدين ومكر الماكرين وسحر المشعوذين وفك قبضت اليدّ التي بها تُسفك الدماء بغير حقّ، وأن يعمل صالحا ويكثر، وأن يبحث ليعلم أنّه لازال في حاجة لأن يعلم؛ فعلمه واسع ولم يؤت الإنسان منه إلا قليلا. وعليه أن يصبر كما صبر أولوا العزم، وأن يتذكّر صبر أيّوب وإن كان فيه ما فيه من صور الخيال، والغزل القصصي.

فأيّوب لا شكّ أنّه نبيا جليلا عظيما صبورا، ومع ذلك فهو إنسان يمرض ويشفى، فتعرّض لما تعرّض إليه من مسّ ومرض وألم، وقد شفي بأمر الله وفقا لسؤاله إيّاه.

ولأنّه الابتلاء فالابتلاء كما عرفنا لا يكون إلّا للمحظوظين في الدار الدنيا؛ فهو الذي به تتطهّر الذنوب والعيوب، وهو الذي به يتمكّن الصابرون من مغالبة التحدي وقهره.

ولا مدخل للابتلاء إلّا المدخل الأعظم جلّ جلاله، ولا مخرج منه إلّا المخرج الأعظم جلّ جلاله. ولهذا؛ فالمدخل في الابتلاء الله والمخرج منه هو الله، ولذلك فالمدخِلُ هو من بيده الأمر ولا ينتظر من احدٍ أمرا فيُدخِل ما يشاء فيما يشاء وإلى ما يشاء متى ما يشاء وأينما يشاء.

---

735 الإسراء 82، 83.

والمدخِلَ اسم صفة مطلقة ولا مطلق لصافاته إلا الله تعالى، ولذا فالمدخل هو الله جلّ جلاله. إنّه المولِجُ بالقوّة دون أخذ رأي في ولوجه مصداقا لقوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}736 أي أن المدخل ولوجا هو الله ولهذا؛ فالولوج (الإدخال) صفة من صفاته الحسنى التي بها جعل الليل والنّهار متداخلين بما يحقّق التوازن والاعتدال وفقا لدوران الأرض في الفَلِك التي هي فيه سابحة ومسبِّحة لله مولج ليلها في نهارها.

ولأنّه المدخِلَ فهو المدخِلُ للجنة والمدخل للنار كلّ وفق عمله ووفقا لما ما جنت يداه وكسبت، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}737.

ولأنّه المدخِلُ للجنة والنار فهو المدخل لمن يشاء الجنّة ولمن يشاء النار، ومع أنّ النّاس كانوا أمّة واحدة على الكفر إلا أنّ الله بعث الأنبياء والرّسل مبشرين ومنذرين وأمرين بالمعروف وناهين عن المنكر وداعين للخير فافترق النّاس بين باقٍ على كفرٍ وبين مسلما لله ربُّ العالمين، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}738.

ولأنّه المدخِل فهو يُدخل من يشاء رزقا في الحياة الدنيا وقد لا يدخلهم الجنّة وذلك بما تقدم يدي كل من عباده فالذي يُصلح يُصلِح لنفسه والذي يُفسد يُفسِد على نفسه وما ربّك بظلام للعبيد، فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا

736 الحديد 6.

737 الحج 14.

738 الشورى 8.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}739.

المدخِلُ هو من يدخل من يشاء بالقوّة والإرادة وفقا للمشيئة ووفقا لِما تقدمه الأيدي ولا يظلم أحدا، ولأن المدخل هو الله الرّحمن الرّحيم فهو المدخل لمن يشاء في رحمته والمدخل لمن يشاء العذاب والهوان الشديد، قال تعالى: {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}740.

ولأنّ الُمدخل هو الله فهو الذي يتوجه إليه بالسؤال وعليه الإجابة، ولذلك سأل سيدنا محمّدا عليه الصّلاة والسّلام ربُّه ليدخله مُدخل صدقا لِما يشاء دخوله أو الدخول إليه حتى لا يظلم أحدا أو يظلمه أحدا، وكما سأل ربُّه الدخول سأله الخروج مخرج صدقٍ، قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}741.

وعليه نقول:

المدخل يدخل على الظرفية المتعددة ومنها:

1 . مُدخل إلى المكان.

2 . مدخل للزمان.

3 . مُدخل للموضوع علما وحكمة وحجّة وفكرة وغاية.

4 . مُدخل في القول والفعل والعمل والسلوك.

739 محمد 12.

740 الإنسان 31.

741 الإسراء 80.

مع أنّ الله هو المدخِل لكل شيء إلا أنّه لن يُدخل أحدا في غير مكانه ألذي ينبغي أن يكون فيه، فالجنّة أبوابها مفتوحة للمؤمنين الذين يسلموا وجوههم لله ربُّ العالمين ولكن الذي يُفسِد في الأرض ويسفك الدماء فيها بغير حقّ فلا يدخل الجنّة بالرغم من أن أبوابها مفتوحة وذلك لأنّه لا دخول إليها إلا بالمدخل العظيم جلّ جلاله وهو المحاسب على الأعمال والمجازي على الأعمال فمن كسبت يداه يدخله الجنّة ومن أفسدت يداه يُدخله النار، قال تعالى: {وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحقّ وَنَطْمع أنّ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}742.

إذا من يجتنب الكبائر وارتكاب الأفعال والأعمال الآثام يُكفِّر المدخِل عنهم سيئاتهم ويُدخلهم مُدخلا كريما مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}743.

ولأنّ المدخل هو الرّحمن الرّحيم فرحمته واسعة وأبوابها مفتوحة لمن يعمل صالحا أو يستغفر ربُّه أو يجاهد في سبيله أو يهاجر في سبيل إعلاء كلمته وإحقّاقها بين النّاس رحمة وعدلا، وهؤلاء يُدخلهم الله الجنّة خالدين فيها أبدا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}744.

المدخل يُخل على أوجه منها:

742 المائدة 84.

743 النساء 31.

744 الحج 58، 59.

1 . المصلحون الذين ماتوا وهم مصلحون وفاعلون للخيرات الحسان يُدخلهم الجنّة.

2 . المفسدون الذين أفسدوا ثم استغفروا وتابوا فسيجدون الله غفورا رحيما وهؤلاء فقد يكون منهم من يُدخل الجنّة مع الداخلين وهناك منهم من يعاقب على ما أفسد ثم بعد ذلك يُخل الجنّة.

3 . المفسدون الذين لم يستغفروا ولم يتوبوا إلى الله المدخل تعالى فلا مكان لهم إلا نار جهنّم خالدين فيها، وهؤلاء هم الذين أخزاهم الله مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}745.

وعليه فالمتقون هم أصحاب الجنّة يدخلوها آمنين وهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ}746.

ولأنّه المدخِلُ فلا تبديل لكلماته يُدخل من يشاء الجنّة ويُدخل من يشاء النّار ولا يظلم أحدا قال تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الجنّة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ

745 آل عمران 192 . 194.

746 الحجر 45، 46.

الرّحمن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}747.

وعلى الخليفة أن يعمل صالحا ليكون من الداخلين للجنة بقوّة المدخِلُ العظيم وبعزة المدخل العظيم وبإرادة المدخِلُ العظيم وألا يجعل يداه مقدّمتان لِما يظل الآخرين أو يغويهم في غير طاعة الله، وأن يعلم أن الحقّ قولا وعملا وفعلا وسلوكا هو المنقذ من الكرب العظيم، وإنَّ الامتناع عن المحرَّم والمنهي عنه هو خير به ينال رضاء المدخِل للجنة والمغفر للذنوب والسيئات وآثام.

ولذا فالخليفة هو من يطيع الله ورسوله ليدخله الجنّة ومن يعصي الله ورسوله لن يكون من المستخلفين فيها ويدخله نارا، مصداقا لقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}748، ولذا فمن يعمل صالحا يحصد ثماره خير وافرا ومن يفسد يجني ما زرع من مفاسد في الأرض قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}749.

ولأنّه المدخل عزّ وجلّ؛ فهو المخرج الذي يخرج من المرض والألم والابتلاء.

---

747 ق 29. 35.

748 النساء 13، 14.

749 الطلاق 11.

إنّه الله الذي أخرج أيّوب من مرضه وابتلاءه، ولذلك فالمخرِجُ اسم صفة مُطلقة لمطلق وهو المنجي من الضيق وهو الذي بإخراجه تتحقّق الرّحمة أنه الله جلّ جلاله.

ولأنّ المخرج بالمطلق هو الله عزّ وجلّ فهو القادر على فعل الإخراج بالأمر (كن) وفقا لنية وقول وعمل وفعل وسلوك المستهدف بفعل الإخراج وهو على كل شيء قدير فيخرج ما يشاء ممّا يشاء سبحانه مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}750.

إذا الإجابة في القرآن قول حقّ ولهذا فإذا سأل سائلا:

من هو المخرج للحي من الميت والمخرج للميت من الحي؟

نقول:

إنّه الذي يرزق خلقه في السّماوات والأرض والذي يملك السمع والأبصار مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السّماء وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}751.

قال تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}752.

750 الأنعام 95.

751 يونس 31.

752 النحل 69.

ولأنّه المخرج فهو الذي أخرج لنا الماء من بطن الأرض ينابيع تروي الظامئين قال تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}753.

ولذا فعلى الخليفة في الأرض أن يَسجُد لله المخرج للماء من بطن الأرض والمخرج له من قلب السّماء مطرا وهو الذي يعلم ما في الصدور فيخرجه بيّنة ويكون أصحابها يوم القيامة عليها من الشاهدين قال تعالى: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}754.

إذا لا استغراب أن يخرج المخرج الماء ينبوعا بما أنه هو المخرِجُ للحي من الميت والمخرج الميت من الحي، قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}755.

وكذلك لا استغراب أن يخرج المخرِجُ الودق من السحاب ويُمطره حيث يشاء ليخرج من الأرض نباتا ويُخرج من النبات سنابل وثمار فتبارك الله أحسن الخالقين المخرج الحب من النوى والماء من المطر، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السّماء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ

753 الأعراف 160.

754 النمل 25.

755 الروم 19.

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}756، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّماء مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}757.

ولأنّ المخرج هو القادر على تحقّيق فعل الإخراج بالقوّة والحكمة إذا لا تخفي على المخرج خافية سواء أكانت في السّماوات والأرض أم أكانت في الأنفس وما تكنه الصدور مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}758، وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السّماء}759.

أي بما أنّه يعلم ما تخفيه الأنفس وما تعلنه إذا العالم بالأسرار هو وحده القادر على إخراجها إن شاء كيفما يشاء ومتى ما يشاء وليس بذلك على الله بعسير، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السّماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}760.

ولأنّه المخرج عزّ وجلّ إذا هو:

1 . قد أخرج ما أخرج.

---

756 الروم 48.

757 الزمر 25.

758 محمد 29.

759 إبراهيم 38.

760 الحديد 4.

2 . وإنّه في الزمن الآن يُخرج.

3 . وإنّه بعد كل الآن يخرج.

4 . وإنّه في الحياة يُخرج.

5 . وإنّه بعد الموت يُخرج.

6 . وإنّه بعد الخروج من الموت يُخرج الحقّيقة أمام من أنكرها أو ظن أنّه لن يعلمها المخرِج ولن يواجه بها حجّة دامغة لكل باطل.

ولأنّه المخرج فقد أخرجنا من أصلاب أباءنا وأرحام أمهاتنا ونحن لا نعلم عن أمرنا شيئا، قال تعالى: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}761.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يُخرِجَ ما أُمر بإخراجه حقّا معلوما حتى لا يكون في أسرته وأهله وأقاربه وبني وطنه وأمته سائلا ولا محروما ولا مظلوما، وألا يجعل في نفسه غلا للذين آمنوا وليتقي الله ربُّه في نفسه حتى لا يظلم أحدا وألا يَقدِم على عمل أو فعل يؤدّي إلى إخراج البعض من الدين وأن يُخرِجَ ما يعلمه من علم ولا يخفيه عن الذين هم في حاجة إليه، وأن يخرج ما لديه من مودة ليستوعب بها أفراد أسرته ومن لهم حقّ عليه.

وأن يحبب النّاس في الدين ولا يسب أحدا باسم الدين حتى لا يسبوا الله قال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}762.

761 الطارق، 6، 7.

762 الأنعام 108.

ولكي يخرج الخليفة من ارتكاب المظالم أو الأخطاء والزلات فعليه أن يتبيَّنَ قبل أن يحكم فإن لم يتبَّن قبل أن يحكم قد يندم.

وعليه بالإصلاح بين النّاس ولا يقول إلا الحقّ ولا يتبع الأهواء ولا يطمع حتى لا يخرج عن الصواب، وليعلم أن المؤمنين أخوة فلا يفرّق ولا ينحاز لأحد على حساب آخر.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[763].

والحمد لله ربّ العالمين

763 الحجرات 6 . 11.